

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01040 1895

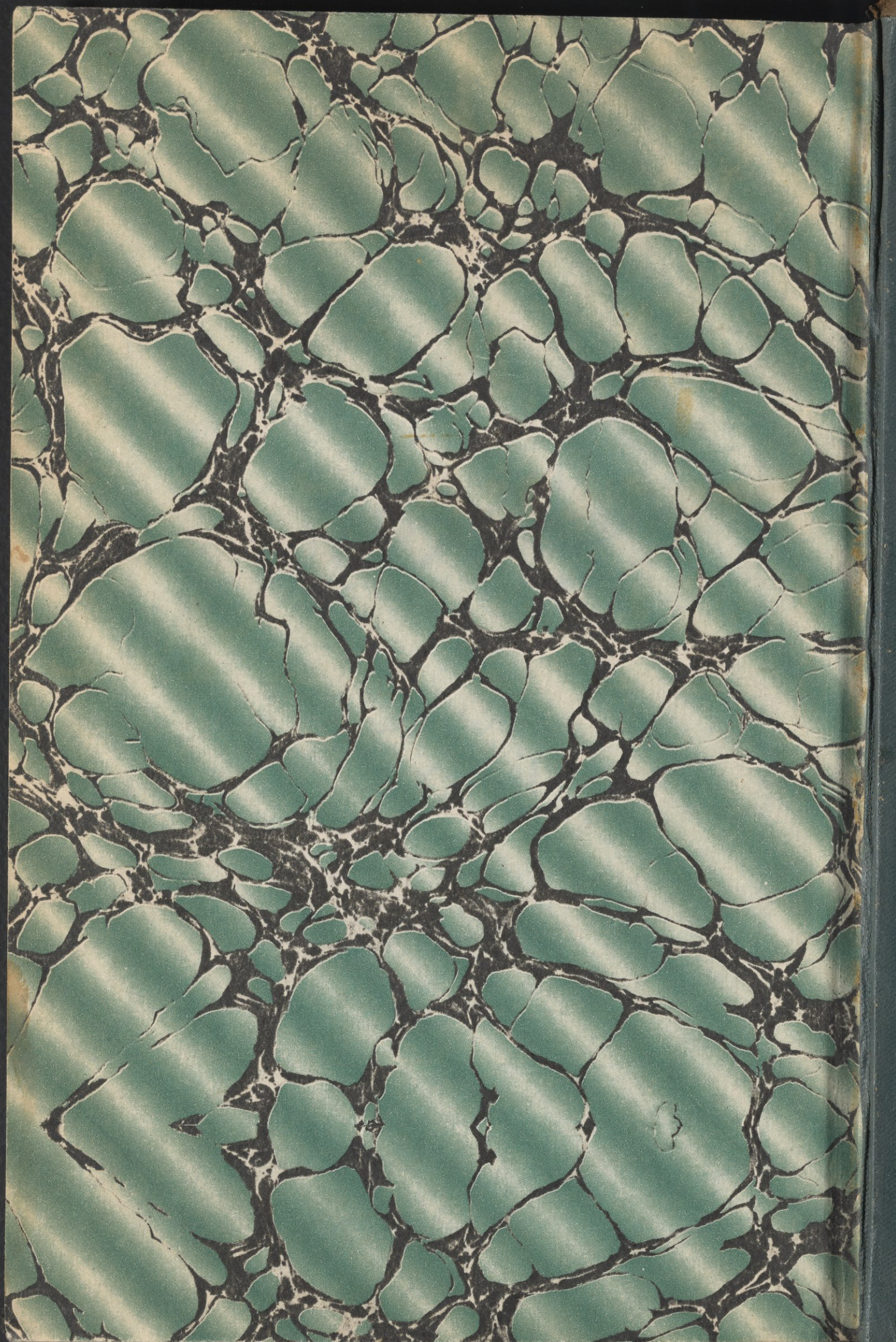
DA
56
J
MC
18

Library of
The American University
at Cairo

Bappy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+.+

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



04-B2670

p^w 22-6-04

بجته التأليف والترجمة والنشر

DA
564
B3
M312
1939

كتاب

حياة دزراييلي

للأديب الفرنسي
ed. اندريه مورا

Maurois, André

نقله إلى اللغة العربية
حسن محمود

العدد السادس

عيون الأدب العربي

923/2
D6/32

٩٢٣ } ٢٤٢
ع. ١٢

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

28592

المصادر

لا يسمح النظام المتبع في هذا الكتاب بأن أذكر الكتب التي رجعت إليها في أسفل الصفحات ، على أني أضع هنا على الأقل قائمة بأهم الكتب التي اعتمدت عليها ، وأحب أن أذكر بوجه خاص فضل مستر بـيكل (Mr. Buckle) على أن كتابه في حياة دزرائيلي يحتوي على أغلب الوثائق التي اقتبست منها شيئاً ، وأذكر فضل المسيو إيلي هاليفي (M. Elie Halévy) فإن كتابه في تاريخ الشعب الإنجليزى في القرن التاسع عشر لهو خير مقدمة لمعرفة الحياة السياسية الإنجليزية ، وفضل المسيو جبريل هانوتو (M. Gabriel Hanotaux) الذى ساعدنى على فهم مؤتمر برلين ومصاعبه ، وفضل مستر دزمووند ماكارثى (Mr Desmond Mac Carthy) الذى هدانى إلى قصص وحكايات قيّمة وذات دلالة .

وقد حدثت حذو مؤرخى الإنجليز إذ اعتبرت قصة معركة المدرسة واقعية وهى التى وردت فى كل من روايتى قيقيان جراى (Vivian Grey) وكونتاريني فلمنج (Contarini Fleming) .

وحاولت أن أكون عادلاً نحو پيل (Peel) وجلادستون (Gladstone) ، ولكنى أشير على القارى الذى يريد أن يرى صورة الأخير منهما غير مشوهة بمرورها فى ذهن دزرائيلي أن يقرأ حياة جلادستون لجون مورلى (John Morley) ويتلو الصورة الصغيرة البديعة التى رسمها له ستريتشى (Strachey) فى مقاله عن الجنرال جوردن (General Gordon) وسيرى أن الأصدقاء والنقاد يجمعون على ملامح واحدة إذا خلصت نياتهم .

- Bagehot (W.) : Essays on Parliamentary Reform, 1888.
Baring (E.) : Disraëli, 1912.
Berkeley (Grantley) : Life and Recollections.
Brandes : Lord Beaconsfield (Bentley).
Barry O'Brien : John Bright (Smith Elder.) Préf. d'Augustine Birrel.
Bryce : Studies in Contemporary Biography (Macmillan).
Buchan : Eglinton Tournament.
Buckle and Monypenny : Life of Disraëli 6. Vol.
R. Bulwer : Unpublished letters.
Cazamian : Le Roman Social en Angleterre, 1903.
Contades (G. de) : Le Comte d'Orsay 1892.
Clayden (P. W.) : England under Lord Beaconsfield 1890.
Croker Papers 1884.
Cucheval-Clarigny : Lord Beaconsfield et son temps 1879.
Devy (L.) : Life of Lady Lytton 1887.
Clarke (Sir Edward.) : Benjamin Disraëli (John Murray).
Dictionary of National Biography.
Disraëli (Isaac) : The Works with a memoir by his son 1858.
Disraëli (Isaac) : Commentaries 1851.
Drew : Catherine Gladstone (Nisbet).
Escott (T. H.) : Edward Bulwer.
Escott (T. H.) : Great Victorians, 1916.
Eglinton Castle (Tournament at) 1839.
Fitzgerald : Lives of the Sheridans.
Francis (C. H.) : The Late Sir Robert Peel 1852.
Froude : Life of Lord Beaconsfield.
Garnett (R.) : Shelley & Lord Beaconsfield.
Greville : Journal.
Gronow (R. H.) : Reminiscence.
Hanotaux (Gabriel.) : Histoire de la France Contemporaine (Le Congrès de Berlin).
Halévy (Elie.) : Histoire du peuple Anglais au XIX siècle.
Hardy Gathorne : A memoir (Longman).

- Hyndman (H. M.) : The record of an adventurous life. 1911.
Hyamson (A. M.) : History of the Jews in England 1908.
Hector (A. F.) : Mrs. Norton. 1897.
Jerrold (Walter B.) : A day with Disraëli, 1872.
Kebbel : Speeches of Lord Beaconsfield, 1881.
Kebbel (T. E.) Life of Beaconsfield, 1888.
Kent (John) : Racing life of George Bentinch (Blackwood).
Lake (Henry.) Personal Reminiscences, 1891.
Lee (El.) : Wives of Prime Ministers, 1918.
Legouis & Cazamian : Histoire de la littérature Anglaise.
Lockhart (J. G.) : Theodore Hook, a sketch 1875.
Lytton (The earl of) Vie d'Edward Bulwer (Macmillan 1913).
Madden (R. R.) : Literary Life of Lady Blessington, 1855.
Martin : Life of the Prince Consort, 1880.
Martin (Sir Th.) : A life of lord Lyndhurst, 1883.
Meynell (W.) ; Benjamin Disraëli. 1903.
Mac Carthy (J.) Sir Robert Peel (Prime Ministers of Queen Victoria) 1906.
Montefiore : Diary, 1890.
Morley (Lord.) : Life of Gladstone (Macmillan) 2 vol.
Nevill (R. H.) : The world of fashion.
Nevill (Lady Dorothy) : Reminiscences (Arnold).
Nevill (Lady Dorothy) Life and Letters.
O'Connor (T. P.) : Life of lord Beaconsfield (Fisher).
Peel (George) Private Letters of Sir Robert Peel (Murray).
Perkins (Jane G.) The life of Mrs Norton 1909.
Reymond, The Alien Patriot.
Rumbold (Sir H.) Recollections of a diplomatist.
Speare (Morris-Edmund) The Political Novel, (Un. of Maryland Baltimore).
Somervell : Disraëli et Gladstone.
Trevelyan : Life & Letters of Lord Macaulay.
Sichel (Walter) : Disraëli (Methuen).
Strachey (Lytton) : Queen Victoria.

Strachey (Lytton) : Eminent Victorians.

Tollemache (Hon. Lionel A.) : Talks with Mr. Gladstone
(Arnold).

Queen Victoria (The letters of).

West : A history of the Chartist movement.

Whibley : Political Portraits (Macmillan).

Whibley : Life of John Manners, 1925.

Zangwill : Dreamers of the Ghetto.

Recd

القسم الأول

« إن الحياة لقصيرة فيجب ألا تكون ضئيلة »

دزرائيلي

Henry Mel

1614-1615 W. D. 1615

1614

عهدان

في سنة ١٢٩٠ وفي يوم عيد جميع القديسين طرد الملك ادوارد الأول يهود إنجلترا بعد أن ظلوا محتلين فيها إلى ذاك التاريخ ، كان ذلك عهد الحروب الصليبية فأخذ الرهبان في جميع القرى يحملون في عظاتهم على الكفرة ، وطالب الشعب بإثارة الحرب الصليبية في داخل البلاد ، فزح عن إنجلترا نحو ستة عشر ألفاً منهم وأصر الملك على أن يخرجوا في سلام فلا يتعرض لهم أحد ، وأطيع أمره على وجه التقريب ، فلم يحدث من الحوادث غير أن أحد رؤساء السفن أنزل ركاب السفينة منهم إلى نتوء من الرمال تحيط به الأمواج ، وقال لهم : « كَتَدُ عَوْنٌ موسى » ، ثم أقلع بسفينه فغرق منهم بضع عشرات وجوزى هذا الرجل بالشنق .

وجد الذين نجوا من البحر ومن البحارة مأوى لهم في فرنسا على أن إقامتهم لم تطل ، ففي سنة ١٣٠٦ شعر الملك فيليب الجميل بم حاجته إلى المال ، فقرر أن يستخلص مال اليهود ويخرجهم إلى أسبانيا ، وعرفوا السلام فيها مدة قرنين ، ثم أوقدت لهم النيران ، وبدا كأن هذا الشعب التعس لا يستطيع الهجرة إلى أبعد من ذلك فهو أخيراً على وشك الانقراض ، ولكن تنظيم الاضطهادات كان غير محكم ؛ وفي الوقت الذي أخذت فيه أسبانيا تقفل أبوابها في وجه اليهود شرعت جمهورية البندقية وجمهورية أمستردام ومملكة فرنسا تفتح أبوابها لهم ، وفي إنجلترا نفسها أدت حركة الإصلاح الديني إلى قراءة الكتاب المقدس ، فتولد من العناية بأمرهم ما يشبه العطف ، واتخذ الغلاة من البروتستانت أسماء يهودية وأخذوا في البحث عن القبائل التائهة . وفي سنة ١٦٤٩ قدم لورد فرفاكس اقتراحاً بعودة بني إسرائيل وأظهر كرومويل ميلاً إلى هذا الرأي ، ثم أيده شارل الثاني . وهكذا تجمعت في لندن في أواخر القرن السابع عشر هيئة قليلة العدد من يهود البرتغال وأسبانيا ،

وقد ارتقى الكثيرون من هذه العائلات أمثال عائلات فلاريال ومدينا ولارا إلى مصاف النبلاء في عهد الممالك العربية ، فكان هؤلاء يحتقرون يهود بولونيا ولتوانيا الذين أخذوا ينزحون إلى الغرب في ذلك العصر على أثر ثورة القوزاق ، ويأبون أن يقبلوا هؤلاء الطعام في بيستهم .

في سنة ١٧٤٨ وفد على يهود لندن إيطالي شاب هو بنيامين إسرائيلي أو دزرائيلي نشأ ببلدة شنتو من أعمال قرارا ، وبحث من قبل عن الثروة في البندقية « فينيزيا » ، ثم اعتقد أنه قد يكون أكثر توفيقاً في بلد أحدث وأكثر رخاء ، وكانت خطواته الأولى في الحياة صعبة ، ضارب فحسر ، وكأنه قد حاق به الخراب ، ولكنه تزوج للمرة الثانية من امرأة حملت إليه دم فلاريال وبأثثة مناسبة فدخل بورصة الأوراق المالية وكون ثروة ليست بالقليلة .

كان رجلاً سمح الأخلاق مرحاً أنشأ في إحدى ضواحي لندن حديقة على الطراز الإيطالي يقدم فيها لضيوفه المكرونة الفاخرة ، ثم بعد الأكل يتناول الماندولين وينشد بعض الأغاني الإيطالية ، وكان يتكلم اللغة الإنكليزية مشوبة بلسنة خفيفة فينيزية تجعل للهجته طلاوة خاصة ، فإذا ما تكلم كأنك تستشف من وراء الضباب الأصفر في حي المال بلندن بريق ذهب سان مارك والأوتاد المتعددة الألوان التي تشد إليها القوارب الفينيزية أمام القصور الوردية .

في خارج الأعمال كان مستر دزرائيلي لا يخالط اليهود أبداً ، وليس ذلك عن عمد ، فهو بسيط طيب القلب يخشى أن يسيء أحداً ، ولكن امرأته كانت تتجنبهم فلو أنها مسيحية لصار لها بفضل مالها وجمالها مركز من أكبر المراكز في الهيئة الاجتماعية ، فهي تتألم إذ ولدت يهودية وإذ تحمل بزواجها اسماً ينم على يهوديتها ، وحاول زوجها عبثاً أن يهدي من سورة نفسها بالهدايا ، ولكنها ظلت متألماً مريرة النفس محتقرة لنفسها ، ولكي يرضيها (وكذلك لعدم اهتمامه بطبيعته) كان لا يذهب قط إلى البيعة ، على أن اسمه ظل مقيداً بين أعضاء هيئة اليهود البرتغاليين ،

وكان دائماً كريماً وحذراً فكان ينفق من حين لآخر بضعة جنيهات في سبيل
مرضاة إله إسرائيل .

وُلِدَ لبنيامين وسارة ابنُ سُمِيَاءَ إِسْحَقَ أثارَ عجبهما ، فقد عقدا الآمال على أن
يصير رجلاً كبيراً من رجال الأعمال ، ولكن ابنهما كان باهت اللون خجولاً ،
لا يمشي إلا والكتاب في يده ، ويكره كراهية عجيبة أى نوع من أنواع النشاط
العملي ، كان هذا الكسل يوقظ في نفس مسز دزرائيلي رغبة في التهمك عليه ،
فيهدى الأب من المشاحنات بأن يقدم هدايا للأم وللابن ، وفي رأيه أن الولد
التعس هو الولد الذي يرغب في لعبة ، وعند ما فر ابنه ذات يوم من المنزل ووجده
نائماً فوق قبر قبّله ووهبه مُهرّاً .

في الثالثة عشرة من عمره نظم الغلام شعراً ، وأزعج مستر دزرائيلي على الرغم
من تساهله وتفاؤله ، فإن لديه صورة من رسم هوجارث تمثل شاعراً يموت جوعاً
في غرفة حقيرة بأعلى المنزل . وأرسل إِسْحَقَ في أول باخرة إلى أحد مراسلي
أبيه في الخارج حيث قضى الغلام أربع سنوات في هولاندا وفرنسا تحت رقابة
مرب صادم أن كان حر الفكر ومن تلاميذ الفلاسفة الفرنسيين ، ثم عاد
الشاب دزرائيلي وقد غذى بآراء فولتير ، وصار من المعجبين بروسو ، ودخل
منزل أبويه وهو في الثامنة عشرة من عمره في زى غريب وشعر مرسل ، وعند
ما حدا حذو « أميل » وارتقى في أحضان أمه وهو يرويها بدموعه تراجعت ، ثم
قدمت له خدها في استياء ظاهر .

ظل بنيامين دزرائيلي وقتاً ما يتعلق بشيء من الآمال ، ولكنه عرف موضوع
القصيدة الطويلة التي كان ابنه ينظمها ، وهو مناهضة التجارة لأن فيها فساداً
لبنى الإنسان ، فعدل عن استخدامهِ في الأعمال وقرر أن يتركه حراً يعيش لميوله
وحينئذ اتخذ إِسْحَقَ دزرائيلي في حياته نظاماً لم يغيره حتى الموت ، فكان يمضي نهاره
في مكتبة المتحف البريطاني ، وهو مكان لذيذ لا يرى فيه عندئذ أكثر من ستة أو سبعة

من القراء ، وهناك يخطط مذكرات على الأوراق التي تملأ دائماً جيوبه ، وقد أراد في مبدأ الأمر أن يكتب تاريخاً للأدب الانجليزي ، غير أنه ما لبث أن غاص في بحر من القصصات المتجمعة ، فاكثف بدور صغير وإنما باعث على التسلية ، هو دور الجامع فنشر باسمه «عجائب الأدب» ، وهي مجموعة من النوادر نجحت نجاحاً كبيراً وقررت مجرى حياته . وفي الخامسة والثلاثين من عمره تزوج امرأة حلوة الطباع بسيطة تنتمي مثله إلى أسرة من اليهود الإيطاليين ، كان يحبها حباً خالصاً ، ولا يرغب منها في شيء إلا أن تنقذه من جميع المتاعب العائلية ، وأن تتمكنه من أن يهب حياته للقراءة وتدوين المذكرات .

وتبين له أن هذا النظام يلائم شريكه حياته ، ومن تلك اللحظة صارت حياة إسحق دزرائيلي خاضعة لنظام لا يتبدل ، فبعد الإفطار يقصد إلى مكتبته ويغلقها على نفسه إلى موعد الغذاء وهو يقرأ ويكتب المذكرات ، وبعد الغذاء يقصد إلى المتحف البريطاني ليقراً ويكتب المذكرات ، وفي العودة يقف لدى جميع بائني الكتب في طريقه ، ويعود إلى داره محملاً بالكتب ليشرب الشاي ، ثم يغلق على نفسه باب مكتبته حتى وقت العشاء مع الكتب التي اشتراها في نهاره وهو يقرأ دائماً ويكتب المذكرات ، وإذا قصد إلى النادي فإنما يفعل ذلك لينقل مكتبته على قصاصات من الورق ؛ فهو يحب الكتب كما يحب غيره من الناس النساء والأفيون والدخان ، والكتب لديه مخدر عذب يجعله ينسى الحياة ؛ وكان محترماً في الأوساط الأدبية ، وله أصدقاء ممتازون ، ويحبه الناس لطيب معشره وبعده عن الغرور . وكان يبرون يقرأ في سرور مجموعات دزرائيلي الصغيرة حيث يجد في حياة عظماء الرجال ومتاعبهم وأطاعهم قصصاً تهدي بعض مخاوفه ، وكان اسم يبرون أيضاً محترماً في ذلك البيت ، إذ أن إسحق دزرائيلي على مذهب قولتير فيما يتعلق بالدين ، وكان في السياسة محافظاً ، ولكنه يرى كل نظام صالحاً مادام يمكن الرجل ذا الثروة المتوسطة من أن يستمر في جمع النوادر الأدبية من غير أن يشغله شاغل .

المدارس

سُمي الابن الأكبر لإسحق دزرائيلي باسم جده بنيامين وولدت قبله ابنة سُميت سارة، وكان الأخ والأخت منذ الطفولة متآلفين تآلفاً كبيراً، واقتصر مستر دزرائيلي في دور الوالد، على أنه بين حين وآخر يشد أذن ابنه مداعباً ومظهرآ في ذلك عدم التوفيق الذي يصاحب رجال المكتبات، أما مسز دزرائيلي وهي بطبيعتها امرأة سريعة الاندهاش والارتباك فكانت تصنع في احترام مشوب بالخوف إلى الآراء غير المفهومة لديها التي يلقيها هذان الطفلان الناميان قبل أوانهما، وتحاول بنجاح أن تجعل من خصلات شعرهما حلقات، وكان الطفلان يحبانها حب العبادة على أنهما لا يبوحان لها بحقيقة ما يكنانه في قلوبهما، وهما يعجبان بوالدهما كثيراً ويعتقدان أنه كاتب كبير جداً ويحبان وجهه الجميل، ولكنهما فهما أن لا فائدة من أن ينتظرا منه الاهتمام بشأنهما، فهما يريانه في ساعة الغذاء وقد لبس طاقية من المخمل فوق شعره الرمادي وهو مشرد الفكر وصامت، ويعرفان أن أمنيته الوحيدة هي أن يعود إلى كتبه، فإذا احتجزه أحد أو قطع عليه عمله أظهر أدباً كبيراً يشعر بأنه متضايق، وإذا تكلم إلى ولديه لم يذكر الحياة اليومية وإنما يتكلم عن أعماله وأبحاثه؛ وقد أخذ في كتابة مؤلف عن حياة شارل ستيوارت فهو يحب أن يفسر لها أنه أبعد الناس عن الطاغية، وأن ذلك الملك الفارس الجميل هو ملك شهيد وصار حب أسرة ستيوارت وكرهية المطهرين هو الدين الوحيد في ذلك البيت.

في أيام الآحاد تذهب الأسرة على الأقدام إلى منزل الجد والجدة دزرائيلي فيسيرون في طريق طويلة مملة يجدون في نهايتها الجدة السيئة الطباع التي تقررص حدود الأطفال وتنتقد سلوكهم في شدة ولا تقدم لهم قط فطائر، غير أن الجد يهبهم قطع النقود ويمزف لهم على الماندولين، ويحدثهم عن إيطاليا. كان بنيامين

الصغير يحب هذه الأحاديث لا سيما ما كان منها عن فينيزيا ويحب أن يتخيل تلك المدينة حيث المنازل من أحجار موشاة كالذئبة والأسقف مكسوة بالذهب ، ويرى الجد أن العائلة أقامت طويلاً في إيطاليا ، وكانت من قبل في عهد فرديناند وإزابيلا تقيم في أسبانيا ، وتختلط مع إيطاليا ذكريات الأتراك ومع أسبانيا ذكريات العرب فاذا فكر بنيامين الصغير في الماندولين والمكرونة لدى جده توهم أيضاً منظر العمائم والصدار المزركش بالألوان الزاهية في بلاد الترف والشمس ، وكان أحياناً ينام تحت شجرة في الحديقة المنظمة على الطراز الإيطالي ، ويحلم فيخلق لنفسه مناظر عجيبة خلابة يقابل فيها مخلوقات كاملة الحسن كفارس انجليزى شاب نجاة من الموت ، وأميرة وهب لها حياته ، وأنهم الثلاثة تاهوا في غابة وجن الليل وغشى رفقاه الخوف ، وحينئذ تولى بنيامين الزعامة لأنه كان دائماً هو الذى يدبر وينتصر فى أحلامه .

أرسل بنيامين وهو لا يزال صغير السن جداً إلى مدرسة مس روبر ثم إلى مدرسة القس بوتيكاني وهى دار محترمة كانت فيها ابنة القس تتولى تدريس الأخلاق وغسيل الملابس ، وهنالك تبين له أمر عجيب هو أنه لم يكن من دين زملائه ولا من جنسهم ، وأشكل عليه فهم ذلك الأمر ، فإن منزلهم المشيد بالطوب الأحمر (بمدخله الأغرقي ودرجاته الثلاث وسوره من قوائم الحديد أمام الرصيف) إنما هو منزل إنجليزى حقاً وأبوه ذو الطاقة من المحمل الأسود والوجه الوردى الحليق بعناية ولغته الجميلة المختارة هو كاتب انجليزى ، وقد تعلم « بن » القراءة فى كتب انجليزية والأغاني التى كانت تدفعه إلى النوم فى المهد هى أغاني انجليزية ولكن فى هذه المدرسة دفعوه إلى الشعور بأنه ليس كالأخرين ، فهو يهودى بينما جميع زملائه إلا واحداً من غير اليهود ؛ استغلق عليه هذا الأمر الغامض ، فاليهود هم الشعب الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس والذى عبر البحر الأحمر وعاش فى بابل فى الأسر وبني المعبد فى أورشليم فما هى علاقته بهم ؟ فى الصباح إذا ما ركع جميع طلبة الفصل للصلاة جماعة يجب عليه هو واليهودى الصغير الآخر المسمى سرجيوس

أن يتعدا ويظلا واقفين ، ويأتى إليهما فى الأسبوع مرة كاهن إسرائيل يعلمهما العبرية وهى لغة غير مفهومة تُكتب من اليمين فى حروف مثل رءوس المسامير . وعرف دزرائيل الصغير أن هذه النظم تباعد بينه وبين أسرار الاشتراك ، وأن لها فى عين أستاذه وزملائه طابعا مضحكا بعض الشيء فتألم لذلك ، فهو متكبر ويود لو أُعجب به فى كل الأمور ، وإذا لعب التلاميذ لعبة الجياد يأتى أن يكلمهم ، وقد تألم بنوع خاص لأنه لا يحب سرجيوس ومن المكروه لديه أن يُشَدَّ هكذا إلى مخلوق قليل الشأن ، أما الغلمان الذين اتصل بهم « بن » فلهم شعور شقر وعيون زرقاء ، وكانت بديهتهم أقل سرعة من بديته ولكنه كان يحبهم بمجامع قلبه ويظهر معهم صبرا عجيبا ، فمنهم جونز الصغير ابن الطبيب وكان يروى له فى أثناء الزهرة بين الدروس قصصا عن اللصوص والمغاور ويصحبها فى الوقت ذاته برسوم مخطوطة بقلم الرصاص ، وإذا أتى بكتاب جديد جلس جونز الصغير إلى جانبه ويقرآن معا ويبلغ جونز منتصف الصفحة بينما يقرأها « بن » بنظرة سريعة وقد استعد لتقليبها . ولقد قرأ من قبل فى الكتب كثيرا وسمع عن الكتب من أبيه كثيرا حتى ان علمه بالكلمات صار واسعا فلا يقف أمام النصوص الصعبة ، أما جونز الصغير فيتهد ويسرع فى التلاوة فيحزر « بن » متاعب صديقه فيبتسم قليلا ويقول له فى رقة كبيرة : « إنى أستطيع أن أنتظر » .

فى المساء فى غرفة المذاكرة يتحدث « بن » وسارة كثيرا فى شأن تلك المشكلة الغربية بين اليهود والمسيحيين ، فلماذا يأخذ الناس عليهما مولداً لم يختاراه وليس لهما عليه من سلطان ، إذا سألا أباهما إسحق دزرائيل تفسير هذا الأمر هز كتفيه وهو الفيلسوف الذى يعتنق مذهب قولتير فاللذلك معنى لديه وإن هى إلا خرافات وهو لا يخجل قط من يهوديته بل هو على العكس يتحدث فى فخر كبير عن تاريخ جنسه ، ولكنه يرى من المضحك حقاً أن يحتفظ فى عصر العقل بمراسيم وعقائد وضعت لحاجات وذكاء قبيلة من العرب الرحل منذ بضعة آلاف مضت من الأعوام وقد حذا حذو أبيه ، وفى سبيل مرضاته ظل اسمه مقيداً فى بيعة

اليهود وهو يدفع الرسوم المقررة ، وسمح كي لا يدخل في مناقشة تضيع عليه بضعة ساعات من قراءاته بأن يأتي ذلك السكاهن ليلقن ابنه اللغة العبرية ، ولكنه لا يعتقد في أى مذهب ولا يقوم بأية طقوس .

على الرغم من موقفه هذا بل ربما بسبب موقفه علم ذات يوم في سنة ١٨١٣ أن يهود لندن الفخوريين بمكانته الأدبية اختاروه رئيساً لهيئتهم فغضب لذلك وكتب لساعته إليهم رسالة شديدة اللهجة قال فيها : « إن رجلاً عاش بعيداً عن أوساطكم في حياة العزلة ولا يستطيع أن يشترك في صلواتكم لأنها في حالتها الحاضرة تقضى على الشعور الديني بدلاً من أن تذكّيه ، وقد اكتفى بأن يحتمل قسطاً من مراسمكم وهو على استعداد للتساهل الكبير في أمور ليست هامة لديه — رجلاً مثل هذا لا يمكن أن يقبل وظائف هامة بينكم لو أن لديه ذرة من العقل والشرف » .

فحكمت هيئة اليهود على ذلك الرئيس برغمه بغرامة قدرها أربعون جنيهًا رفض إسحق دزرائيلي دفعها فتركوه مدة ثلاث سنوات ، ثم عادت هيئة اليهود لمطالبته بدفع الغرامة ، ومات في هذه الأثناء الجدد بعد أن احتفظ تسعين سنة بهدوئه وظرفه على الرغم من زوجة مؤلمة وابن خاب أمله فيه ، وبموته قطعت الصلة التي كانت تربط هذه العائلة باليهودية العاملة ، لذلك رد مستر دزرائيلي على مجلس اليهود طالباً رفع اسمه من قائمة المؤمنين فإن هذا الرجل السهل قد ينقلب عنيفاً إذا ما هوجم في هدوئه .

لم يعد بعد ذلك يهودياً ولكنه لم يصير مسيحياً ، وظل في ارتياح تام لتلك الحالة الوسط ، ولكن أحد أصدقائه وهو المؤرخ شرون ترنر لاحظ لديه أن صالح أولاده في أن يتبعوا دين الغالبية من الانجليز ، فالأبناء خاصة سيجدون الكثير من الأعمال مغلقة أمامهم إذا لم يعمدوا ، حيث أن اليهود مثل الكاثوليك محرومون من الحقوق المدنية . كان مستر دزرائيلي كبير الاحترام لترنر لأنه أول من درس المخطوطات الأنجلوسكسونية في المتحف البريطاني ، وكذلك ألحت عليه الجدة

الجميلة الجافة التي لا زالت تحتفظ بذكري ما قاسته في شبابها في أن يخلص أحفادها من علاقة كثيراً ما تأملت لها ، اقتنع إسحق دزرائيلي أخيراً وظهرت كتب العقائد والصلوات المسيحية في البيت ، وذهب الواحد بعد الآخر من أولاده إلى كنيسة سانت أندرو حيث تم تعميدهم .

بلغ بنيامين عندئذ الثالثة عشرة من عمره ورؤى من المستحسن أن يصحب تغيير الدين تغيير المدرسة ، فإلى أين يرسل ؟ مال أبوه إلى مدرسة إيتون ، وخشيت أمه ألا يكون فيها سعيداً ، ومن المحقق أن مقابلة إيتون لليهودى الصغير الذى أبدل دينه لا تبعث على الاطمئنان ، وأراد « بن » أن يجرب حظه ، لكن الحذر تغلب على الوالدين ، وحدث أن مستر دزرائيلي كان كثيراً ما يقابل لدى باعة الكتب القس كوجان وهو يشتري الطبوعات النادرة وعرف بأنه الراعى الوحيد من غير أبناء الكنيسة الرسمية الذى يعرف اليونانية ، فرجل مثل هذا دائب القراءة لهو رجل كامل ، وعلى ذلك تقرر أن يعهد إليه في « بن » وتربيته .

مدرسة الدكتور كوجان بيت قديم غطته أغصان اللبلاب ، وتوجد على حوائط الفصول العارية التي تحوط المقاعد من البلوط لوحات كبيرة كتب عليها « أنا الطريق والحق والحياة » . تجمع حول الطالب الجديد جمهور متطلع وناقد مؤلف من سبعة تلميذاً فإن ملابسه كانت بادية الأناقة ، وقد أثار دهشتهم حسن هندامه الزائد عن الحد ولون بشرته الخالى من البريق مع ميل إلى الاخضرار ووجهه الجميل الأجنى ، نظر إليه هؤلاء الزملاء الجديون نظرة الاهتمام يخالطها شيء من السخرية ، وتطلع هو إليهم أيضاً في جرأة وقابل هذه النظرة بالنظرة ، تقرر لديه أن يواجههم جميعاً وأن يقابل السخرية بالصفافة عند الحاجة ، وكان يكرر لنفسه إذا غلبه التأثير : « إنهم لا شيء غير بضعة أطفال مماثلين لى فيجب أن تغلب عليهم » .

أظهرت الدروس الأولى ما في تربيته من حسنات ونقائص ، فكان طلبة المدرسة أقوياء جداً في اللاتينية واليونانية ويتفوقون فيهما كثيراً على « بن » ،

ولكن إذا ما أخذوا في الإنشاء والتحرير رأى الكثيرون من الغلمان أنه يفتح أمامهم عالماً جديداً من العواطف والآراء ، وصار زملاؤه يكررون ألفاظه وعباراته وينقلون أشعاره ليطلعوا عليها أخواتهم وبنات أعمامهم ، ونشأت حوله عصابة من المجددين ، وعلى الرغم من كراهيته للحركات العنيفة تغلبت على سجيته الأطماع ، وعمد بنظام إلى رياضة نفسه للتفوق في الألعاب الجسدية ، فاشتهر بين زملائه ، وتبواً سريعاً مركز الزعيم منهم مما أسكره ، وكان إذا خلا لنفسه أحب أن يصور نفسه في مركز رئيس حكومة أو قائد جيش ، ولا بد أن في ذلك لذة .

ولكى يوطد من سلطانه ألف على الرغم من نظم المدرسة فرقة تمثيلية ، فهو يحب المسرح حباً شديداً ، وعندما أخذه والده إليه للمرة الأولى ، وعند ما أصنى إلى تلك الأحاديث المتقنة ورأى تلك الحوادث المدهشة تملكته لذة كبرى ؛ فقد وجد أخيراً عالماً مؤلفاً من مخلوقات توافق مزاجه تقوم بأعمال عظيمة ، وتتكلم كما يتكلم أبطال أحلامه . . . ألف فرقة ، وكان فيها مديراً ومنظماً وممثلاً أول ، ومضى الأسبوع ، وأخذ ينعم بهذه الحياة الجديدة ، ويتمتع بسلطته وقد بلغ السعادة الكاملة .

تلك هى حاله فلم ير تجمع العاصفة ، وجد في النجاح لذة ظن في سداجة أن غيره يشاركه فيها ، ولم يكن حذراً في إظهار احتقاره لكل بطء في الفهم ، وكأنه على الرغم من مياه التعميد لا تزال فيه بذرة الكفر ، وكان ألد أعدائه زعماء الفصول من الطلبة الذين ظلوا يحكمون بلا شريك إلى ساعة وصول هذا الطالب ذى الشعر المرسل في حلقات سوداء ، تضايقوا لسلطانه السحرى القائم على اللذة والذى نما إلى جانب سلطانهم ، فأفشوا للسيد كوجان أمر مدير الفرقة التمثيلية والتدريبات في الخفاء .

غضب القس كوجان غضباً شديداً ؛ فدخل الفصل وألقى خطبة عن تلك العادات الجديدة الفاضحة ، وقال : « لم أرقط في تلك العائلة التى نؤلفها هنا

ما يماثل هذا الأمر ، فهي بلا ريب روح غريبة نائرة لا تستطيع اكتساب عقلية هذه المدرسة وهي التي دبرت هذه الأمور » .

طربت المعارضة والتقطت هذه العبارة ، وفي فترة الزهة التي تلت الخطبة هزأ جماعة من الطلبة وهي تمر بجانب دزرائيلي الصغير ، وصفر أحدهم فالتفت دزرائيلي وقال في هدوء : « من الذي صفر ؟ »

تقدم إليه أكبر زعماء الطلبة وهو يقول : « يكفي ما لاقيناه من قيادة الأجنبي » ، فلطمه دزرائيلي بقبضته على وجهه ، والتف الطلبة في دائرة حول المتلاكمين .

كان دزرائيلي أصغر جسماً وأقل قوة ، ولكنه كان سريعاً كثير النشاط على قدميه ولا كم في فن كبير وفي شجاعة جريئة ، ولم يلبث أن أسال دم غريمه ، وما كان أشد دهشة طلبة المدرسة عند رؤيتهم زعيمهم الشرعي وقد بدأ يفقد رشده وأخيراً سقط ، وقابلوا سقوط هذا النظام في صمت .

ربما كان تلاميذ القس كوجان لا يدهشون كثيراً لو أنهم علموا أن المنتصر يتلقى سرّاً دروساً في الملاكمة منذ ثلاث سنوات .

برومل والقديس أجناس

طلب الدكتور كوجان إلى مستر دزرائيلي أن يسحب ابنه في أقرب وقت ، فعاد « بن » إلى منزله وإلى غرفته وإلى العطف المستمر من أهله ، لم يشعر قط غلام مثل شعوره بالوحدة ، وبأنه سيد على حياته . كان أبوه أكثر رفقا به ، ولكنه كذلك أكثر بعداً عن الحقائق من ذى قبل ، وأمه التي فاقها بمراحل تعجب به في هدوء وصمت ؛ فلم يجد غير سارة يتحدث إليها عن المستقبل .

بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وبرهنت الحوادث أن المدرسة خطيرة عليه ، وأنه إذا ذهب إلى الجامعة يجد مثل هذا الاضطهاد وهذه الكراهية فماذا يفعل ؟ ولكن قبل ذلك ماذا يرغب ؟ بعد اضطرابات العالم المدرسي الصغير ، وذكريات تلك الدسائس والنجاح والحروب المصغرة تبددت الغيوم ، وتكشفت له مناظر ملونة وواضحة ، وتميز من بعيد مطاعم واسعة كما يتميز القادم إلى المدينة من بعيد أبراجها العالية التي تتسلط عليها ، شعر أن الحياة لا تطاق إذا لم يصير أكبر الرجال ، لا أحد كبار الرجال ، وإنما أكبر الرجال فعلاً ؛ فالنفس الجريحة لا تطمئن إلى غير الانتصار ؛ إن عليه ثأراً وهو يشعر بأنه قادر على أن يثأره ، لكن من يفسر له الحياة ، وفي أى طريق يسير ؟ هل يكتب ؟ إنه يعرف الإخلاص العميق الذي يكنه جميع الناس لبيرون ، لكن الكثيرين من كبار الشعراء بل أكبرهم لم يشتهروا إلا بعد الموت ، ولا يحفل « بن » كثيراً بالنجاح الذي يأتي بعد انتهاء الحياة ، إنه يريد أن يلمس المجد « فمن يتردد في أن يصير هوميروس أو الإسكندر » . كان له أخوان أصغر منه سناً ، وكانت أمه تقيم الحفلات تجمع فيها الأطفال من سنهما ، ويرى في هذه الحفلات إسكندر المستقبل وهو يمشى ذهاباً وجيئة ، وقد وضع يديه في جيوب سرواله الشديد الضيق ، وهو باهت اللون

حزين عليه مظهر الأمل والقلق فكانه « جاليفر » بين الأقزام « الليلوبتين » .

النتيجة الأولى التي وصل إليها إذ أخذ في فحص نفسه فحسباً لشفقة فيه أثناء الأسابيع الأولى من عودته أن ثبت لديه أنه على جهل تام ، وُخيل إليه أن من الواجب أن ينشئ عقله من جديد مبتدئاً بالأساس ، فوضع خطة كبيرة للعمل ، وقرر الاعتزال سنة للترؤد من الدراسات .

كان أبوه يراه كل صباح بعين الشفقة والشك ، وهو يدخل إلى المكتبة ويعود محملاً بالكتب ، وفي كل مساء يخط في مذكراته بيان ما قرأه : « يوم الجمعة ٢ يونيه — لوسيان — تيرانس — الأدلف — ويظهر أنها شقيقة — الهنرياد — فرجيل : الكتاب الثاني من القصائد الجيورجية ، وهي تبتدىء بابتهاال نفخ إلى باخوس ، ثم تنتقل مع الأسف إلى حديث يبعث على النوم عن تطعيم الأشجار — تحضير اللغة اليونانية — الأجرومية » ، وفي يوم آخر : « لا أحب ديموستين على الرغم من أن خطبه مليئة بالفضيلة والوطنية والشجاعة ، فالتاريخ يروى لي أنه كان رجلاً مخادعاً ومتحزباً وجباناً » .

كان هذا الغلام الكبير يتنقل في سائر غرف البيت وهو يحتذى حذاء المنزل حاملاً أكواما من القواميس ، ورجاه بلا جدوى مستر دزرائيلي الذي ألف النظام بأن يتخذ مكاناً خاصاً لعمله قائلاً : « إنني أرجوك يا ولدي العزيز أن تنظم أوراقك بعض النظام » . وإن مما لا يرتاح له مؤلف « عجائب الأدب » أن يرى ابنه وهو ينكب في شغف على دراسة تاريخ الدسائس في فينيزيا وتاريخ الأنظمة الدينية الكبرى ، فهذا الغلام يسر لكل ما عليه مسحة من الأسرار ، وهو دائب البحث في التفاصيل الجديدة عن الجمعيات السرية وتاريخ « الفهم » ومجلس العشرة واليسوعيين ؛ قرأ مراراً حياة القديس إجناس دي لويولا وأعجب بشجاعته ، وكان سؤال إجناس لنفسه : « ماذا أفعل لو صرت قديساً حتى أتفوق في القداسة على دومنيك وفرنسوا ؟ » هو السؤال الذي يسأله لنفسه عن ديموستين وسيشرون

و«بيت» وأحب الحكمة القائلة : «نمّ نفسك لا من أجل التمتع بل من أجل العمل». ودرس بنوع خاص كيف جند القديس إجناس تلاميذه وكيف جمعهم حوله ، وكان نظام الكنيسة الكاثوليكية يملؤه إعجاباً فيقول : «ما أعظم الجمع بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية . . . ! أن يكون الإنسان البيروني أو ريشيليه . . . تلك هي الحظوظ الكاملة» .

حزن مستر إسحق دزرائيلي لهذه الآراء ، كيف ؟ ألهذا وصل ذلك التلميذ الذي غذاه بأفكار قولتير العزيز لديه ؟ وهل يخرج العالم الجاحد عالماً متصوفاً ؟ وهو مع ذلك غريب في تصوفه لا ينجذب نحو هذه المذاهب في بساطة واندفاع ، بل قد يقال إن العقل هو الذي دفعه إلى الفرار من العقل ، هذا ما أثار قلق مستر دزرائيلي ، ورأى من الضروري على الرغم من كراهيته لأي مجهود أن يتدخل وهو يأمل في أن يوجه ابنه إلى أغراض أبسط وأجدى من الوجهة العملية . وقد عرض عليه مستر ميلز أحد أصدقائه وهو محام من المشتغلين بالعقود أن يتخذ من بنيامين كاتماً لسره ، وكان للمستر ميلز ابنة فكر أبواها في مستقبلها ، وانكشفت نفس بنيامين لمجرد تفكيره في أن يدفن في مكتب محام ، وكان يقول : «المحاماة ! ما أسخف هذا ! نصوص القوانين ونكات سمجة إلى الأربعين من العمر وينتهي المرء إذا صارت الأمور ميسرة إلى الإصابة بالنقرس والإلحاح بلقب وراثي ، ومع كل فالنجاح في هذه المهنة يتوقف على الاطلاع الواسع في القوانين ، ولكي يصير الرجل قانونياً كبيراً يجب أن يتنزل عن فكرة أن يصير رجلاً عظيماً » ، فقال له مستر دزرائيلي : «حذار يا ولدي العزيز من محاولة أن تكون رجلاً عظيماً في أسرع وقت ، إن شبان اليوم لا يريدون أن يمروا في مهن بطيئة وشريفة ، وإنني لخائف جداً عليهم وعليك » ، وقال أيضاً : إنه يأسف إذ يرى ولده وقد كون مطمحاً بعيداً كهذا لأن نشأته وجنسه يقفلان في وجهه طرقاً عديدة ، وإذا فرض أنه على حق في أن يرتفع في الطموح إلى مستقبل باهر ، فلماذا لا يبتدىء بمشاهدة الناس من ذلك المرصد الجيد الذي هو مكتب المحامي الكبير ، وليس هنالك ما يحول دون أن يتخذ فيما بعد طريقاً آخر .

تأثر بنيامين بهذه الفكرة الأخيرة ، فهو حقاً لا يعرف الرجال ، وهو يرغب في أن يعرفهم ، وقد تعلم من قراءاته أن الكثيرين من أقوياء العقول فشلوا لأنهم أرادوا أن يفكروا وحدهم وتجاهلوا دراسة الجمهور ، فمن الواجب أن يختلط الإنسان بالجمهور ويقف على مشاعر هذا الجمهور ومواضع الضعف فيه ، ووجد في خرافة جوبتير الذي تنكر في زي حيوان لكي ينجح في بعض أعماله على الأرض مثلاً صالحاً لهذه الفكرة .

دخل مكتب المحامي في ساحة فردريك ، ورأى في غرفه موكباً من رجال السياسة والمال والتجارة ، واستمر في المساء على قراءاته في مكتبة والده ، وأحياناً يدعو رئيسه إلى داره فيقابل زوجات صغيرات السن وفتيات ، وكان منظره ساراً ، فله عينان ناعستان وأنفه مستقيم ، وله فم عصبي ، ولون بشرته ممتنع عجيب وإذا خاطب النساء أو تكلم عنهن يدعى الجرأة وعدم المبالاة ، وهو ادعاء معقد ناشئ من خوفه من أن يكون مخدوعاً ، ومن الحياء الكامن فيه وعدم خصب خياله ثم عن عميد الظهور بهذا المظهر ، وقد قرأ بنيامين قصيدة دون جوان وكان يعتبر بيرون إلهه ولا يعرف عن الشاعر غير ذلك الجانب الذي يريد الشاعر أن يظهره . وكان برومل في ذلك الوقت حديث الناس مع تصنعه وصلفه العجيب ، وهو مثال الرجل الذي نشأ في وسط حقير فهو حفيد بائع حلوى ، ومع ذلك صار ذا تأثير على جميع أبناء الأعيان في لندن بمجرد الزهو والاحتقار . ولقد عرفنا كبرياء العظماء والأقوياء والعلماء المزهوين ، ولكن هذا الرجل المتجمل كان يمثل الكبرياء الطبيعية التي تستمد قوتها من نفسها . وهنالك أمثلة شهيرة تدل على نجاح هذه الطريقة ؛ وأراد دزرائيلي أن يحاول ذلك في عالم رجال القانون من الطبقة الوسطى فأخذ يسرف في أناقة اللبس ، فثيابه من المخمل الأسود وأكمام قميصه من الدنتلا وجواربه من الحرير الأسود برباط أحمر ، وأخذ يحجج النساء بعين وحقه ويجيب الرجال وهو يرمقهم من طرف كتفه ، واعتقد في الحال أنه أخذ يرى

النتائج السعيدة لهذا المظهر ، فإن نساء متزوجات وأحياناً جميلات كن ينظرن إليه في ابتسامات يحسده عليها بحق من بلغوا الشهرة من الرجال .
كان أبوه كثيراً ما يصحبه للعشاء لدى جون مري ناشر الكتب ، وهناك يلتقى بالكتاب المعروفين ويستمتع لأحاديث ممتعة لديه ، ورأى هنالك صموئيل روجرز وتوم مور صديق ييرون الذي وصل من إيطاليا بعد أن قابل الشاعر وسأله مستر دزرائيلي : « قل لي هل تغير ييرون كثيراً ؟ » فأجاب : « نعم . انتفخ وجهه وتضخم جسمه وشاب شعره . وفقد مظهر النشاط الروحي الذي كان له ، وتعطبت أسنانه وقد أبدى أنه يجب أن يأتي إلى إنجلترا لاستشارة طبيب عنها » ، وأخذ الشاب بنيامين يصغى إلى الحديث بكلتا أذنيه فإذا ما عاد في الليل شرع يدون ما سمع .

راقب الناس وفي الوقت ذاته راقب نفسه بعين ناقدة ، فرأى أن بعض أصدقاء أبيه يسرون لسرعة خاطره وسداد ردوده ، والبعض يستاء لتطاوله ويراه الكثيرون متصنعاً لا يطاق . وحيث أنه لا يستطيع أن يكون مخلصاً في أقواله خوفاً من أن يبدو مضحكاً فقد أخذ يحيي أحاديثه بالنكات الدائمة ، وإذا حاول أن يقلل من القول اللاذع جاءت ذكرى الإهانات التي تعرض لها في المدرسة كشيطان يتملكه فيرى أن التهجم خير من الخنوع ، فإذا ما جعلت منه مهارته الكبرى في تصيد سخافات الناس عدواً خطراً أُنّب نفسه وفرض عليها رياضات روحية كما فعل « لويولا » ؛ وكتب في مذكراته : « قرار .. أن أكون دائماً مخلصاً صريحاً مع السيدة . . . ولا أقول لها قط غير ما أفكر فيه — ولا سخرية أمامها وإن كانت تعتقد بتفوق في السخرية » .

أخذ يمل مكتب عمله في ساحة فريديك ، وقالت له الفتاة التي أعدت للزواج منه : « لا . لا . إن لك من العبقرية ما لا يصلح لتلك المهنة وهذا العمل مستحيل عليك » ، فأسرع إلى النجاة وكتب يقول : « إن النجاح المتأخر ليس بنجاح إذ معناه أن يصل الإنسان في وقت واحد إلى الخلود وإلى الموت ، فلنتصور قيصر

الشباب وهو يرى ذهاب شبابه فيبكي إذا ما قرأ حروب إسكندر المقدوني وليس انتصار «فرسالة» تعويضا كافياً لهذه الآلام ، ولنتصور بونا بارت وهو رجل مجهول يموت جوعاً في شوارع باريس فما عذاب سانت هيلانه إلى جانب مرارة مثل تلك الحياة ؟ إن ذكرى العظمة الغابرة قد تضيء أكثر السجون ظلاماً . أما العيش في خوف من رؤية نشاط خارق للطبيعة يضيع تدريجياً دون أن يأتي بالمعجزات فإنَّ شد المرء إلى عجلة لتغذيته أو سوقه إلى النطع لا يعادل ما يناله من عذاب مثل هذا الشك » .

قام برحلة إلى ألمانيا ملتصقاً بالراحة ، وقوّت هذه الرحلة من عزيمته إذ شاهد مع والده القصور الصغيرة لأمرأى ألمانيا ، وتلك الجماعات الخلابة السعيدة والمسارح الجميلة حيث يقود الجرانديوك الألماني جوقة الموسيقى بنفسه من مقصورته ، وقوبل بالترحاب ، وكانت موسيقى الجند تعزف أثناء الطعام ، وظن الناس أن مستر دزرائيلي العجوز ذا الوجه النضر والشعور البيضاء قائدٌ إنجليزي ، وسرَّ ابنه في باطن نفسه فإن في الحياة لجمالاً وتنوعاً لا يسمح بتمضية الشباب في مراجعة الملفات ، وقرر وهو يمشي نازلاً في المياه العظيمة لنهر الرين ويمر أمام تلك القمم العجيبة التي تتوجها أبراج مغطاة بالأشجار المتسلقة أن يهجر تلك الطلاس عند عودته .

أعمال

رأى دزرائيلي في الأشهر الأخيرة من حياته بساحة فردريك أن الكثيرين من عملاء المكتب يحرزون ثروة سريعة بالمضاربة على مناجم أمريكا الجنوبية . كانت المستعمرات الإسبانية والبرتغالية عندئذ وهي : المكسيك وبوليفيا وبيرو والبرازيل على أبواب الثورة ، وأيدها الوزير كاننج باسم المبادئ الحرة ، وحصل أرباب المال من الإنجليز على امتيازات في مناجم تلك البلاد ، وسرّ الشعب الإنجليزى لأنه استطاع أن يجمع بين خدمة المبادئ والمصالح ، وأقبل على أسهم تلك الشركات فارتفعت ارتفاعاً فاحشاً . وقرر دزرائيلي مع زميل له أكبر منه سناً أن يضارب على النزول إذ رأى أن الارتفاع مبالغ فيه ، وضارب الشابان في مبدأ الأمر بعدد قليل من الأسهم ، فلما خسرا زادا من الأسهم واستمر الارتفاع فوجدا أن خسارتهما بلغت نحو ألف من الجنيهات الإنجليزية فقررا لجرائتهما أن يديرا المدافع وأن يضاربا على الارتفاع .

اتصل دزرائيلي في أثناء هذه المعاملات بجون وستون باولز أحد أصحاب الأموال المسيطرين على سوق الأسهم في أمريكا الجنوبية ، وتعجب باولز كثيراً لذكاء هذا الشاب وهو في العشرين من عمره وأظهر اهتماماً له ، وسر دزرائيلي لوصوله إلى عالم المال في طبقته العليا ، فالمال قوة حقيقية لأسرارها دائماً سحر في لبه ، ورأى باولز في مبدأ الأمر أن يعهد إليه في وضع نشرة عن شركات المناجم الأمريكية وطبعها لفائدة الجمهور ، وكان دزرائيلي على جهل عميق بأمور المناجم ولكنه كبير الثقة بنفسه ، فما لبث أن جمع المعلومات في بضعة أيام ووضع مجلداً صغيراً لذيذاً في القراءة تدل لهجته على الجدة العجيب ، وحمل الناشر مري صديق والده على أن يتولى نشره على نفقات باولز . وعجب مري أيضاً لثبات هذا الشاب الجميل وقوته في

الإقناع ، وكان قد رآه في حفلات عشائه دون أن يهتم له ، وما لبث أن اندفع معه في الحديث ، وتسكلم إليه في ود كبير عن مستقبل عمله التجارى ، وكان مرى يصدر مجلة هامة « ذى كوارترلى ريثيو » ، وأخذ يفكر في إنشاء جريدة يومية على مثال « التيمس » ، ورحب دزرائيلى بالفكرة إلا أن مرى بطبيعته رجل متردد حذر ، فلما لبث أن تراجع في فكرته ، على أنه كان أمام شخص أشد عنزيمه منه ومثل هذه الجريدة هي أقصى ما يتمناه الشاب دزرائيلى ، ففيها القوة تحت رداء خفى ، فلا بد إذن من إنشاء جريدة كبيرة محافظة ، ويدفع رأس مالها ثلاثة : مرى وباولز ودزرائيلى نفسه ، أما كيف يسدد هذا الأخير نصيبه فذلك ما لم يفكر فيه وتدبير المال أمر سهل ، فإذا يتبقى ؟ مدير للجريدة ؟ عرضت لدزرائيلى فكرة هي أن يدعى لهذا المنصب لوكهارت زوج ابنة سير ولتر سكوت ، ولكنه يعيش في إسكوتلاندة فليحمل على القدوم إلى لندن . وذهب دزرائيلى ليراه ويقنعه ، ولكن الجريدة في حاجة إلى مراسلين ومطبعة ومكان ، كل ذلك يدبره دزرائيلى .

حوصر مرى بالبراهين من كل جانب فلم يستطع المقاومة طويلاً وتم التعاقد على إنشاء جريدة يومية نصف رأس مالها لمرى والربع لباولز وربع لدزرائيلى . وسافر دزرائيلى على أثر ذلك موفداً إلى إسكوتلاندا وفي العربة التي حملته قرأ تاريخ فرواسار وشعر بسعادة تامة ، وفكر في غبطة أن المغامرات تأتي لفائدة المغامرين .

* * *

أظهر عناية كبيرة في الاستعداد لهذا المشروع وانتفع بذكرياته للوسائل التي استخدمتها الجمعيات السرية العزيزة لديه ، وترك لمرى اصطلاحات سرية تمكنه من الكتابة دون أن يذكر الأسماء ، فسير ولتر سكوت هو « الفارس » ، ولوكهارت هو « ميم » ، والوزير كاننج هو « سين » ، ومرى نفسه « الإمبراطور » ، وما إن وصل إلى أدنبرة حتى حمل رسائل اعتماده إلى لوكهارت الذي كان يسكن منزلاً صغيراً بابتسفورد في الضيعة العظيمة التي يمتلكها حموه ، فدعى لمقابلته في اليوم التالى ودهش الكاتب حين رأى الداخل إليه غلاماً ، فعند ما قرأ اسم دزرائيلى كان من

الطبيعي أن يفكر في الأب الذي قابله فيما مضى بلندن ، وكان لو كهارت رجلاً جامداً
ساخراً يحب التظاهر بعلمه شيئاً ما ويتباهى بأهمية حميه فرأى في كل هذا الشباب
إهانة وقابله مقابلة في منتهى البرود .

شعر دزرائيلي أن شجاعته تخونه ولكن من طبيعته إذا ما داخلته الرهبة
زاد ظهوراً بعدم المبالاة ، فجلس في تودة وعظمة زادت من عمره نحو عشر سنوات
وبدا يشرح في هدوء ووضوح تلك الفكرة التي أسماها فكرة جون مرى وهي
في الحقيقة فكرة بنيامين دزرائيلي ، ولكنه يعلم جيداً أن رأى شاب في العشرين
من عمره قلما يجد أذناً صاغية ، لذلك كان من عادته أن يبتدع الحكم ويعزو إلى
الكتاب المعروفين أفكاراً لا يجرؤ أن يعبر عنها بنفسه .

وكانت العبارات تتضخم في فمه فهو يرى لوجود باولز في هذه الشركة أنها
مؤيدة من جميع رجال المال وجميع ذوى المصلحة في المناجم وجميع رجالات أمريكا .
ومرئى اجتذب إليه السياسيين كما أن الوزارة تسنده ، وبالجملة فالصحيفة الجديدة التي
اقترح أن تسمى «النائب» هي أكبر مشروعات ذلك الوقت ، وحملته رغبته الشديدة
في أن يرى الحياة قصة مغامرات على أن يرسمها بألوان زاهية أكثر مما يجب ، حتى
ان لو كهارت على الرغم من قلة ثقته دهش لهذه الحماسة ، وفي اليوم التالي قدم هذا
الرسول الشاب إلى حميه .

كان سير ولتر سكوت في ذلك العهد من أشهر رجال عصره ، تحج قوافل
الأمريكيين إلى ابسفورد فيجدون فيه رحابة مؤثرة ، وينزههم في حدائقه الجميلة أو
يأخذهم لصيد السمك في نهر تويد وكلاهما إلى جانبه ، وقد نما البيت الذي رغب في مبدأ
الأمر أن يكون عشاً صغيراً وأخذ يكبر من رواية إلى رواية حتى صار صورة لقصر
بارون من أشرف إسكوتلاندا ، وهذا الأسلوب من الحياة كبير النفقات جداً حتى
ان ناشرى كتب سير ولتر بدأوا ينوؤن تحت ثقل مطالب المقاولين على الرغم من
شهرة الواسعة . وقوبل الإسرائيلي الشاب الذي حمل إلى زوج ابنته عرض مركز
عظيم مقابلة نخمة من هذا السيد ، ففي مكتبته الجميلة وحوله بضع عشرة من كلاب

الصيد راقين على حجره أو مستندين إلى أكتافه أخذ يصني في عطف إلى شرح هذا الشاب الذي أعجبت به حماسته وخياله ، وكان هو نفسه يحب الأعمال فوافق على الفكرة ، ولكنه أصر على أن يكون لزوج ابنته مقعد في البرلمان إذ يجب على مدير جريدة عظيمة أن يكون عضواً فيه فوعد بنيامين بهذا المقعد .

أقام ثلاثة أسابيع لدى لو كهارت ، وهو يتعشى لدى سكوت كل ليلة تقريباً ولأهمته هذه الحياة كل الملاءمة ، ففي المساء تغني آن سكوت بعض أغان عامة وهي تعزف على «الهارب» ، أو يروي سيرولتر قصصاً جميلة ، وقد سحرهم بنيامين جميعاً ؛ وكتب أبوه إلى مري يقول : « لا يوجد حقاً ما يعاب عليه إلا شبابه ، وهو عيب تصلحه تجارب بضعة سنين . . . ومشروعاته واسعة ، ولكنها قائمة على العقل ، وهو إذا انكب على عمل كان جادا فيه » ، وكتب مري إلى لو كهارت : « تركت صديقي الصغير دزرائيلي يسلك طريقه إليك ، وأنا على ثقة من أنك ستكتشف قيمته سريعاً . . . »

وأستطيع أن أقول صراحة إنني لم أقابل شابا تعلق الآمال على مستقبله أكثر منه ، فمعرفة بالطبيعة البشرية والجانب العملي لجميع آرائه كثيراً ما يبعثني على الدهشة من شاب لم يكد يعدو العشرين من عمره . . . وإنني أؤكد لك أنه جدير بكل ثقة ، لأن الكتمان من صفاته ، وإذا تحققت فكرتنا العظيمة فسوف نجد فيه صديقاً لا يقدر . . . »

عاد دزرائيلي حاملاً موافقة لو كهارت على أن يدير مجلة كوارترلي والجريدة ، وأن يمنح مرتباً قدره ألفان وخمسمائة جنيه في السنة ، وما عاد حتى استأجر مكاتب للعمل ومطبعة ، وعين أحد الألمان الذين عرفهم في كوبلنتس مراسلاً ، وأكد له أن هذه الجريدة ستكون مركز الأخبار في العالم جميعه ، وحصل على مراسلين في الكثير من عواصم أوروبا وأمريكا الجنوبية والولايات المتحدة ، وأخيراً اعتقد أن كل شيء يسير في أحسن حال ، وأن ليس ما يحول دون ظهور الجريدة حين هبت على رأس بنيامين أشد العواصف .

لم يكن دزرائيلي يعرف ما وراء الستار في محل مرى ، وأهمّل الوقوف على وصفه أو استطلاع ما فيه بنفسه ، ولم يكن يتصور أن دخول رجل في مكانة لو كهارت يحدث شيئاً من الضجة ، على أن جون ولسن كروكر ، وهو كاتب وسياسي معروف ووكيل لوزارة الحرب^(١) ، ومن أشهر الأدباء المساهمين في المجلة ولكنه رجل حرون وذو روح شريرة ، (وكان ما كولي يقول: إنه يكره كروكر كما يكره مسلوب العجل وهو بارد) ، غضب غضباً شديداً عند ما علم بالمشروعات التي دبرها ناشره في خفية عنه مع صبي في العشرين من عمره ، وتعارك عراكاً شديداً مع مرى ، وهذا ألقى اللوم على دزرائيلي واتهمه بأن ثرثته كشفت عن مشروعات كان يجب أن تكون سرا ، وفي اليوم نفسه تغريباً هبطت أسعار الأسهم الأمريكية في سوق الأوراق المالية هبوطاً هائلاً ، وكانت فكرة الشاين الأولى سليمة ، ولكنها سابقة لأوانها ، والآن عند ما ضارباً على ارتفاع الأسعار حدث النزول الهائل وحق الخراب بياولز الشهير في بضعة أيام ، وخسر دزرائيلي وصديقه إيفانز سبعة آلاف من الجنيهات .

على ذلك صار دزرائيلي التعس غير قادر على الاشتراك في إصدار الجريدة بصفته من ممولها ، ووجد أنه في العشرين من عمره محمل بديون لا يعلم كيف يفيها ، فحسر في الوقت ذاته أصدقاءه وماله ومركزه ، وكان من المستطاع أن يظل على صلة بالمشروع ، وهو أمر طبيعي إذ هو محرك الفكرة ، ولكن كروكر يثقته وكان يدهش لو علم حقيقة هي أن لو كهارت يثقته كذلك ، فقد احتمله إذ رأى فيه النفع ، ولكنه اعتبره مجرد مغامر ، وعلى ذلك أخرج في بضعة أيام من هذه الشركة التي أنشأها وكانت حيرته شديدة ، فقد عاش شهرين في جو من النجاح والثناء ، وعامله مرى وسكوت ولو كهارت وأبوه جميعاً على أنه غلام خارق للطبيعة وظن نفسه معبوداً ، وظن ذلك في سهولة بلاريب ، إذ نشأ في أسرة تحنو عليه وتعجب به ، ولكن نسي هذا الأمر فجأة ، وصار الجميع ينظرون إليه في غضب

(١) كان كروكر في الحقيقة وزير البحرية .

واحتقار ، وكان الكارثة الكبرى قد حلت على أثر الانتصار .
فالعالم أصعب قياداً مما ظن في بادئ الأمر .

عاد إلى داره حزيناً فاقد الشجاعة ، وكان الروابط التي تحرك عقله قد انحلت ، على أن والده الذي لم يعرف أسوأ ما في مغامراته وهودين السبعة آلاف جنيه ، أكد له أن من المضحك ممن لا يزال في سنه أن يقول (كما قال) بأن الحياة لعبة خاسرة . وظل بنيامين عدة أيام لا يستطيع أن يأتي عملاً غير التفكير في فشله ، ولكن بعد أسبوع قضاء في راحة وتفكير ومحاولة أن يفهم أين أخطأ ، دهش لنفسه إذ شعر برغبة ملحّة في الكتابة أو على الأصح كتابة رواية ، فهذه التجربة الأولى للعالم ، وهذه الموقعة وهذا الفشل ؛ إن هي إلا مأساة شعر فجأة بالحاجة إلى تصويرها وأن يخلق بطلا يتخذ اسمه كي يشرح نفسه لنفسه .

وهو غلام لا يتردد في التنفيذ ولا يقل في عجلته لإنهاء الكتاب عن عجلته في بلوغ المجد السياسي . وكان القناع الذي تقنع به شفافاً ، وثيقان جرای بطل روايته هو مثله ابن لكا تب ذاهل عن أمور الحياة يقضى أوقاته بين الكتب ، وهو مثله طرد من المدرسة ، ومثله يتملكه الطمع السياسي ، وهو كثير الحركة في غرفته قاق لرغبته في أن يصير خطيباً كبيراً . وكان المنطق السياسي الأول لثيقيان جرای ما يأتي : « في هذه اللحظة كم من نبيل رفيع النشأة يباعد بينه وبين الوزارة حاجته إلى الذكاء ، وماذا ينقص ثيقيان جرای كي يبلغ هذا المرمى ؟ نفوذ ذلك النبيل ؛ فإذا كان شخصان يتمم أحدهما الآخر على هذه الصورة فلم لا يتحدثان ؟ أخذ يبحث عمداً عن قوى وغبي ، ثم عمل على التسلط عليه بالمداهنة ، ووجد هذا القوى الغبي في شخص المركيز دي كراباس ، وتمكن ثيقيان من إقناعه بأن يؤلف حزباله ويتولى رئاسة الوزارة ، وكان فيفيان لا يشك في النجاح لأن من أول مبادئ مستر ثيقيان جرای أن كل شيء ممكن ، نعم . قد يفشل رجال في الحياة ولكن السبب في هذا الفشل هو نقص الشجاعة الأدبية والجسدية ، ولكن ثيقيان جرای يعلم أن

في العالم شخصاً واحداً على الأقل لا يعرف الخوف في جسده أو في عقله ، ولذلك وصل إلى نتيجة ارتاح لها ، هي أن حظه من الحياة لن يكون إلا عظيماً ، وبعد أن اتخذ لنفسه نموذجاً لبطله جعله دزرائيلي في شيء من الشدة الواضحة يفشل ضحية للدسائس والأخطاء ، ثم أرسله جريحاً إلى رحلة في الخارج محاولاً النسيان .

انتهى الكتاب في أربعة أشهر قبل أن يبلغ المؤلف إحدى وعشرين سنة من عمره ، وعلى غير علم من أهله ، ولم يكن الكتاب خالياً من الميزات ، فكل ما استطاع دزرائيلي أن يلاحظه بنفسه كشباب فيثيان وأبيه والمدرسة كان حياً وحقيقياً ، وقد اتخذ في كتابه لهجة السخرية ؛ ويجد الناقد الفاحص تأثير قولتير وسويفت ، وقد صاغ الحوار مما سمعه لدى مرى وسير ولتر سكوت . أما القسم الذي اخترعه المؤلف ففيه شيء من مظاهر الطفولة .

كان لعائلة دزرائيلي جار محام اسمه مستر أوستين متزوج من سيدة ظريفة ذكية وجميلة جداً تحب التصوير ، ولها خبرة بالموسيقى ، واشتهرت بذوقها الأدبي وقد اهتمت من زمن بعيد لبنيامين ، وتحب إذا ما زارت مسن دزرائيلي أن تقابل ذلك الشاب الجميل الذي تراه يوماً وهو راقد على بساط بهو الاستقبال بين أكوام الكتب ، وتراه في اليوم التالي وقد نزل من غرفته وفي يديه قفازا الملائكة وهما يغطيان أكام قميصه المصنوعة من الدنتلا ؛ وفهمت لأول وهلة أن مظهر الخفة فيه لم يكن إلا تصنعاً ، كانت تشق به وهو يثق بها ، ويخلع أمامها المظهر الذي اتخذته ، فيضع الخوذة والدرع جانباً ويقلع عن مظهر عدم الاكتراث ويعود بسيطاً ومخلصاً يبوح بمخاوفه وفشله ورغائبه ، وعرف فيها الإخلاص ، وذلك ما يعجبه إذ هو يخشى الحب ، فلا يسكندر وقيصر لم ييكيا قط راكعين أمام امرأة والعجيب أنه ظل في الوقت ذاته عاطفياً واستمر يبحث (كما فعل في أحلام الطفولة) عن امرأة عجيبة يقدم لها إخلاصه ، وأوجدت لديه مسن أوستين العاطفة النبيلة التي تنشأ من محبة النساء دون أن يتقيد بالقيود التي توجد من العلاقة مع النساء وهذا حسن جداً .

أسرَّ إليها أنه يعمل في تأليف رواية فعرضت عليه أن تقرأها وهي مخطوطة بمجرد انتهائه منها ، فإذا رأت فيها النجاح قدمتها إلى صديقها كولبرن وهو في ذلك الوقت أكثر الناشرين إقداماً ، فأرسل دزرائيلي المسودة إلى جارتة الجميلة ، وفي اليوم التالي وصلتته منها رسالة حماسية ، واتفقا لكي يثيرا فضول كولبرن على أن تقدم إليه الرواية من غير اسم المؤلف ولا يعرف هذا الاسم غيرها ودزرائيلي ، وزيادة في الحيلة نقلت الكتاب مرة ثانية بخطها .

كان كولبرن أستاذاً في فن الإعلان فرأى لساعته ما يمكن أن ينتفع به من مثل هذا الكتاب اللاذع إذا نشر من غير اسم المؤلف ، فظهرت في جميع الصحف والمجلات إعلانات صغيرة تنبئ عن قرب نشر رواية عن حياة المجتمع وضعها مؤلف لا يريد أن يكشف عن نفسه لأسباب ظاهرة ، وذكر أن الكتاب يحتوي على نقد لاذع وأنه مجموعة صور حية يتألف منها متحف أهلى ، وأنه يماثل قصيدة بيرون عن دون چوان إلا أنها كتبت تترأ .

أعدت هذه الجملة الجمهور فكان نجاح رواية فيثيان جراى عظيماً ، وبيعت نشرات قيل إنها مفتاح لأسماء الكبراء الذين اتخذوا نموذجاً في وصف شخصيات الرواية ، وذكر اسم عدد من الرجال المشهورين على أنهم مؤلفو الكتاب ، وصار الكتاب موضوع حديث المجتمعات جميعاً ، وسر دزرائيلي وشريكته الجميلة سروراً كبيراً .

ولكن حدث فجأة أن اكتشف السر إذ باح به أحد الأتباع ، فغضب رجال المجتمعات غضباً شديداً عندما علموا أن المؤلف المجهول الذى امتدحوا منذ شهر ذكاه ومعرفته بالحياة الاجتماعية الإنجليزية لم يكن غير فتى في العشرين من عمره بعيد عن هذه الحياة الاجتماعية — واتفق الجميع على أنه كان من السخافة عدم شكهم في صغر نشأة المؤلف لما يتبين من لهجة الكتاب نفسه ، وكل أولئك الذين ظنوا في أنفسهم أنهم إحدى الصور التي اتخذها المؤلف موضوعاً لسخريته وجدوا سروراً في أن يردوا إليه السخرية مضاعفة مائة مرة . أما الذين اتخذهم

المؤلف نماذج حقاً فقد اشتد سخطهم ، وقد رأى مرى أن المراكز دى كراباس قام في علاقته بفيثيان جرای في الرواية بدور يشبه دوره فغضب وقاطع في قسوة عائلة دزرائيلي بأجمعها ؛ ولاحظ أحد النقاد أن « طبقة المؤلف تم عليها طريقته في الإصرار على موضوعات ينبو عن ملاحظتها رجل الأوساط الاجتماعية » ؛ وتكلم ناقد آخر عن « الخدعة المخجلة التي كان لها الفضل في انتشار الكتاب » ؛ واتهم ناقد ثالث المؤلف بأنه حصل على جمهور بأحق الطرق وأكثرها إيذاءً للنفس وسخر طويلاً من ذلك الزعم المضحك الذي ينتحله المؤلف ليظهر في مركز ليس له

لما قرأ دزرائيلي هذا الحكم القاسي أفلتت الجريدة من يده وغاب في ذهول محزن ، فقد رأى نفسه موضوعاً للسخرية وهذا أشد ما كان يخشاه في العالم ، السخرية ؟ . . . لم يبق أمامه غير الموت . . . حاول أن يضحك فلم يستطع إلا الابتسام في مرارة شديدة — ما أشد وقاحة هؤلاء الناس . . . أغمض عينيه وبذل مجهوداً كي يخترق وطأة العاطفة الحالية ويصل إلى منطقة التفكير العادل البعيد عن التحيز ، هل هو حقاً كما زعموا غير قادر على الكتابة وغير جدير بها ؟ فكان جوابه مخلصاً لا — حقيقة إن كتابه متوسط ولكن الخلق الأدبي ضروري لوجوده ، تخيلات طفولته من ملوك وحكام ونساء مؤثرات وجماليات في مظاهر الترف والنور لا زالت دائماً تملأ نفسه وتريد أن تظهر في الحياة ، وإلى جانب مثل هذه الأحلام كانت سخرية الأغبياء حقيرة الشأن ، فأقسم لنفسه أنه على الرغم من سائر العقبات سيكون مؤلفاً وأكبر المؤلفين .

عاش منذ سنة تحت تأثير عواطف شديدة ، وهو رجل عصبي فتأثرت صحته وراثته عائلة أوستين مهموماً فنصحوه بأن يحقق في الحياة الفصول الأخيرة من روايته فيثيان جرای فيرافقهم إلى إيطاليا ، وقبل ذلك في سرور كبير .

لم يمض شهر حتى كان قاربه يسير على ضوء القمر في القناة الكبرى بفينيزيا بينما يرسل القمر أمواجاً من الضوء الفضي على تلك البيوت الشرقية المظهر ، وتتطاير

في الهواء الساخن نتف خافتة من أناشيد الغرام ، وتعزف الموسيقى النمساوية في
ساحة سان مارك ، وتحقق ثلاث رايات كبيرة منصوبة على الأعمدة الملونة ؛ وسر
دزرائيلي لأن أرض غرفته من الرخام ، والستائر من الحرير الأحمر ، والكراسي
مذهبة ، والأسقف مغطاة بصور من رسم تينتوريتو ، والفندق نفسه كان في
الزمن الخالي قصراً لعائلة بريوني التي تولى عدة أفراد منها مراكز الرياسة في
جمهورية فنيزيا .

العزلة

هدأت السياحة من نفسه ولكن الجسد ظل عليلاً فهو يصاب بصداق مستمر يجعل العمل مستحيلاً عليه ، وتكلم الأطباء عن التهاب في أعصاب المخ ، وقرر أبوه عندئذ ترك لندن واشترى في بادنهام وسط غابات باكنجهامشير بيتاً ريفياً كبيراً ، فبحث الفتى المريض عن العزلة فيه ، وفي أبهائه المجهولة وهو جالس أمام المدخنة العالية بين الأثاث وعدد لا يحصى من دواليب الكتب أخذ هو وأخته سارة يتبين موقفه في وضوح .

غلب مرتين على أمره ، والعالم الذي أراد أن يقبض عليه بكلمات يديه أفلت مرتين من بين أصابعه ، وقد أضاف « شبحاً آخر إلى مملكة الأشباح التي تنشأ من النضوج الخطر قبل الأوان » ، ولكن لماذا ؟ إذا كان قد قبل الهزيمة فإنه أراد أن يستخلص العظة منها .

فأولاً كان متصنعاً متكبراً محباً لنفسه كثير الخيلاء في الحياة وفي كتبه . أجل ! ولكن هل هذا خطأ حقاً ؟ كل إنسان له الحق في أن يكون متصنعاً إلى أن ينجح في الحياة ، وكان بيرون متصنعاً أكثر منه ، ثم تغلب — ولكن بيرون هو بيرون ويغتفر التكبر في شاعر كبير نبيل المولد — على أن ذلك منطق معكوس فالتكبر ضروري كلما كان المولد وضعياً . وعلى الرغم من هزيمته ظل يعتقد أن خيالاته الجريئة خير من السكال لدى الكتاب المحدثين العاديين والسادة المسنين كالأخشاب ، والتجمل الظاهر ظل لديه المسلك الوحيد الجريء في الهزيمة أكثر من أي وقت آخر ، على أن من المستطاع جعله أكثر إتقاناً ، فعدم المبالاة المتعمد هو أحسن مظهر من التصنع الخشن ، والمسألة هي تغيير في درجة اللون لا في اللون نفسه .

خطأ أهم من ذلك : لقد أراد أن يتعجل الحياة ويقتطف النجاح اقتطافاً ، وصدق أبوه إذ قال له : إن العظمة لا تنال في يوم ، ومهما كانت مواهبه عظيمة فهو يعترف بأنه ليس إلا غلاماً في اللحظة التي أراد فيها أن يعمل كقائد ، وهو لم يكن قادراً على أن يدبر الأمور بنفسه فكان عليه أن يختار زملاء له ، وقد أخطأ في اختيارهم فيجب عليه أن يتعلم معرفة الرجال ، ولا سيما كيف يتخلص منهم ، ولكن يجب لهذا الغرض الانتظار فالصبر هو أول فضيلة ينبغي اكتسابها ، ومن طبيعته الصبر في الأمور الصغيرة ، ولكن يجب عليه أن يحول الدقائق إلى سنوات ، قد يكون ذلك ثقيلاً عليه ولكنه ضروري له . . . ثم ماذا ؟ إنه أطلق لسانه كثيراً ولفت أنظار خصومه قبل الأوان ، فيجب عليه أن يتعلم الهدوء والكتمان والتجلد وأن يكتسب نوعاً من الترفع الجميل المذهب وهو أمر صعب ، ولكنه يقف في سبيل الفضوليين ، وإلى أن يتيسر ذلك يستطيع أن يحتفظ لوقت ما بمظهر الخفة على أنه قناع مؤقت ، وليقرأ رتز وروشفوكول اللذين هما من خير أساتذة هذه الأمور ، وليقرأ ويعيد قراءة كل ما يختص بنا بليون ، ويجب أن لا يفضى بسره لأحد حتى لأعز الأصدقاء .

فإذا انتقل من هذا الحساب الأخلاقي إلى الحساب المالى ظهرت حالة أسوأ من قبل ، فقد ربح من قيثيان جرای مائتي جنيه ولكنه استعملها في سداد ثمن نشرات المناجم التي طبعها صرى لباولز ولم يعد هذا قادراً على دفعها بعد أن أفلس ، وليس هذا المبلغ ديناً عليه ولكنه وهو خال من المال وجد لذة في أن يكون كريماً وسدد بعض ديون البورصة بما اقتصده شريكه إيثاناس ، ولكن أكثرها سدد بنقود اقترضها من مرايين ، وأخذ هؤلاء يرهقونه بالطلب كلما مر بلندن ، ولكنه كان لا يخشاهم ، بل على العكس يحب أن يدخل عليهم وفي وجهه الفتى الذكي نظرة البراءة ، ويجاذبهم الحديث بعبارات تدل على بساطة متناهية ثم ينجو منهم بحيلة عجبية ، والواقع أنه يعترف بفضل هذه الديون التي توجد نوعاً من الحركة في حياة راكدة ، إلا أنه عقد العزم على أن يدفع هذه الديون إلى آخر فلس منها ،

ولكن كيف ؟ لا يعرف ذلك على أنه لا يشك في النجاح ، وساعده سارة على الاحتفاظ بهذه الثقة في نفسه ، وأمامها كان يجروء على النطق بعبارات لو سمعها آخر لما احتمل ما تنطوى عليه من كبرياء صريحة وحشية ، أما سارة فتلقاها في هدوء وتقبلها على أنها عقائد .

وجد لدة في التجول معها في البلاد الجميلة التي تحوط منزلها الجديد ، أما حديقة برادنهايم فهو مسحور بجمالها ، وتطل نوافذ غرفته على أراض واسعة مغطاة بالحشائش الناعمة تحدها أشجار الزان ، فهذا البيت الكبير وذلك المدخل الفخم يرضيان حاجة في نفسه .

كان في ذلك الوقت إذا ما عاد إلى لندن رأى بعض الأصدقاء ، فقد تعرف بللمراسلة إلى أديب شاب في مثل سنه ، هو ادوارد ليتون بلوار ، الذي نشر أول رواية له ، واسمها بلهام ، بعد ثقيان جراى بزمن قليل ، ونال نجاحاً كبير من نجاح زميله ، وكان بلوار يعيش كدزرائيلي عيشة المترف المتجمل ، وقد تزوج من امرأة جميلة جداً ، وعاش عيشة فخمة بلا مال ، وجمع الأصدقاء في داره الجميلة بشارع هرتفورد .

دعا دزرائيلي ، فذهب في بنطلون من القטיפه الخضراء ، وصدار أصفر اللون ، وحذاء عليه حلقة ، وأكمام من الدنتلا ، وأثار مظهره قلقاً في بادىء الأمر ، ولكن ما انتهى الطعام حتى تحدث الحاضرون ، بأن أحسن المتكلمين وأذكاهم ، هو الرجل ذو الصدار الأصفر ، وقد تقدم بنيامين كثيراً في الحديث الاجتماعي منذ عهده بموائد العشاء لدى مري ، وكان يدون على طريقته ملاحظاته « لا تتكلم كثيراً في مبدأ الأمر ، ولكن إذا عمدت إلى الكلام ، كن مالمالكاً لنفسك . وتكلم في صوت غير مرتفع ، وأنت تنظر دائماً إلى الشخص الذي تخاطبه ، وقبل أن تنجح في الحديث ، ينبغي أن تلم بعض الإلمام بموضوعات تجمع بين التفاهة والتسلية ، وهذا سهل بالسمع والملاحظة ، ولا تناقش قط ،

فإن لم يوافقك مخاطبك على رأيك ، فلتنحن ، وتكلم في أمر آخر ، ففي الحياة الاجتماعية . امتنع عن التفكير ، وكن يقظاً دائماً ، وإلا ضاعت عليك فرص عديدة ، أو نطقت بما لا محل له . وتكلم مع النساء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، فإن هذا خير مدرسة لدلاقة اللسان ، إذ تكون في غير حاجة للانتباه إلى ما تقول ولا شيء أكثر فائدة للشاب الذي يدخل إلى الحياة ، من أن ينقده النساء شيئاً ما . . . »

في بيت بلوار تلقى بعض دروس في حياة الأديب المتزوج ، فقد كان بلوار عند ما خطب زوجته عاشقاً متياً ، على أنه صار زوجاً عنيداً ، يغضب بمجرد أن تدخل زوجته مغارة أوراقه ، والسيدة بلوار الجميلة امرأة فقيرة ، فالزوجان يعيشان من أرباح الروائي ، لذلك كان الزوج يؤلف كثيراً ويعمل أكثر مما تحتمله قواه ، فصار عصيباً سريع الغضب لا سيما مع امرأته ، ولكي يريح نفسه ، ولكي يحدد عقله ، صار في حاجة لأن يرى زملاءه وأصدقاءه في المساء ، فهو يدعوهم لديه أو يخرج لرؤيتهم ؛ وكانت مسز بلوار تقول : « من العجيب حقاً أن المؤلفين يعيشون في نفس الملل » ، وهي لا تحب غير الكلاب ، وتسمى زوجها « الجرو » ، وهو يدعوها الكلبة ، ومثل هذا لا يملأ الحياة . ولا حظ بنيامين دزرائيلي ، وهو رجل خيالي ولكنه منظم الفكر ، أن الزواج الناشئ عن الحب قد يصبح خطراً على الحب .

أما في الريف فهو يكتب ويقسم وقته بين الغابات والغرفة ، وألف قصتين نقديتين على مثال سويفت أو لوسيان ورواية عن الحياة الاجتماعية هي « الدوق الصغير » ولم يرض أبوه مستر دزرائيلي عن هذا العنوان وقال لسارة : « الدوق الصغير وماذا يعرف بن عن حياة الدوقات » ، وضربت سارة صفحاً عن كلام أبيها والحقيقة أن « بن » لا يعرف عن حياة الدوقات شيئاً وإنما يجد لذة في وصف الاستقبالات في نخامة ملكية وفرق الخدم في الملابس القرمزية المحلاة بالفضة ، والموائد تغطيها الآنية من الذهب ، وأنهار الماس في أعناق النساء ، والمرجان والياقوت يرسل ناراً قاتمة

والما كولات اللذيذة والعربات محملة بالبرتقال والأناس تصل من مرابى الثمار للدوق الصغير ، والسمان — لاسيما السمان — فان ذلك العصفور الصغير النادر حمل « بن » على كتابة قصيدة من النثر « تلك النكهة العجيبة المقدسة — هذه أخرى ؟ فلتحتذون حدوى — أرجوك : إن الجنة تفتح أبوابها ! آه لو أموت وأنا آكل السمان على نغمات الموسيقى الحلوة » — ومن اللائق أن يكون الشاب الأنيق المتجمل على شيء من النهم وهذا أيضا نوع من الخفة المتصنعة .

اشترى الناشر كولبرن هذا الكتاب بخمسمائة من الجنيهات ، فهدأت من تأثرة المرابين وقتا ما . ولم يكن نجاح الكتاب كبيرا ولكن سارة كتبت إليه تقول : « إن قراءة كتابك عوض على شهور الانتظار وهذا كل ما أقوله ، وإنك لتعلم أن قلبي معلق على شهرتك وأينما نذهب نجد كتابك في الأيدي ويكيل له الناس المدائح ولكنى أعلم أنك لا تهتم كثيرا للنجاح في العائلة ! . . . » والواقع أن من الاكتشافات الحديثة لبنيامين أن النجاح العائلي لا قيمة له مطلقا ولكنه يقبل هذا النجاح إذا لم يجد غيره .

كان أحيانا يذهب إلى البرلمان ويصنع للخطباء ويصدر أحكاما في غير شفقة فيقول : « إن بيل يتقدم في الخطابة ولكنه من غير أسلوب . . . وسمعت كاننج وهو خطيب عظيم ولكن يظهر لى في أقواله دائما شيء عادى ؛ وفي مجلس اللوردات أعجب بالدوق فإن في كلامه نوعا من البساطة الخشنة على مثال « منتانى » مما يجعله غريبا وجديدا ومؤثرا ويتضح لى شيء واحد هو وجود أسلوبين مختلفين في مجلس العموم ومجلس اللوردات ، وإنى عازم لو امتدبى الأجل على أن أضرب مثالا للنوعين ففي المجلس الأدنى أأخذ قصيدة دون جوان نموذجاً لى ، وفي المجلس الأعلى أأخذ قصيدة الفردوس المفقود » .

وعند ما يخرج من الشرفات متأثرا حالمًا يحاول أن يتخيل كيف تكون يوما ما فصاحته وحجته التى لا تدفع ، وعرضه الواضح للوقائع ولا سيما نغمة صوته ، نغمة فيها من السخرية والخشونة ما يمزق كالأعاصير ، ومن أضواء سرعة البديهة ما يلمع فجأة

كالسيف القاطع ، وفيها موجات من النكات تغرق وتذيب تلك الخطب اللزجة السمينة
التي يلقيها السادة الريفيون — وأخيرا تأتي خاتمة الخطبة التي لا تدفع بين التصفيق
الشديد من جميع الأحزاب .

ويعود إلى نفسه في شارع من الشوارع الغاصة بالناس ، فيه الجياد تسير في خيلاء
على الأرصفة ، والمارة يحتكون به غير مكترئين ، فإن اسم دزرائيلي لدى كل هؤلاء
الإنجليز الذين يملأون الطريق هو اسم غريب لمجهول

الحج

ليست العزلة في الخامسة والعشرين من العمر مما يمكن الاستمرار فيه ، وتجب العودة بطريقة جذابة إلى الحياة الاجتماعية في لندن ، ولكن كيف ؟ فكر دزرائيلي في ذلك كثيراً ، ثم تقرر لديه أنه يجب أن تسبق هذه المحاولة سياحة طويلة في خارج البلاد ، وذلك لأسباب عدة :

إن الناس ينسون سريعاً في المدن الكبرى ، فعدة شهور كافية لتمحو من الذاكرة فشل الجريدة أو فضيحة الرواية ، وصرى نفسه يكون قد هداً ؛ وأوجد اللورد بيرون في الناس ميلاً للقصائد التي تصف الرحلات ، وتقع حوادثها مطابقة لتنقلات المؤلف وهذا مثل يجب اتباعه ، ويستفيد الكاتب من شهرة البلاد التي يمر بها ؛ ثم إنه شعر بالحاجة إلى الطواف بالبلاد التي رأت نشأة أسلافه ، ونشأته اليهودية من العقبات الكبرى في طريقه ولكنها منبع قوة كذلك ، ومن الضروري على أي حال أن يفهم معنى هذا الأمر ، لذلك رأى ألا يتبع الطريق العادي للسياحات الكبرى ، وهو طريق فرنسا وسويسرا وإيطاليا بل يذهب مباشرة إلى أسبانيا التي عاش أجداده فيها طويلاً ، ثم يسافر في البحر الأبيض المتوسط إلى اليونان وإلى تركيا ويحج إلى أورشليم .

كان وجه الصعوبة في الحصول على موافقة أبيه الذي ذعر لرحلة تستمر سنتين ، ولكن الرجل الكهل هو جرم من جميع النواحي ، وقد خطبت سارة إلى شاب إنجليزي صديق لأخيها هو وليم مرديث ، فأراد أن يرافق بنيامين ويقوم برحلته الكبرى قبل الزواج ، على أن مستر دزرائيلي يؤثر السلم دائماً على الانتصار فلم يلبث أن سلم . وسافر الشابان في آخر شهر يونيه من سنة ١٨٣٠ ، وتأثر دزرائيلي لسفره فهو يحب برادنهام وسيدنها العجوز في طاقته من القطيفة ، ويجب

ثرثرة أمه والأحاديث الطويلة التي يسرها لسارة وإعجاب أخويه الصغيرين «رالف» و«جيم» به وكانا يحترمانه ، فلماذا يترك مأوى مثل هذا محبوبا؟ وكيف يقابله العالم المتسع الأرجاء ، وإنجليز جبل طارق ومالطة المتعصبون لجنسهم أكثر من إنجليز لندن أنفسهم؟ وهو يعرف في نفسه الحساسية وشدة الكبرياء ، ولكنه هز كتفيه وقال : « إن المغامرات من نصيب المغامرين » .

وصل إلى جبل طارق وهي المرحلة الأولى في سياحته ، فأدهش شبان الضباط لتنوع أضرار صداره ومبالغاته في الحديث عن عمد ، وهو أول سائح يفخر بأن له عصا في الصباح وعصا في المساء ، فإذا مادقت الساعة لا تتصاف النهار غير عصاه ، يفعل ذلك عامداً وهو يستخر من نفسه . وقد أعجبه أسبانيا وبيوتها البيضاء ونوافذها الخضراء ، وفي كل شارع مَشَلٌ «لفيجارو» ، وفي كل شرفة مَشَلٌ لروزينا ، وعندما زار قصر الحمراء جلس على عرش بنى سريج واتخذ هيئة بعثت الحارسة العجوز إلى أن تسأله : هل هو من نسل عرب أسبانيا؟ فأجاب قائلا : « هذا قصرى » وكأنه يعتقد مايقول .

في مالطة وهي المرحلة الثانية من الرحلة ، وجد له منافساً وهو إنجليزى اسمه جيمس كلاى غلب رجال الحامية في لعبة الرأكيت ، وغلب البرنس بنيتالى فى البليارد ، ورجال المفوضية الروسية فى لعبة الإيكارتيه ، وكان رجلا يسترعى النظر ولكن يمكن مقاتلته بأسلحة أخرى . وكتب بنيامين إلى أبيه يقول : « لى سيطر المرء على الرجال يجب عليه إما أن يتغلب عليهم فيما هم مهرة فيه أو يحتقرهم ، و«كلاى» يسلك الطريقة الأولى ، وأنا أسلك الطريقة الثانية ، وصرنا بذلك معروفين لدى الجميع ، وقد نجح التصنع أكثر من ذكاء البديهة ، ففى أمس بينما أنا أفرج على لعب الرأكيت إذا بالكرة تسقط لدى قدمي فالتقطتها ، ورأيت ضابطا شابا فى جلسته جمود فسألته فى خضوع أن يتفضل بإيصالها للاعبين حيث أنى لم أقذف كرة فى حياتى ، فصار هذا العمل منى موضوع الحديث اليوم فى نوادى الضباط » . وكان مستر دزرائيل يهز رأسه ويتساءل لماذا يتخذ ابنه مظهر الخيلاء أمام الناس وهو

طبيعى وبسيط فى المنزل ؟ الواقع أن بنيامين حمل الناس على كراهيته فى مالطة حتى ان الضباط عدلوا عن أن يدعوا إلى ناديمهم « ذلك اليهودى الصغير اللعين المتبجح » . أما هو فلم يهتم لذلك ؛ وقام بزيارات عديدة للأكابر وهو لابس سترة أندلسية مزركشة وبنطلونا أبيض ، وحزاما فيه جميع ألوان قوس المطر ، وتبعه نصف السكان ، وتوقفت الأعمال فى ذلك اليوم ، وجروا على أن يزور الحاكم العام فى هذه الملابس وهو رجل جامد قليل الاختلاط ، فما إن رآه حتى أخذ فى الضحك وتعلق به ، ذلك أن أشد الإنجليز جدًّا هم الذين يحبون المبالغات ، لأنها تبعدهم عن الملل الذى يتغلب على نفوسهم .

ترك مالطة فى زى القرصان اليونانيين ، وفى قميص أحمر بلون الدم ، وأزرار من الفضه كبيرة كقطعة الشلن ، وحزام حشى بالخناجر والمسدسات ، وطاقية حمراء ، وسروال أزرق كالسما مزدان بالأشرطة ، وكان يرافقه جيمس كلاى المشهور ، وهذا نصر له جديد ، ويرافقهما تيتا الذى قاد قارب اللورد بيرون فى فنيزيا ، وهو رجل عجيب من أهلها ، قتل بالخنجر رجلين أو ثلاثة ، وكان يقنع الفتيات الجميلات ليستسلمن للشاعر ، وبعد وفاة بيرون حارب فى صف اليونانيين على رأس فرقة ألبانية ، ثم وصل بعد ذلك إلى مالطة لسبب ما ، وهو فى بؤس شديد .

أحب دزرائيلى الأتراك حب العبادة ، فأخذ يلبس العمامة ، ويدخن فى غليون طوله ستة أقدام ، ويمضى أياما وهو ممدد فوق الإيوان ، وكانت عاداتهم فى ميلهم للكسل والترف مما يتفق مع جانب التراخى والانقباض فى طبيعته التى طغى عليها النشاط الغربى ، وإن لم يقض عليه نهائيا . وقد قال له محمد باشا : إنه ليس أنجائيزيا حقيقيا ، لأنه يستطيع السير فى هدوء ، وأحب حركة الشوارع الشرقية ، وتنوع الملابس والأشخاص وبهجة الألوان ، ودعاء المؤذن للصلاة ، والطبل الوحشى الذى يعلن وصول القافلة ، والجلل الوقور المزدان الذى يتبعه إطار من الأعراب ؛ وفى مثل هذا المنظر تهدأ المطامع ، ويتخذ العالم فجأة مظهرا أكثر

عمقاً وبعداً عن الحقيقة ، وكأننا نعيش في قصة من قصص الجن ، أو إحدى قصص ألف ليلة وليلة .

صار المنظر جدياً وعبوساً بعد أن اخترق سوريا متجهاً نحو بيت المقدس ، وتلونت روحه دون عناء بما يوافق الأراضي القاحلة المحرقة ، وتعرف إلى بعض القبائل الرحالة ، فرحب به شيوخها ، وأضافوه في مضاربهم ، وسحر ببساطتهم النبيلة ، وكال سلوكهم ورقتهم الطبيعية ، ووجد لذة كبرى في التفكير بأن أسلافه منذ ثلاثة آلاف أو ستة آلاف سنة كانوا سادة للصحراء مثل هؤلاء السادة ، فأية عائلة إنجليزية تستطيع أن تفخر بمثل هذا الماضي العريق في المدنية ؟ قطع وادياً قحلاً ليس فيه منابع ولا نبات ولا طير ، وفي كل حين يتبين شبح شجرة متعرجة من أشجار الزيتون أمام السماء الزرقاء المحرقة ، وعلى حين فجأة ، وجد نفسه على حافة هاوية عميقة ، ورأى في أعلى الهضبة المقابلة مدينة حجرية جرداء تحوطها أسوار مسمنة ، وتشرف عليها بين مكان وآخر أبراج عالية ، وكان المنظر شديداً في خشونته ، وهذه المدينة هي أورشليم ، والمرتفع الذي وقف عليه هو جبل الزيتون .

أمضى في أورشليم أسبوعاً ، هو أكثر أيام حياته تأثيراً في نفسه ، وكان تأثره بالغاً ، وذهب ليركع أمام القبر المقدس ، وأحب أن يفكر في المسيح على أنه أمير إسرائيلي شاب ، ولم يفهم كيف لا يكون اليهودي مسيحياً ، واعتبر ذلك وقفة في منتصف الطريق ، ونزولا عن مجد الجنس الذي أخرج رباً لهذا العالم . ووقف على قبور ملوك إسرائيل وهو في حلم ، وقد أحب وهو طفل قصة شاب يهودي ، هو دافيد الروي الذي أراد في القرن الثالث عشر أن ينقذ أبناء جلده من تسلط الأتراك ، وكان اليهود في ذلك العصر ، على أنهم شعب خاضع ، يختارون زعيماً يلقب بلقب حزين ، هو أمير الأسر ، والروي هو أحد هؤلاء الأمراء ، كما أن بنيامين دزرائيلي هو أحد أبناء هذا الشعب ، وهو منفي في بلاد محبوبة لديه ، فهلا يكون هو أمير الأسر أيضاً ؟ في هذه الساحة الضيقة

المحفورة في الصخر ، وأمام هذه القبور التي تكاد تكون مفتوحة ، قرر أن يكتب قصة الروى ، وبدأها منذ الغد .

ترك فلسطين إلى مصر حيث قابل خطيب أخته الذى سبقه إليها ، وما وصل إلى مصر حتى أصيب مريدث بالجدري وتوفى بعد بضعة أيام ، وأظلم جو العودة بتفكيره فيما أصاب سارة من الحزن ، وأقفل الباب على نفسه فى الباخرة وظل يكتب ، وعاد محملاً بمسودات كتابين أحدهما قصة « الروى » اليهودية والأخرى « كونتاريني فلمنج » وهى كفيفيان جراى قصة شاب . وقد عبر فى كفيفيان جراى عن الطمع السياسى لمؤلفها ، أما « كونتاريني فلمنج » فهى صورة الشاعر الشاب الذى ود دزرائيلي لو يكونه ، وارتاح دزرائيلي لكتابه وكتب يقول : « سأعتبر دائماً هذا الكتاب على أنه مثال الكمال فى النثر الإنجليزى وأنه مؤلف فذ » .

على أن الكتاب ليس فذا فإنه كفيفيان جراى يبتدىء ببداية بديعة ثم يضع بين الرمال ، وحيث أن دزرائيلي كثير التفكير فى مغامراته فهو يفشل فى رواياته فى المكان الذى يفشل فيه فى حياته ، ولكن كونتاريني مثله يحتفظ بثقته فى نفسه وهو يقول : « إنى أعتقد فى القدر الذى تنحنى أمامه القدماء ، فالفلسفة الحديثة باكتشافاتها السطحية خلقت فى قلب الإنسان روح الشك ، ولكنى أعتقد أنه قبل زمن بعيد سيعود العلم خيالا ، وكلما صرنا أكثر عمقا نصبح أسهل تصديقا ، فالقدر هو رغبتنا ، ورغبتنا هى الطبيعة ... كل شيء سر ولكن لا يأبى النضال من أجل رفع الحجاب عن هذا السر إلا الدليل » .

هذه هى صورة العالم التى أتى بها دزرائيلي من سياحته فى الشرق ، إذ رأى اختلاط الشعوب وتضارب المصالح وفهم صعوبة المعرفة والتنبؤ والحكمة : كل شيء سر ولكنه يعتقد على الرغم من تلاطم الأمواج بأن اليد القوية تستطيع أن تتسلط وأن بنيامين دزرائيلي بعد رحلة شاقة سيسير بفلكه إلى الشاطئ الذى يقصده بشرط أن يكون قويا شديد المراس .

وصل إلى برادنهام فى أكتوبر ؛ وقد سقطت أوراق أشجار البلوط ، وظهرت

الكهولة على مستردزرائيلي ، وتعب بصره من القراءة فأخذ يتضاءل وكان عينيه
الحالمتين قد أظلمات ، وسارة في شدة الحزن وهي تقول لأخيها إنها لن تتزوج وستقف
عليه حياتها . وخفف وجود تيتا العجيب شيئاً من آلام هذه العودة ، وحار دزرائيلي
الذي أتى به بعض الشيء في أمره ، ولكن أباه لم يكن الرجل الذي يترك بحار اللورد
بيرون في فاقة ، لذلك أوجد له عملاً لديه غير محدود ، ووجد هذا الرجل من أهل
فينيزيا ذو الشوارب الطويلة الذي بلل فم الشاعر وهو يموت ، وأصغى إلى كلماته
« أوجستا . . . أدا . . . » مأوى هادئاً ، وعاش هذا العملاق الجنوبي في ظلال
السماء الإنجليزية .

مذاهب

« كان جديرا أن تصور مدخنة آلة بخارية
بدلا من صورة الملكة فيكتوريا على النقود التي
ضربت في عصرها »

أوزبرت سيتويل

فكر دزرائيلي (وقد قرر أن يكتب اسمه على هذه الصورة من غير علامة
تفصل بين الدال وبقية الاسم مما يجعل مظهر الاسم أجنبياً) أثناء رحلته الطويلة في
الحياة وفي تجاربه الماضية وفي مستقبله ، وكلما أطال التفكير شعر بأن حياة السياسي
هي الحياة التي يجد فيها سعادته الحقيقية . وكان فيما مضى إذا فكر في الطريق التي
يسلكها ردد متسائلاً : الكتابة ؟ أم العمل ؟ أما الآن فقد عرف أن المجد الأدبي
لا يروى غلته ، وصار يقول : « إن الشعر هو صمامة الأمان لمطامعي ولكنني أرغب
في أن أعمل ما أكتبه » ، لذلك لم يكن من وجه للتردد في الطريقة التي يتبعها ، ويجب
إذن دخول البرلمان ، وهذه المهمة صعبة المئال ، فنظام الانتخاب الذي وضع في الماضي
لفائدة الطبقة الأرستقراطية يسمح للفتى العريق المولد بأن يصير عضواً في البرلمان
من يوم بلوغه الرشد ، لكن يظهر أنه وضع خصيصاً لكي يحول دون أولئك الذين
ابتدأوا بداية غير نظامية أمثال بنيامين دزرائيلي ، وإليك الموقف في شهر أكتوبر
سنة ١٨٣١ أمام هذا الشاب المتعجل .

يجب أولاً التمييز بين نواب المقاطعات ونواب المدن ، فنواب المقاطعات ينتخبهم
واضعو اليد المتصرفون ، وهم ملاك الأراضي التي يبلغ دخلها أربعين شلناً على الأقل ،
وذلك في دائرة انتخاب واحدة في كل مقاطعة ، فلم يكن المرشح يشتري أصوات
الناخبين فقط كما يفعل المرشحون في كل مكان ، بل يقوم بنقلهم وإطعامهم وإيوائهم
ومن الملائم أيضاً إرهاب الناخبين المعادين له بأن يحضر عصابات مسلحة تمنعهم

من الاقتراب من المنصة التي يعطى عليها الناخبون أصواتهم في هدوء ، وكل هذا يكلف نفقات كثيرة ، وقد بلغت نفقات الانتخابات في سنة ١٨٢٧ لمقعدين في البرلمان عن يوركشير خمسمائة ألف جنيه . ودزرائيلي وهو ليس غنيا إلا بديونه لا يستطيع أن يدفع النفقات الواجبة لشرف النيابة عن مقاطعته ، فهذه المقاعد كانت كلها لسراة الملوك الذين يصير لهم الحق في لبس المہماز في قاعة الجلسات وزى الركوب الأنيق الذي يوده ليس في متناوله ويا للأسف ويجب ألا يفكر فيه . أما أن يصير نائبا عن مدينة فليس أسهل من ذلك كثيراً على الشاب المبتدىء الذي لا يتمتع بصلات قوية ، وليست جميع المدن في البلاد ممثلة ، والتي لها حق التمثيل اختيرت بطريقة غير نظامية قط ، ففي عهد عائلة تيودور منح التاج حق الانتخاب للمدن التي يعرف فيها الإخلاص ، وفي عهد عائلة ستوارت ألغى هذا الحق ، حتى إن قاعة هذه المدن وقفت فجأة ، وهكذا صارت بعض المدن الكبرى التي ازدهرت أخيراً غير ممثلة ، بينما انحطت مدن حتى تكاد تمحى من الوجود ، وهي التي عرفت باسم « القرى العفنة » كان لها حق التمثيل ، وتوجد مدن حق الانتخاب فيها قاصر على ملاك منازل معينة ، فإذا ما اشترى سيد الجهة هذه المنازل ضم إليه هذه الأصوات ، وفي غيرها كان حق الانتخاب « لأصحاب الغاليات » ، أى لأولئك الذين يستطيعون أن يغالوا إناءهم على النار ؛ وفي أما كن أخرى نجد الناخب هو العمدة وطوائف المهن ، وهؤلاء لا يزيدون على خمسة عشر أو عشرين ناخباً على الأكثر ؛ وفي أدنبرة المدينة الكبيرة لا يزيد عدد الناخبين على أحد وثلاثين ناخباً . وذكر شريدان في مذكراته ، وهو مرشح عن ستافورد بيان نفقاته : « ٢٤٨ ناخباً لكل منهم ٥ جنيهات و ٥ شلنات = ١٣٠٢ جنيه » ، وكان الرجل الذي يثرى في الهند يحارب صاحب الأملاك المحلي ، ويضع الجنيه أمام الجنيه . وقال لورد لانسداون : « هل يكال اللوم لنحاس له سبعة أطفال ، ويعرض عليه في نظير صوته ستمائة جنيه ؟ » . وامتهن بعض محامى العقود مهنة إنشاء النقابات من الناخبين ، ثم يذهبون بهم إلى لندن ليبيعوا المقعد إلى الحزب

الذى يدفع أكثر من غيره . والمدن التى تعرف بالمدن « المفتوحة » لم تكن مفتوحة إلا للنقود ، أما المدن « المقفلة » فقاعدها قاصرة على المقاطعة ، ولا أمل للنضال فيها ، وصاحب الملك يتصرف فيها لابن أو قريب . وتحتفظ العائلات الكبيرة من المحافظين والأحرار ببضعة « مدن فى الجيب » تمنحها للشبان ذوى الذكاء من أعضاء الحزب الذين ترى أن تمهد لهم البداية .

وأخيراً كان للوزارة عدد من الدوائر فى أملاك الحكومة ، وحق الانتخاب فيها قاصر على رجال مشايخين لها ، ودوائر أخرى اشترت فيها الناخبين بالمنح والمناصب ، فإذا أضفنا هذه المدن التى عرفت بمدن الخزينة إلى مدن السادة المحافظين تبين لنا أن فى الانتخابات العامة يكون ثلثا أعضاء مجلس العموم معينين دون نضال بواسطة الوزارة ، فليس من العجيب إن ظل حزب المحافظين فى الحكم أربعين سنة ، وليس من السهل تصور إبعاده عن الحكم .

ولكن البلاد أخذت منذ سنة ١٨١٥ تتذمر ، فإن السلم الذى فتح أبواب إنجلترا لتجارة الدول الأوربية أحدث أزمة صناعية أدت إلى خراب أصحاب المصانع ونزول الأجور ، وقوانين الحماية التى وضعت على القمح فرضتها حكومة المحافظين وهى حكومة صغار الملاك فى الريف ، واعتبرها سكان المدن سبباً فى ارتفاع الأسعار وعزى سوء الحال فى البلاد على الأكثر إلى نظام الانتخاب ، وأظهر الأحرار مهارة فى اتخاذ هذه الانتقادات أساساً لحملة الانتخابية ، ووضعوا أنفسهم على رأس حركة يراد بها التوسع فى حق الانتخاب ؛ وقد يقال لهم إنهم وجدوا تلك المدن المتعفنة ومدن الجيوب نظاماً حسناً جداً عندما كان حزبهم يستفيد منها ، ولكن الصرخة الحديثة هى المناداة بإصلاح نظام الانتخاب فهو الذى يعالج جميع الأمراض . وقد قال سدنى سميث : « يعتقد جميع الفتيات أنه بمجرد صدور هذا القانون سيجدن أزواجهن ، ويعتقد طلاب المدارس أن الأفعال اللاتينية ستلغى وتصير أسعار الفطائر رخيصة ، ويثق جاويز الجيش والأونباشى أن الأجور ستدفع لهم مضاعفة ، وينتظر صغار الشعراء أن أشعارهم ستقرأ ، وستبدد أوهام

هؤلاء الأغبياء من بعد ، كما تتبدد دائماً » .

في اللحظة التي عاد فيها دزرائيلي من رحلته بلغت الحركة من أجل الإصلاح حد الاضطراب ، وصار من السهل التنبؤ بأن الحكومة ستضطر إلى إجراء انتخابات ، وهذا هو الوقت الملائم للحصول على مقعد ، ولكن كيف ؟ وأين ؟ إن قرية ويكومب مجاورة لبرادنهام وفيها أصدقاء للعائلة وعملاء لها ، ولكن ويكومب مدينة « جيب » للورد كارجنتون وهو لا ينتظر أن يعيل كثيراً لهذا التدخل ، ثم في أى لون سياسى يتقدم المرشح إليها ؟

درس دزرائيلي دراسة طويلة أثناء قراءاته في شبابه أصل الحزبين الكبيرين اللذين يتنازعان الحكم ، ففي سنة ١٦٦٨ سنة الثورة التي أبعدت عائلة ستيوارت عن الحكم أطلق اسم « الهويج » على أعداء العرش من كبار السادة الذين كانوا يغارون من العرش ومن الاسكتلنديين المتشدين في تطهير الدين من خصوم الكنيسة القائمة ، وهو اختصار من كلمة « هويجامور » وهو اسم جماعة الفلاحين الذين ثاروا في غرب اسكتلندا ، فكان معنى الاسم يدل على العداء للملك ، وأطلق هؤلاء على خصومهم من أنصار الملك اسم « تورى » وهو اسم يطلق على قطاع الطرق في ايرلندا ، وذلك لكي يدل على أن خصومهم ليسوا إلا أتباعا للبابا ، وأنهم لا يقلون حقارة عن الارلنديين — وكما يحدث كثيراً قابل الذين أطلقت عليهم هذه الأسماء بالفخر ، وصارت نداء حرب لهم .

انتهى ما كان يفصل حقيقة بين الحزبين بانتهاء حكم آل ستيوارت ، ولكن الأحزاب تعيش بعد موت المبدأ الذي تخدمه ، وظلت بعض العائلات الكبرى من نسل الثائرين تتوارث تقاليد « الهويج » ، وهى تقاليد الاستقلال والمناهضة للتاج والتحالف مع رجال المذاهب الدينية المعارضة ، وكثيراً ما اعتنق هؤلاء مبادئ حرة خالصة ، وفي الوقت ذاته ظل السواد الأكبر من صغار السادة في القرى وأصحاب الزراعات محافظين من « التورى » مخلصين للملك والكنيسة القائمة .

جاءت الثورة الفرنسية وبعدها حروب نابليون ، فارتبطت فكرة الحرية بالمقصلة ارتباطاً وثيقاً في عقل الشعب الإنجليزي ، وأدى ذلك إلى أن تولى المحافظون السلطة مدة طويلة ، وظل الأحرار مكتسحين إلى سنة ١٨١٥ . حتى إذا أعاد السلم حب الانتقاد إلى النفوس وحدثت الأزمة الصناعية واشتد القلق نما الحزب الذي ينادى بالإصلاح ، وترعرعت قوة الأحرار إلى سنة ١٨٣٠ في انتظام ، وصارت على أثر ثورة يوليو الفرنسية قوة لا تدفع ، فالدوق ولنجتون زعيم المحافظين وأحب الناس إلى الشعب في إنجلترا بعد معركة واترلو ، رأى الغوغاء في لندن تقذف بيته بالأحجار وتقول الناس على هذا الجندي القديم بأنه على اتفاق مع بولنيك ، واتهموه بأنه يرغب في قلب نظام الحكم ، ورفع العلم المثلث الألوان في لندن وفي برمنجهام ؛ وأحرق الفلاحون في الريف أكوام سادة القرى من الهشيم ، وحاصر عشرة آلاف من العمال قصر سان جيمس ، وصفر الجمهور في الشوارع استهزاء بالأساقفة الإنجليز الذين قاوموا الإصلاح الانتخابي بأصواتهم في مجلس اللوردات ، فصار الأساقفة لا يجراؤن على الظهور في الشوارع .

صار اللورد چون رسل الضئيل الجسم ، وزعيم الأحرار الإصلاحيين ، معبوداً للشعب ، وكان الناس يعجبون بإحدى عباراته ويتناقضونها ، وهي قوله : « إذا ما سئلت ، هل الشعب جدير بالحرية ؟ أجيب سائلاً ، هل هنالك رجل جدير بأن يكون مستبداً ؟ ! » ، وكان إذا مر في الطرق اصطف أهل القرى للفتاف له .

وبالجملة ، إذا حمل المرء الأمور في سنة ١٨٣١ ، بداله أن من صالح من يتصدى للترشيح أن ينضم للأحرار ، ولكن عائلة دزرائيلي من المحافظين ، والمحافظون في التاريخ من أنصار عائلة ستيوارت ، التي شغف بها مستر إسحق دزرائيلي ، وكان دائماً يعلم ابنه أن الأحرار جماعة من الثوار انتقضوا على ملك شهيد ، ثم إن دزرائيلي رفض أن يبدى تحمسا مناسباً لمبادئ الأحرار ورأى أن القانون الانتخابي الجديد وضع بعناية لكي تنتخب طبقة من التجار ورجال الصناعة ،

وهم قوم قليلو التأثير ، يحسبون لكل شيء حسابا ، وهم بطبيعتهم مؤيدون للأحرار أمام الزراع المحافظين ، وليس الغرض قط هو سماع صوت الشعب الحقيقي ؛ فهو لا يجب ذلك الحلف بين أولئك السادة الكبار من أصحاب الأملاك الذين لا يتورعون وبين كبار رجال صناعة القطن الجشعين .

فالنظرية السائدة في ذلك الوقت بين « الهويج » وحلفائهم ، هي النفعية التي ولدت نتيجة اندفاع مقاوم للروح الخيالية بين الطبقات المتوسطة ، فقد رأى هؤلاء إلى أي طريق يؤدي الشعر وتؤدي العواطف ، وأية اضطرابات نشأت في فرنسا من تعاليم روسو ، وأية فضائح نشأت عن قصائد بيرون ؛ وأدى بهم اكتشاف الآلات المسيطرة بالبخار والآلات الميكانيكية وتقدم السكك الحديدية تقدما عجيبا ، ونمو المناجم الإنجليزية ، إلى الثقة الشديدة في التقدم المادي ، ولقنهم الاقتصاد السياسي ، وهو العلم الجديد ، أن العلاقات بين الناس ليست علاقات أدبية ، وليست واجبات ، وإنما تحكمها قوانين لا تقل ثباتا واستمرارا عن قانون سقوط الأجسام وحركة النجوم ، فصار قانون العرض والطلب إنجيلا لهم ، والآلات المتحركة معبودا ، وصارت مانشستر مدينتهم المقدسة .

ودزرائيلي واصف الغابات الواسعة والحدائق المزهرة والدور الفخمة يكره رائحة الفحم هذه ، ويضايقه الاقتصاد السياسي ، ويأبى أن يصدق أن رجلا من لحم وذوى وجوه حية ، ومنهم الأبطال لديه من أمثال رتز و نابليون ولويولا ، محكوم عليهم بأن يتشاركون كالندرات الحقيرة لكي ينتجوا أرخص أنواع المنسوجات القطنية في عالم على أكبر ما يكون من الغنى .

ثم هل رحب به « الهويج » ؟ إن آراءهم في الحرية لا تمتد إلى انتخاب أصدقائهم وحب الحرية لديهم قاصر على جماعتهم ، وقد يصير المرء عند الحاجة محافظا ولكن يجب أن يولد من « الهويج » ورأى دزرائيلي وهو مشبع بقراءاته عن فنيزيا أن المملكة إذا حكمها « الهويج » انقلب الملك إلى « دوج » وإلى جانبه مجلس العشرة إذن هل يجب أن يتقدم « للتورى » ؟ إن معنى ذلك أن يتبع وهو في سن

العشرين آراء عتيقة ، وأن يكون تحت لواء زعماء يصفر لهم الجمهور في الشوارع وأن يقبل ثقل الأخطاء التي ارتكبت في خمسين عاما ، وأن يحكم على نفسه برفض أى نوع من الإصلاح ولو كان معقولا . أليس من الأصح أن يحدو حدو بلوار وينضم إلى « الراديكاليين » فيكون مقاربا « للهويج » ويحاربهم بسلاحهم ؟ « الهويج » أم « التورى » أم « الراديكاليون » ؟ إن الاختيار لصعب ، وأسهل طريق أن يحصل على دائرة قروية لسيد كبير وكريم ، وهذا ليس مستحيلا ، ولكن من الضروري أن يعرف بين أولئك الذين في مقدورهم هذه الهبة ، ومن الضروري قبل كل شيء أن يدخل عالم السياسة وكان عالم السياسة في إنجلترا سنة ١٨٣١ لا يختلف عن العالم الاجتماعى . ودخول البرلمان هو حديث المجالس ، وفي هذه المجالس يجب أن يظهر ويجب أن يتناول عشاءه لدى الدوق أوف ولنجتون ومع سير روبرت پيل وزعماء حزب « التورى » ومع لورد ملبورن ولورد جون رسل وغيرهم من كبار « الهويج » ، ومع اللورد درهام كبير الراديكاليين ، فحول المائدة بيللورها الذى يعكس ضوء الأنوار وحولها النساء الجميلات يوزعن بين المفاوضات ابتساماتهن ، هنالك يتقابل الذين فى أيديهم توزيع السلطان . إذن فليستمسك إلى حين بمظهر الهزل كي يحصل على الحق فى أن يكون جادا

فتح لندن

« وظهر أن لي ساقاً جميلة جداً ولم أكن
أعرف ذلك من قبل »

من رسالة لذرثيلي

كان لغيابه نتيجة منتظرة ، فلم تعد لندن تعرف شيئاً عن دذرثيلي الفتى إلا أنه
أديب من ذوى المواهب ، وفتى جميل جداً يرتدى ملابس تلفت النظر ، وأنه عاد من
الشرق وفي حقيته عدد من القصص التي يلذ سماعها ، وأنه لا ينتظر غير دعوة
ليطرح ما يهم سماعه ، وجاءت هذه الدعوة بطبيعة الحال من أدوار بلوار .
ولبلوار مطامع كبيرة كدذرثيلي وهو أكثر حظاً من جهة المولد ، لذلك تقدم
على صديقه كثيراً في هاتين السنتين الأخيرتين ، وفي الزمن الذي نشر فيه دذرثيلي
رواية « فيفيان جراى » نشر بلوار رواية « بلهام » . ومن المستطاع أن نقول
إنهما ابتدآ السباق من خط واحد ، ولكن بلوار أحسن العمل لشهرته في الشباب
أكثر من دذرثيلي ، وفي أبريل سنة ١٨٣١ انتخب عضواً في البرلمان وجلس
بين الراديكاليين المتطرفين وأوجدت له كتبه جمهوراً وصار مديراً لمجلة معروفة .
على أن هذا البناء الظاهر الفخامة يخفى تحته صعوبات منزلية خطيرة ، فهذه
النتائج المثمرة لم يصل إليها إلا بعمل متواصل ضحى في سبيله كل شيء ، لاسيما
بمسز بلوار ، وشعرت المسكينة أنها فقدت زوجها للأبد ، وكانت إذا رآته على انفراد
(وقلما يحدث ذلك) تشكو إليه حالها ، أما أمام الناس فيظهران بمظهر الوئام التام .
تسلم دذرثيلي بعد أسبوعين من عودته رسالة من بلوار يقول فيها : « عزيزى
دذرثيلي . . . إذا لم أكن بين أوائل الذين يهنئونك على عودتك سالماً فاسمح لي
بالأأكون آخرهم ، وإنى لم أعلم بهذه العودة إلا من كولبرن صديقنا وناشرنا
المشترك إذ قال لي : إن مستر دذرثيلي قد عاد ياسيدى إلى المدينة — أقصد مستر

دزرائيلي الشاب ، فهل لا يستطيع أن يكتب لنا مقالا طريفاً عن رحلته ؟
وسأتكلم معك في دارك ... وقد وهبتي مسز بلوار في هذا الصباح ولداً كما
يقول الناس اللبقون وهذا عذر لي في قصر رسالتى ، ولكن اكتب إلى وأخبرنى
كيف حالك ... » .

بعد بضعة أسابيع استأجر دزرائيلي شقة منفصلة في منزل بشارع ديوك ،
وكانت سارة تعرف أن أختها يشعر بضيق إذا حرم من الأزهار فأرسلت إليه
بضعة أصص من أزهار العطر اعتنى بها اعتناء المحب ؛ وعلى أثر ذلك ذهب للعشاء
عند آل بلوار ، وكان البيت والمائدة مزينتين زينة زائدة عن الحد ، وجلست مسز
بلوار وهى فى غاية الجمال والأناقة وفى حجرها كلب « ليس أكبر من عصفور
الجنة ولا يقل عنه بريفاً » ، وقدمت الشمبانيا فى أكواب ولم ير دزرائيلي مثل
ذلك من قبل ، فظهر له هذا العمل نهاية فى الأناقة ، وكان الحاضرون جديرين بما
حولهم وهم من ذوى الأسماء الكبيرة والجمال الكبير والعقول الراجحة ،
واسترعت نظره بوجه خاص مسز نورتون الجميلة وهى إحدى حفيدات شريدان
والكونت الفريد دورسيه ، الذى وصل لندن أخيراً واحتل مركز الصدر بين
ذوى الأناقة فى تلك العاصمة وهو مالم يفعلته فرنسى من قبل .

طلب الكثير من النساء أن يتعرفن إلى مؤلف « فيفيان جراى » و « الدوق
الصغير » ، وأصرت مسز وندهام لويس زوجة أحد أعضاء البرلمان على ذلك
وكتب دزرائيلي فى رسالة إلى أخته يصفها بقوله : « هى امرأة جميلة ضئيلة الجسم
محبة للغزل ، تتكلم كثيراً ولها فى الكلام سرعة لا أعتقد لها مثيلاً ولا أستطيع
أن أعطيك فكرة عنها ، وقد قالت لى إنها تحب الرجال الصموتين الميالين للتفكير
الحزين وأجبتها أنى لا أشك فى ذلك » .

دعته مسز نورتون إلى منزلها فقد سرها ، على أنه لم يتكلم إلا قليلاً ، ولكن
كلامه استرعى الأنظار وهى فى حاجة لمن يحسن الحديث ؛ وكان من عادة الإنجليز
فى ذلك الزمن أن يستعوضوا عن ذكر اللفظ الدال على الفعل فى عباراتهم بحركة

أو إشارة ، أما هذا الفتى صاحب العبارات القليلة التامة فقد قضى على هذه العادة السائرة في الحديث .

ذهب إلى كارولين نورتون في ستره من القطيفة السوداء وبنطلون أصفر منركش بالذهب ، وصدار أحمر ، وخواتم براقة لبسها فوق قفاز من جلد الماعز الأبيض .

ويسكن آل نورتون شقة في « ستورى جيت » بلغ من ضيقها أن الأريكة الكبيرة في غرفة الاستقبال ملأتها ، وغطيت النوافذ بستائر من المسلمين الأبيض وهي تؤدي إلى شرفة غطيت بالأزهار ، ومن هذه الشرفة كانت مسز نورتون تطل في كل صباح لتحيي صديقها الشهير اللورد ملبورن وهو مار في طريقه إلى البرلمان ، ويروى أن نورتون احتمل هذه الصداقة العاطفية لأنه وجد فيها نفعاً . كانت هذه الغرفة الصغيرة غاصة بجمهور من رجال السياسة ومشاهير الأدباء ومزدانة فعلاً بجمال شريدان الباهر ، وعلى مقعد جلست الأم التي قيل عنها إنها ظلت ذات جمال لا يضارعه جمال أية امرأة في العالم عدا بناتها الثلاث وهن مسز نورتون ربة المنزل ، ومسز بلا كوود ، وأجل الثلاث جورجينا لادى سيمور ، ويتضاءل جمال أخواتها أمام جمالها . ولمسز نورتون شعر أسود تعقده في جدائل حول رأسها ولها ملامح يونانية جميلة ، ويحمر وجهها أحياناً بطريقة بدیعة جداً ، فإذا مستها عبارة من عبارات الحديث اصطبغ وجهها فجأة بلون وردى يمتزج بلونها العادى الذى فيه شئ من خضرة الزيتون ، ويظل هذا الاحمرار لحظة ثم يختفى ، وفي عينها وفي فمها من البريق ، حتى كأنها صنعت من الأحجار الكريمة من الماس أو الزمرد أو الياقوت — أما لادى سيمور فتختلف عن ذلك كل الاختلاف فهي شاحبة اللون ، رقيقة ، بعينها بريق حلو يجعلهما مثل النوافير في ضوء القمر ، وإذا ما أشار أحد الناس في حديثه مع مسز نورتون إلى العاطفة التي نشأت عن مجموعة هذا الحسن الكثير نظرت إلى غرفتها الصغيرة ثم إلى عائلتها البديعة وقالت في ابتسامة .

الرضى : « أجل إننا نقوم على شئ من الجمال » .

كان حديث مسز نورتون كالسحر لدى دزرائيلي ، وطريقها بديعة في إلقاء القصص الخارجة ، إذ تخفض حياء تلك الجفون المغطاة بأهداب طويلة كثيفة ، وكتب دزرائيلي إلى سارة يقول : « تعشيت أمس لدى آل نورتون بمناسبة ذكرى مولد أخيها الكبير الذي تقول عنه إنه الشخص الوحيد الجدير بالاحترام بين أفراد العائلة إذ هو يشكو مرضاً في الكبد . . . » وأختها مسز بلا كوود جميلة جداً وخليقة بجدها شريدان ، وقد أخبرتني أنه لاخير فيها قائلة : « إنك ترى أن جورجى أجملنا وأن كارى أذكنا ، وكان يجب أن أكون أكثر الجميع طيبة ، ولكنى لست كذلك » ، وأنا كبير الميل إليها وهى فضلاً عن ذلك تعرف مؤلفاتى عن ظهر قلب ، وتحفظ صفحات كاملة من روايات فيفيان جراى وكونتاريني فلمنج والدوق الصغير » .

ما لبث أن صار للجماليات الثلاث حفيدات شريدان دور هام فى حياة المؤلف الشاب ، فهن الثلاث مراحات ، وسرت مسز نورتون للتخلص من زوج لا يهتم وكانت تحب أن يلازمها دزرائيلي فى الذهاب إلى المسرح أو الرقص وهو يلذ له أن يظهر فى صحبتها .

كان للندن فى تلك الأيام سحر مثل الذى نجده فى صور « واتو » فهى لا تخلو من حفلات العشاء والرقص والنزهة النهارية ، واشترك دزرائيلي فى كل شئ ، فهو مسل وهو يصحب جميلات وقد عاد حديثاً من رحلة فى الخارج فكان أصحاب هذه الحفلات يبحثون عنه ، وكتب يقول : « إننى اخترق طريقى بسهولة إلى أعلى المجتمعات حيث لا حسد ولا ضغينة ولا غيرها ، وحيث يعجبون ويتسلون .. » . وكانت منضدة « ديزى » (كما أحب أهل حى ما يفير أن يلقبوه) مغطاة بدعوات الوجهاء ، وكان يقبلها مسروراً . وفى هذا العالم الخلاب الذكى الودود ، شعر أنه فى المحيط الذى يلائمه أكثر من رجال الطبقة الوسطى الذين عرفهم فى طفولته ، وقد سحره الظرف الطلق الجرىء فى هاته الفتيات وهؤلاء الفتيان النبلاء ، ووجد

أصدقاء أحلامه في أولئك الشبان ذوى الشعور الشقراء، وهؤلاء الإنجليز المرتين الفخمين، وهاته الإنجليزيات الجميلات من أصل عريق، وتمتع بترف هذه المنازل وجمال الأزهار وبريق النساء، وذاب تكبره على الأقل سطحياً، واكتسب ثقة في نفسه، وعاش في حمى من اللذة، فكتب إليه والده يقول: «أود لو أن طبيعتك تسمح لك بكتابة رسائلك في هدوء أكثر مما تفعل» ولكن «بن» كان غير قادر على كتابة رسالة هادئة مطلقاً فهو ثمل بجمال الحياة.

دفعه شغفه الكبير بالتاريخ إلى البحث عن الكهول فصار من أقرب صديقاته إليه لادى كورك العجوز، وكانت على الرغم من بلوغها سبعا وثمانين سنة تدعو لديها ضيوفاً في كل مساء، وهي أجمل العجائز وأكثرهن تسلياً، وقد اختفى أبطال وبطلات شبابها ونضوجها وكهولتها من الأحباء ورجال الجيش والشعراء ورأت الثورات في كل بلد في العالم، وهي تتذكر برايتون عندما كانت ميناء صيد، ومانشستر عندما كانت قرية، ولكنها ظلت على عادتها نشطة ومرحة ومتعطشة للتسلية ولما هو جديد؛ ووجدت في هذا الشاب ذكاء وحبا للاستطلاع فوهبته حمايتها وهي حماية قوية في عالم الاجتماع.

كتب إلى سارة يقول: «من القصص الجيدة الطريفة أن قام لورد كارنجتون في يوم الاثنين بزيارة للادى كورك (وَجَرى بينهما هذا الحديث):

لادى كورك: أتعرف دزرائيلي الشاب؟

لورد كارنجتون: آه! أظن! لماذا!

لادى كورك: أليس جاراً لك؟

لورد كارنجتون: أبوه جارى.

لادى كورك: أعرف ذلك فإن أباه من أعز أصدقائى. وإنى شديدة التعلق

بعائلة دزرائيلي.

لورد كارنجتون : إن الشاب شخص شاذ ، أما الأب فأميل إليه لأنه شديد الهدوء ووقور .

لادى كورك : لماذا ترى أن الشاب شخص شاذ ، إني على كل حال لا أنتظر أن مثلك يستسيغه .

لورد كارنجتون : إنه كثير الحركة ولكنه لا يتعبنا الآن كثيراً ، فإني أعتقد أنه سافر الآن إلى الخارج .

لادى كورك : (حرفياً) إنك عجوز أبله ، لقد أرسل لي في الصباح هذا الكتاب ولا حاجة بك إلى النظر فيه فإنك لا تفهمه ، وهو خير ما أخرج من الكتب . أتظن حقاً أنه سافر إلى الخارج ! إنه في أحسن المراكز في لندن ولا تستغنى عنه حفلة من الحفلات ، وتقول الدوقة هاملتون إنه ليس له مثيل ، واللادى لونسديل على استعداد لتقديم رأسها وأكتافها من أجله ، وهو لن يتعشى لديك لو دعوته ، فهو لا يهتم للناس لأنهم من اللوردات ، بل لا بد من الأناقة أو الجمال أو الكاء أو ما ماثله ، وإنك لرجل طيب جداً ولكنك لست أكثر من ذلك . وقابل اللورد كلامها بمقابلة حسنة وضحك منه . وقد قرأت لادى كورك كل سطر في كتابي الجديد ، ولا أشك في إخلاصها في الإعجاب به ، لأنها أنفقت سبعة عشر شلناً في شراء قطيفة حمراء وخدمتها تقوم بتجليده ... » .

وهي قصة لتسلية سارة بلا شك ومن عدم الحكمه تصديق كل كلمة فيها . وكانت العائلة فيما يتعلق بنجاح بنيامين تحتل عادة الصورة القوية الألوان ، وهو يعرف جيداً أن سارة وهي تقرأ هذه العبارات تحسب حساب « بن » في قوة تصوراته على أن تأكيد النجاح يطمئنه .

وكان جميع أفراد الأرستقراطية الإنجليزية يجتمعون ليلاً في محل « المالك » وهو ناد خاص للرقص ترعاه أكبر السيدات مقاماً وتنفذ فيه أدق القوانين ، فلا يدخل إليه أحد إلا في بنطلون قصير وجوارب من حرير ؛ وحاول الدوق أوف ولنجتون مرة أن يدخل وهو في زى آخر ولكن البواب تقدم إليه وقال : « لا يمكن

دخول سموك بالبنطلون العادي » ، وعلى ذلك سلك الدوق مسلك الجندي الذي اعتاد النظام وعاد من غير شكاية .

وصار دزرائيلي دائم التردد على « الماك » الذي ترتب فيه الكثير من الزيجات واقترحت عليه عقود زواج مغرية فكتب يقول : « خبريني هل ترضين بلادي ز... زوجة لأخيك هي ذكية جداً ومعها ٢٥ ألف جنيهه وهي من اللاتي يألفن البيت ، أما الحب فكل أصدقائي الذين تزوجوا للحب أو الجمال إما يضربون زوجاتهم أو ينفصلون عنهن ، وهذا هو الواقع حرفياً ، إنني أرتكب أعمالاً جنونية كثيرة في حياتي ، ولكنني لا أتزوج من أجل الحب فإني أرى فيه ضماناً للتعاسة » .

أدى رضا النساء عن دزرائيلي إلى رضا الرجال ، ودعاه البعض منهم إلى حفلات غداء سياسية وذلك أقصى أمانيه . وفي ذات مساء في دار اللورد اليوت وجد نفسه جالساً إلى جانب سير روبرت پيل الزعيم العظيم لحزب المحافظين ، وكان جميع الجالسين على المائدة قد أصابهم الذعر ، وفحص دزرائيلي في فضول النهم ذلك الرجل الشديد القوى الذي أغدق عليه الحظ منذ صباه كل ما يطمع فيه دزرائيلي .

فهو ابن لأحد كبار رجال الصناعة وأحد السبعة الذين يمتلكون أكبر ثروة في إنجلترا ، لذلك ربي منذ طفولته على أن يصير رئيس وزارة ، ففي سن الخامسة كان يرفع ليقف فوق المائدة ويكرر خطباً ، وعاد من جامعة أكسفورد وهو الأول مرتين في الآداب القديمة وفي الرياضيات ، وذلك مالا يحدث إلا نادراً — وفي الواحد والعشرين من عمره اشترى له أبوه مقعداً في البرلمان ، وفي الثالثة والعشرين من عمره صار وزيراً ، وظل الناس وقتاً ما يلومونه على إنكاره الجميل كاننج حيث حاربه بشدة حتى الموت بعد أن كان له صديقاً ، ولكن عالم السياسة نسي ذلك ، والآن وهو في الثالثة والأربعين من العمر صارت له مكانة عجيبة حتى بين خصومه ، وصار رمز الأمانة والصلابة الإنجليزية ، واستحسن الناس

طول قامته والشدة الرومانية في ملامحه ، وقبلوا تكبره وبرود معاملته ؛ ولكن دزرائيلي فاجأ فيه حركات عصبية ناشئة عن حساسية تبلغ حد المرض ولكنها طبيعية في رجل اعتاد السلطة ، وتحقق لدى دزرائيلي أن من الصعب المعيشة مع هذا الوزير ، ولكن في ذلك المساء قرر ييل أن يتظرف مع الناس وعامل الأديب الشاب ببساطة فيها شيء من التنازل ، ولم يتصور أن هذا الجار الحقير كان يقيس الرجل العظيم .

وأخذ دزرائيلي يفكر أحياناً : « هل من الضروري حقيقة دخول البرلمان ؟ إن هذه الحياة بين اللذة والكسل والعمل الأدبي هي حياة سارة ، وإنني لفي قرارة نفسي ميال للكسل لجميع الرجال من ذوى الخيال العالى . . . وأحب إن أكون كسولاً ، وأن أتمتع بنفسى ، وأن أفكر في الماضى العصيب ، وأبتسم للحاضر الهادئ ، ولكنى ويا للأسف أناضل من أجل ما بى من تكبر ، أجل ! إن الكبر هو الذى يدفعنى لا الطموح ، ولا يجب أن يقولوا إنى فشلت » .

وفى ذات يوم أعرب عن هذه المشاعر لبلوار ، فالتفت صديقه نحوه وتأبط ذراعه وقال له مخلصاً : « هذا حقيقى يا صديق ، إننا نضحى شبابنا وهو وقت السرور والموسم البهيج للتمتع -- ولكننا مرغمون على التقدم -- مرغمون لأن أعداءنا ينتصرون إذا انسحبنا من المسرح » .

نعم بلا شك يجب أن يستمر ، ولكن أحياناً وهو فى حفلة مسائية ساحرة وعند ما يرى بريق لندن فى الليل من خلال الضباب وهو خارج من حفلة راقصة وعند ما تتلكأ امرأة جميلة وهى تضغط على يده فى تحية الوداع ، كان يخاطب نفسه بأن الطموح جنون باطل ، وأن ذلك الطيش الذى تظاهر به هو طبيعته الحقيقية ، وهو من الحكمة أيضاً ، وأن من اللذة أن يعيش للأبد تحت أقدام الحفيدات الثلاث لشريدان وهو تابع لهن محب وكسول .

مستقل

« إلى الملتقى أيها السيد العزيز ، لقد أريتمنى
أجل منظر يشاهد في هذه الجزيرة منظر سيد
عظيم يعيش في داره وبين أهله »
دزرائيلي

وافق مجلس اللوردات في يونيه سنة ١٨٣٢ على الإصلاح الانتخابي وذلك
بعد أن حاول المجلس إلى اللحظة الأخيرة أن يعارض هذا المشروع ، وأقدم في
بطولة على قلب وزارة « الهويج » . ولكن ما حاول ولنجتون أن يؤلف وزارة
حتى ثارت البلاد ، وقرعت الكنائس أجراس الثورة ، ووقف العمل في كل
مكان ، وهب لورد ستانلي أظهر الشبان من رجال « الهويج » إلى منضدة وأعلن
قائلاً : « إذا قاوم اللوردات فإن جلالة الملك يستطيع أن يضع تيجان النبيل على
رأس فرقة من جنوده » ؛ وعلقت على الحوائط إعلانات تدعو الإنجليز إلى سحب
أموالهم من بنك إنجلترا .

كان بنك إنجلترا هو المعهد الوطني الوحيد الذي يحترمه الدوق ، فثورة
المودعين هي التي قضت على معارضة النبلاء ، ولم يبق أمام دوق ولنجتون إلا
أن يأمر اللوردات : « سادتي اللوردات دوروا إلى اليمين ثم سيروا » . وتغاب
فريق الإصلاح ، ومن الطبيعي أن الانتخابات التي تسير على النظام الجديد
تسجل نجاح هذا الفريق وصار فشل حزب « التوري » مؤكداً .

نستطيع أن نتصور كيف تتبع دزرائيلي هذه الحوادث الخطيرة بالاهتمام
الكبير ، ورأى أن مثل هذه الحركة الكبيرة هي الوقت المناسب للاستيلاء على
مقعد في البرلمان ، فما ان تمت الموافقة على الإصلاح حتى سافر إلى ويكومب وهي
الدائرة المجاورة لأملاك أبيه ، وبدأ في زيارة الناحيين ، وهذه الدائرة للهويج ، ولكن

دزرائيلي انتظار أن يتقدم إليها على أنه من الراديكاليين ، إلا أنه في أعماق قلبه أخذ يزداد تعلقاً بالتورى إذ وجد أن الحزب القديم المؤلف من كبار الفلاحين وأصحاب المزارع فيه من الجمال ما لا يماثله غيره ، وهو على اتصال ببعض هؤلاء السادة ، ففي مقاطعة بكس كان على علاقة حسنة بدوق باكنجهام ، وبنوع خاص بابنه لورد شاندوس وكلاهما سيد كبير يلائم نفسه ، وهما مشهوران بالسخاء الذى يبلغ حد السفه ، فإن الدوق العجوز جر إلى نفسه الخراب بأن احتفى بالعائلة المالكة الفرنسية احتفاء عظيماً ، فاضطر للعيش منذ سنين على ظهر سفينته الخاصة كي يقتصد فى نفقاته ، وهذه الصفات تعجب دزرائيلي .

والواقع أنه كلما وجد بين جماعة من السادة الزراع سر لذلك . وكان يقول بأنهم « حمير نحمون » ، يردد مثل هذا القول دون أن يشوب قوله شائبة من الاحتقار ، وقد أعجب بقوتهم وهدوئهم ولكنه لم يجرؤ على أن يستند إليهم ، فإن مبادئهم صارت خلقة ولم يعد الشعب يرغب فيها ، فإذا يفعل ؟ تقدم على العكس مسلحاً برسائل التأييد من رجال عاملين على التقدم من أمثال : هيوم ، واوكونل الأيرلندى الخفيف ، وحصل على هذه الرسائل عن طريق بلوار ، وبذل بلوار جهوداً كي لا يرشح أحد أمام صديقه ، ولكنه فشل فى ذلك لأن كبار « الهويج » لا يحبون هذا الشاب الغريب الأطوار الكثير الصخب ، الذى اشتهر بلون صدره أكثر مما اشتهر بحبه للإصلاح . أما « التورى » فأحسنوا استقباله فى المقاطعة لأنهم أولاً لم تكن لديهم فرصة لاحتلال المقعد ، ففضلوا أن يكون العضو مستقلاً ، ثم لأن عواطف أبيه إسحق دزرائيلي نحو « التورى » معروفة حتى قال منافسو بنيامين : إنه ليس إلا رجلاً مقنعاً من « التورى » ، وكان يرد على هذا القول بأن ليس أقرب شياً إلى « التورى » المقنع من رجل من « الهويج » بلغ مرتبة الحكم . وقدم موعد الانتخاب بضعة أسابيع بسبب استقالة غير منتظرة ، فأدى ذلك إلى إجراء هذا الانتخاب على قواعد قانون الانتخاب القديم ، وفى هذه الحالة لم يعد فى الدائرة أكثر من بضع وثلاثين ناخباً ، وتقدمت الوزارة بمرشح رسمى

هو الكولونيل جرای ابن رئیس الوزراء . وكتب دزرائیلی إلى مسز أوستین :
« أرسلت خزينة الحكومة الكولونيل جرای في رهط من المأجورين ، وجوقة
موسيقية ، ولم تشهد الدائرة مثل هذا الفشل الكبير فبعد أن مرّ موكبه في
المدينة بين تصفيق المأجورين وقف في عربته وخطب الناس في تلثم مدة عشر
دقائق ، واجتمع عليه أهل ويكومب جميعاً فشعرت أن اللحظة حاسمة ، وهرعت
إلى باب فندق الأسد الأحمر وخطبت الناس مدة ساعة وربع الساعة . ولا
أستطيع أن أصف لك ما كان لي من تأثير ، فقد لعبت بعقولهم لعباً وبكى الكثير
منهم ، وانضم إلى النساء وصرن في صفى ، وهن يتزين بشعارى من اللونين الوردى
والأبيض ، فاحملى هذه الألوان أيضاً » .

لما رأى أهل ويكومب هذا الشاب ذا السحنة المتقعة ، وخصائل الشعر
السوداء والأكام المصنوعة من الدنتله يظهر في فندق الأسد الأحمر وهو يحمل
عصا ذات قبضة من الذهب ، ويسوى خصائل شعره بعناية قبل أن يتكلم ،
انتظروا أن يسمعوا خطبة فارغة ، ولكن عند ما ارتفع صوت ذو قوة عجيبة حتى
ملأ الشارع بفصاحته الساحرة ، وعند ما هاجم هذا الصوت رجال « الهويج »
في مرارة شديدة ، استسلم أهل ويكومب واندفعوا في حماسة قلقه ، أما دزرائیلی
فإنه شعر لأول مرة بلذة جديدة حين وجد نفسه سيداً لهذا الجمهور وسمع صوت
نفسه وعجب من عباراته المتناسقة القوية التي كان يملها على الخطيب إله داخلي ،
واختتم خطابه وهو يشير إلى عجز الأسد الذي يزين باب الفندق ، « عند ما تعلن
نتيجة الانتخاب سيكون خصمى هنا ، بينما أنا (وأشار إلى الرأس) سأكون هنا »
ولم ير أهل ويكومب في حياتهم أسدًهم القديم يرصع في مثل هذه العبارة العجيبة .
في يوم الانتخاب ألقى دزرائیلی خطبة أخرى قال فيها إنه لا يحمل شعار أى
حزب ، فإذا كان « الثورى » قد أزروه فإن الشعب أزره من قبل وهو يعمل على
تحسين حال الفقراء (وهى عبارة نادرة في التصريحات الانتخابية في زمن لم يكن

للفقراء أصوات فيه) لأنه خرج من الشعب وليس في عروقه دم من أسرة تيودور أو من أسرة بلانتاجنيت .

ثم ارتقى الاثنان وثلاثون ناخباً منصة الانتخاب واحداً بعد آخر ، وأعربوا عن أصواتهم علناً وأعلنت النتيجة ، فإذا الكولونيل الخجول العبي يحرز عشرين صوتاً ، وإذا الخطيب المفوه في فندق الأسد الأحمر يحرز اثني عشر صوتاً فهو لم يكن في رأس الأسد .

وارتقى المنصة مرة أخرى وقال : « ليكن ذلك ! غلبني الهويج ولكنهم سيأسفون » ، على أنه كان حزيناً شاعراً بالخيبة .

ما جاء شهر أكتوبر حتى أعلنت الانتخابات العامة بعد التوسع في حقوق الانتخاب وعاد دزرائيلي إلى ويكومب ، وفي هذه المرة أيضاً تقدم على أنه مستقل قائلاً : إنني لست تابعاً لحزب ولا أشغل وقتي بالأحزاب ، أيها الإنجليز أنقذوا أنفسكم من هذه العجمة السياسية ومن لهجة الحزبية المستهجنة ، « فالهويج » و « التوري » هما اسمان ليس لهما إلا معنى واحد ، ولا يستخدمان إلا للتضليل بكم ، ولتحدوا كي تنشئوا حزبا كبيراً وطنياً لا يستطيع غيره أن ينقذ البلاد من دمار عاجل ... » .

اتبع المحافظون نحوه نصيحة صديقه لورد شاندوس ، فلزموا خطة الحياد المشرب بالعطف ، وأخذ على المرشح الإصلاحي موقف المحافظين نحوه فقال : « إنني محافظ كي أنقذ ما هو حسن في دستورنا ، وإنني من الراديكال كي أقضي على ما هو سيء فيه » ، وأعلن أنه سعيد إذ يرى في هذه الدائرة على الأقل أن « التوري » عادوا إلى تقاليد الحزب العظيمة التي عرفها في الماضي حين حصل بقيادة رجال من أمثال بولنجبروك على تأييد الشعب . وحاول البعض أن ينتزع منه تصريحات ثورية فيما يتعلق بالرسوم المضروبة على القمح ، ولكنه حافظ على موقف معقول قائلاً : « إننا إذا لجأنا إلى تغيير فجائي في النظام الحالي فسلام على مقاطعتنا الجميلة .. وقد تسألون هل يظل إذن ثمن الخبز مرتفعاً ؟ فأجيب من الخير أن يظل الخبز مرتفع الثمن على

ألا يوجد خبز» . ولكن لم يجد هذا القول الحكيم ما يستحقه من جائزة ، ونال جراي ١٤٠ صوتاً ، ونال دزرائيلي ١١٩ صوتاً ، وانتصر « الهويج » انتصاراً عظيماً في إنجلترا بأجمعها ، وعادوا إلى البرلمان في أغلبية تضمن لهم السلطة زمناً طويلاً . وحيث فاتته هذه الفرصة فلا بد أن ينتظر فرصة أخرى بعد زمن طويل .

عندما اجتمع البرلمان بعد ذلك ذهب مرة لسماع صديقه بلوار الذي أعيد انتخابه ، وفي ذلك المساء كتب إلى سارة يقول : « تكلم بلوار وهو لم يخلق لأن يكون خطيباً ولن ينجح في الخطابة أبداً على الرغم من مجهوداته . . . أما ما كولي فهو جدير بالإعجاب . . . ولكن أقول لك فيما بيننا إنني أبزهم جميعاً . . . لا أقول هذا القول إلا لك وحدك ، وإنني لا أثق في شيء مثل ثقتي في أنني أستطيع أن أتغلب على كل شيء في هذا المجلس وسيأتي الزمن » . وكتب في مذكراته : « يرى الناس أنني كثير الاعتداد بالنفس والناس على خطأ ، فإن جميع الأغلاط التي ارتكبتها نشأت من تضحية آرائي في سبيل آراء الناس ، وفي الوقت الذي يعتقدون فيه أنني كثير الاعتداد بنفسى أراني شديد الاضطراب ولا أثق في نفسي إلا لحظات . وقد عولت في المستقبل على أن أعمل بما تمليه على نفسي ، فإن لي غريزة لا تخطيء ، وأستطيع قراءة الأخلاق في نظرة ، وقليل من الرجال من أخدع فيه ، وعقلي هو عقل القارة الأوربية وهو عقل ثوري ، وإنني لا أكون عظيماً حقاً إلا في العمل وسأبرهن على ذلك ، وأستطيع أن أسود مجلس النواب على الرغم من أنني أقابل في مبدأ الأمر بالكراهية » .

كما حدث أنه بعد فشله الصحفي شعر برغبة في كتابة قصة ، إذا به بعد فشله السياسي مرتين يشعر بالرغبة في نظم قصيدة ، وذهب إلى برادنهام ليعتزل العالم وعاش في عزلة غرفته ، وكان يتريض بالسير تحت أشجار الحديقة وهو يفكر في موضوع عظيم — فكر فيه لأول مرة أثناء سياحته في الشرق وهو يتأمل وادي طروادة ، إذ قال لنفسه : « هوميروس ! لماذا لا يكتب الناس الآن قصائد عظيمة

كمنظومات هوميروس ؟ » ولم يكن أمامه إلا أن يجد موضوعاً لقصيدة حديثة .
تبين له أن نابليون موضوع واضح ، وفي مبدأ القصيدة تمثل روح النظام
الإقطاعي وروح النظام الديمقراطي بين يدي الله ، وكل منهما يدافع في ذلقة عن
حقه في حكم الناس ، لأن دزرائيلي إذا أعجب بالنظام الإقطاعي في الماضي فإنه يرى
أن النظام الديمقراطي لا بد منه في المستقبل ، فالنشيد الأول إذن هو حوار بين
دزرائيلي ودزرائيلي ، ولكن الصعوبة في حمل الإله على الاختيار بين الروحين ،
ولكن الإله القدير أبدى في حذر أن رجلاً خارقاً للعادة ولد ، وأن النظام الذي
يختاره هذا العبقري هو الذي يسود ، وهذا الرجل هو نابليون . ورأى أن تكون
حملة إيطاليا موضوع النشيد الثاني ، وكتب إلى مسز أوستين يسألها « مارأيك ؟
إن الفكرة تبدو لي عظيمة » .

انتهى النشيد الأول فذهب ليقرأه لها في المساء ، وكان لديها بعض الأصدقاء
وقد رأوا أن هذا المنظر مضحك جداً ، فهذا الشاب الطويل المستند إلى المدفأة
وهو يعبث بخصائل شعره ، وينظر نظرة الارتياح إلى الأشرطة الحمراء التي زين بها
نعليه ، والذي يعلن عن نفسه بأنه شاعر زمانه مثل دانتي وهوميروس ، أثار ضحكا
لا يكاد يكتم ، ولم يلبث النشيدان أن نشرتا واستقبلتهما الجمهور استقبالا فاتراً ، ولم
يكن دزرائيلي شديد التعلق بأن يبلغ مبلغ هوميروس ، وبدأ يعمل هذه القصيدة
فألقى بها في أحد الأركان ولم يعد يفكر فيها .

النساء

تقدم الدنيا لدى المطامع التي لم تتحقق تعويضات أكيدة ولذيذة ، وكثيراً ما تعامله إذا ظل رحب الصدر خيراً من معاملة الفاتح الكبير أو من الوزير ، ففراغ الرجل الذي لا يجد له مجالا هو من الصفات المستحبة لدى النساء ، لأن هذا الفراغ يضعه في خدمتهن ؛ وخضع دزرائيلي راضياً لهذه العبودية الجميلة ، وشعر بالسعادة إذ رُدَّ إلى الأخوات الثلاث من آل شريدان ، واتسعت دائرة صديقاته من النساء الجميلات ، واصطحبته أختان من جاراته في برادنهام وهما اللادي شستر فيلد ومسنر أنسون إلى أنخم مرقص مقنع ؛ وكانت لادي شستر فيلد في زى سلطانة ومسنر أنسون في زى سيدة يونانية أرسلت شعرها حتى بلغ منكبيها ؛ وطلبت مركيزه لوند ندرى ، وهى في زى كيلوبتره يضىء عليها الماس والزمرد ، أن يقدم إليها دزرائيلي .

شعر لحظة بالسعادة في هذا البيت الجميل الذى أضيئت جوانبه ، وسبح في بحر من الجواهر الكريمة والوجوه الحسنة .

كانت له خلية يحبها وكتب في سبيلها رواية غرام هى « هنريت تمبل » ، ثم ألحقها سريعاً برواية عن حياة بيرون وشلى اسمها « فينتيا » ، وكانت هنريت الحقيقية متزوجة ، ولكنها طليقة في سيرها ، وهى من ضمن الجماعة الصغيرة البراقة التى يحبها دزرائيلي ، فصار من السهل عليهما أن يجمعا خير الرفاق فى لندن .

فى كل يوم كانا يُدعوان إلى حفلة على النهر أو فى حديقة بها الأدغال خلية بريشة المصور « فيرونيزى » وهى ملأى بالأزهار والنوافير والنبغاء ، أو إلى عشاء لذيذ بعد الأوبرا ، وفى بعض الأحيان يركب وحوله كلاب الصيد تمتطى مهرأ عربيا تملكه خليلته ويقفز به على الحواجز جميعها فيكسب احترام أمهر الفرسان ، ولم

يكن ميالا لهذا النوع من الرياضة ولكنه لا يرضى بأن يقف دونه حائل ، وهذا جزء من برنامجي .

قدمه بلوار في منزل جديد هو منزل لادى بلسنجتون ، وقد سمع دزرائيلي من قبل قصصاً عديدة عن حياة مضيافته ؛ ومرجريت لادى بلسنجتون هي ابنة قاض أرلندي صغير الشأن أجبر ابنته وهي في الخامسة عشرة من عمرها على الزواج في سبيل المال من مجنون ، وكان لورد بلسنجتون سيدا كبيرا ومالكا كبيرا ، وهو رجل غريب الأطوار ، أرمل وأب لبنتين ، ويبلغ إرادته ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، وقد اكتشف هذا الجمال الدفين ، وعرض عليها أن يحملها إلى إنجلترا ، وأن يعمل على طلاقها من زوجها ثم يتزوجها . وقد سافر لورد ولادى بلسنجتون إلى إيطاليا في صحبة شاب فرنسي هو الكونت دورسيه نموذج في جماله وبريقه وثقافته ، ولم يكن أحد يرتاب في أنه خليل لادى بلسنجتون ، ولا ريب في أن الحقيقة هي ذلك ، وكان لورد بلسنجتون قد أولع بالفريد دورسيه ، وتعلق به تعلقاً لا يصدق ، فكتب وصية يترك له فيها الجزء الأكبر من أمواله ، بشرط أن يتزوج من إحدى بنتي الموصى ، وكانت البنتان اللتان ربطتا بهذا العقد القانوني في الحادية عشرة والثانية عشرة من عمرهما . وفي سنة ١٨٤٧ ، بعد أربع سنوات من الوصية ، تزوج الكونت دورسيه وفاء بتوقيعه من اللادى هاريت أصغر البنتين ، وهي عندئذ فتاة ممتعة اللون في الخامسة عشرة من عمرها ، انقطعت عن المدرسة من أجل الزواج ، وتحدث الناس بأن ألفريد دورسيه وعد لادى بلسنجتون بالألا يجعل من اللادى هاريت زوجة بمعنى الكلمة ، وأنه بر بوعده ؛ ثم مات لورد بلسنجتون فجأة ؛ وعاد دورسيه وزوجته العذراء لكي يستوليا على الميراث وفي صحبتهما لادى بلسنجتون وقد كبرت التلميذة وصارت بارعة الجمال ، وأخذت تتألم للاحتقار المؤدب من زوجها ولوجود امرأة أبيها ، فتركت دارها في ساحة سيمور على ألا تعود .

هذه هي القصة التي قبلها أهل لندن ، ولكن بلوار عند ما اصطحب دزرائيلي

لزيارة لادى بلسنجتون أضاف إلى الصورة لونا خاصا بقوله : « ستري أنها جذابة وفيها رحابة الأيرلنديين ، وفيها ظرف خاص لا تجده في غيرها ، وهي شفيقة وكريمة وتعلم صعوبة موقفها فلا تحاول أن تفرض نفسها على النساء ، وهي لا تخلو من العيوب ، على أن الكثير مما يقال عنها ليس صحيحا ، وقد اتهمت بأنها هي التي عملت على زواج ابنة زوجها من الكونت دورسيه وهذا غير حقيقى وكانت مقاومة لهذا الزواج ولكن لورد بلسنجتون هو الذى أرغم الجميع ، وإذا اعتدنا بالمظاهر نجد أن الحب الذى تحمله لدورسيه هو حب الأم للطفل المدله ، وانى لأعتقد أنه منذ زواجه لم يكن بينهما شىء ، وعلى كل فهى ليست من النوع المتقد العواطف بل هى صديقة ودودة مخلصه ، وقد فقدت الشىء الكثير ولا يزال لها وجه صبور وعينان جميلتان ، ويمكن أن ترى أنها ظلت ممتسقة القوام إلى أن مالت للبدانة . »

سرّ دزرائيل سرورا عظيما بهذه الدار ، ويخترق زائروها بهواً فرش بالآثاث الأحمر المحلى بالذهب ، وهو مليء بأوانى جميلة من الكهرمان كانت للأمبراطورة جوزفين ، ثم يصل الزائرون إلى مكتبة ضيقة طويلة ذات حوائط بيضاء مذهبة صفت فيها قماطر الكتب بين المرايا ، ومن خلال النافذة الطويلة فى آخر المكتبة تلوح أشجار هايدبارك ، وحول الغرفة تجد سررا ومقاعد ومناضد عليها التحف الصغيرة ، وعلى مقعد كبير من الحرير الأصفر تجلس لادى بلسنجتون فى ثوب من الحرير الأزرق يكشف كثيرا عن صدرها ، وأعجب دزرائيل بأكتافها الجميلة وبالألحناء الثابت المليء لنهديها ، وأحب ذلك الشعر المصفف إلى خلف بعد أن مشط إلى الجانبين ، وتلك الحلية من الزبرجد على الجبين ، وما تكلمت حتى صار لها أسيرا .

لما زاد معرفة بذلك الزوج الجميل الذى يتألف منها ومن دورسيه ، وخبر ودها المتبادل وذلك المرح الذى يشبه مسرح الأطفال يستخلصه الاثنان من تلك النكات الصغيرة التى يظهرانها من تقاليد تلك الدار ، نسي إلى الأبد لادى هاريت واللورد العجوز والكثير من القصص المظلمة ، وتمتع دون تردد بصداقة هذين الشخصين

الظريفيين . أما لادى بلسنجتون فوجدته نابغاً وفصيحاً وفطناً ، فهو في الواقع كبير الشبه بفيفيان جرای في روايته . وكان النساء لا يستقبلنها فصارت تقابل الزائرين في كل الليالي ، وصار من عادة دزرائيلي أن يزورها في كل يوم ، وكثيراً ما بقي صامتاً يتمتع فقط بلذة الوجود في ذلك البهو الذي يحبه وهو واقف بجانب النافذة يطل على الماشي الجرداء في هايدبارك ، وقد لمت أشعة الشمس الأخيرة على الأزهار المذهبة في صداره وفي يده عصا بيضاء وجيوبه مليئة بسلاسل الذهب ، فإذا كان الموضوع يهمه يقترب من المتحدثين ويشترك في الحديث ، وحينئذ يدهش الحاضرين بسهولة عباراته وقوة تهكمه ، وإذا تكلم كان شبيهاً بجواد السباق وهو على مقربة من الهدف فتتحرك جميع عضلاته ويضع في كل عبارة قوة عجيبة . ومن فنه في الكلام أن يقارب بين الكلمات المتباعدة فتكسبها هذه المجاورة قوة وحشية مقلقة ، وفي الإصغاء إليه لذة ولكنها مضيئة . وفي منتصف الليل بعد جلسات البرلمان يصل بلوار فيصير الحوار بين الصديقين خلافاً .

ولكن دزرائيلي يحب أكثر من ذلك أن يرى لادى بلسنجتون وحيدة ، فقد صارت مستودع أسرارها وصاحبة الرأي عنده في مغامراته الغرامية ، فهو يروى لها كل شيء : كيف أحب هنريت وكيف قدمها لوالديه في برادنهايم وهما لبساطتهما لم يريا بأساً في ذلك ، وكيف شعر بشيء من تأنيب الضمير ، وكيف حملته بعض الديون لتعلقها بالمجتمعات وحفلات العشاء ، وكيف أن هذه العلاقة كادت تهدد مستقبله ، وكيف أن الطموح لديه عاطفة أقوى من الحب ، وروى لها فيما بعد كيف قطع هذه العلاقة وكانت تفهم كل ذلك . وكلها عن برادنهايم ومستردزرائيلي العجوز وأمه ، وكشف لها عما في نفسه من حزن يخفيه وراء مظهر المرح والطيش ، وكان في مثل هذه الأحاديث الطليقة خلافاً ، فبقدر ما يبدو لمن لا يعرفه متصنعاً مستهتراً بقدر ما يبدو لصديقة مثل لادى بلسنجتون طبيعياً ورقيق القلب ، وكان يسألها الرأي أحياناً في مسائل صغيرة جداً ، ويطلب إليها أن تفسر له الرجال ، ويستعلم منها عن أحدث الكتب الفرنسية ويسألها النصيحة عما يقرأه : « ما الرأي في بلاك

وهل هو خير من سو وجورج ساند دوديفان ، وهل هذان الأخيران أقل شأنًا من هوجو ؟ » ، وكان يعترف لها بخجله وضعف أعصابه : « لست أعلم كيف حالي ، ولكن الواقع أني لا أكون قويًا إلا وأنا في حركة ، وحينئذ أشعر أنني مخلص . وإني لأخجل من ضعف أعصابي والتخمة كثيرا ما تجعلني أرغب في حرب أهلية ... وإني لأكاد أموت شوقا إلى الحركة ، واصدا كسيف من سيوف دمشق في غمد رعديد ... » .

وأحيانا في غرف استقبال صديقاته يقابل بعض الساسة الذين في الحكم فيخلع قناع الخنوة ويتكلم في حماسة عن شؤون الدولة ، وكل كان يحسدكم على مناصبهم حيث تنقلب الأقوال إلى أفعال . وقدّم ذات مساء عند كارولين نورتون للورد ملبورن الوزير الكبير من الأحرار ، وهو من الدائنين على زيارتها حيث يجلس على مقعدها متمدداً في غير عناية ، ويتكلم قليلا ولكنه يصغى في سرور . وقد سحر ملبورن بآراء الشاب الطريفة وفصاحته الجريئة ، وفجأة في طبيته الخشنة عرض عليه المساعدة سائلا : « قل لي ماذا تتمنى ؟ » ، فأجابه « أن أكون رئيس وزارة » فرفع ملبورن كتفيه وقال في لهجة الجد العميق : « لا ! لا ! هذا ليس ممكنا في زمننا ، فإن كل ذلك مدبر وسيكون الوزير القادم ستانلي ، وهو كالنسر الصغير بين منافسيه ... لا ! فلتمتحن السياسة فإن لك الحق في ذلك لأنك ذكي وستصل بلا شك ، ولكن يجب أن تقلع عن هذه الأفكار السخيفة » .

الإقلاع كلمة سهلة بالنسبة لمن هو مثل لورد ملبورن عرف كل شيء وذاق كل شيء ، ولكن دزرائيلي هذا يريد أن يعيش ولا يتصور الحياة بلا مجد ، وأمامه تتناقش الأخوات الثلاث الجميلات من عائلة شريدان باهتمام في الخير الأعلى ويتساءلن : « ماهي الحياة المرغوبة ؟ » ، ويستولى الجد فجأة على ديزي الشاب ويجيب من أعماق مقعده بحماسة : « موكب عظيم مستمر من الصبا إلى القبر » .

الانضمام إلى حزب

« أفضل الحرية التي تتمتع بها على مبادئ
الأحرار التي يعدوننا بها ، وأفضل على حقوق الإنسان
حقوق الانجليز » .

دزرائيلي

كان انتصار حزب «الهويج» في سنة ١٨٣٣ هائلا حتى ظن أنهم سيحكمون
البلاد نصف قرن ، ولكن الطمأنينة تقضى على كل شيء حتى على المحالفات التي
يظن أنها لا تفصم .

بين الأحرار المنتصرين إذا كان هنالك أناس مبالون حقا إلى الإصلاح من
أمثال لورد جون راسل ، أو من هم أكثر جرأة منه مثل لورد درهام ، فإن
منهم محافظين بفطرتهم أمثال ستانلي الذي رأى فيه لورد ملبورن رئيس وزارة
المستقبل ، ولم يلبشوا أن حدث شقاق في صفوفهم وخرج ستانلي وأصدقائه على
الحزب وارتفع فجأة ميزان المحافظين .

ومما يدعو للتسليية أن صفوف المحافظين كانت تقاتل أيضاً بقيادة زعيم دائم
التطلع إلى خصومه ويفضل إرضاءهم على إرضاء أعوانه ، فإن سير روبرت پيل
يطمع في التسلط على جميع الأحزاب ، وهذا هو المطمع الوحيد الذي بقي لرجل
تسلط على حزبه ، وتحت إدارته خلع الحزب اسم «التوري» القديم واتخذ اسم
المحافظين ، واعتبرت هذه الكلمة مناقضة لكلمة الرجعيين ، وهكذا تقارب ستانلي
الحر المحافظ من بيل المحافظ الحر ، حتى لم يعد من السهل تمييز الواحد عن الآخر .
ومما لا شك فيه أن المحافظ كان أقرب إلى الحرية من زميله .

مثل هذه التغييرات جعلت من السهل جداً تطور دزرائيلي في حياته السياسية
الشخصية ، فهذه العودة إلى التقاليد الجريئة والمحجوبة للتوري القدماء هي كل ما يمتناه

منذ بدء حياته السياسية ، وقد رأى بوضوح أنه يجب عليه أن ينتهي إلى الاتصال بأحد الأحزاب القائمة بعد أن حاول أن يناضل مستقلاً فهزم مرة بعد مرة .

في البلد الذي تسود فيه تقاليد برلمانية قديمة لاسيما بلد مثل إنجلترا فيه يحترم الإخلاص ويحتقر النظم ، يكاد يكون من المستحيل الانزلاق بين الأحزاب . أما من داخل الحزب فانه يمكن إنشاء خلية جديدة ، ولا يمكن فرض الآراء إلا تحت شعار معروف ، وقد حان الوقت لأن يختار دزرائيلي وأن يقدم طاعته .

وإذا ظل متردداً في التقدم إلى حزب المحافظين فذلك لأن المسألة لديه صارت مسألة أشخاص ، فإن دزرائيلي المحب للشخصيات الخلابة والصفات الجميلة لم يجد ميلاً نحو سير روبرت پيل وبروده ، أجل إن الدوق حقاً أجمل منظرأً في صراحته المفاجئة ، ولكن الدوق اعتزل المسرح ، فقد أهين كثيراً في لحظة الإصلاح ولم يكن يجب أن يتعرض للجهاير ، ففضل أن يختار دوراً هو أكثر ملاءمة له وهو دور البطل الوطني القديم ؛ ففي النوادي كان الشبان يطلبون منه أن يقص عليهم قصص معاركه فيقول : « كنت في سلامنكه را كهاً وراء حائط صغير عندما رأيت الجناح الأيسر للجيش الفرنسي ينثنى ، فقلت والله إن هذا لكاف فلاهاجمهم في الحال » ، وصار إذا مر في الشوارع حياهُ الجمهور فقنع بذلك ، وقرر ألا يشترك في معارك لا تعود عليه بالمجد .

في نحو ذلك الوقت تعشى دزرائيلي ليلة إلى جانب لورد لندهرست رئيس القضاة من المحافظين ، وروى أن والد لندهرست قال له ذات يوم : « إنك يا جاك ستظل صبيّاً طول حياتك » ، وهي نبوءة تحققت فقد حافظ وهو في الستين من عمره على جنوحه للخيال في الأعمال البشرية ، وكان يتسلى بنقائص أمثاله أكثر مما يتضايق منها ، واعتاد أن يحفظ القصائد عن ظهر قلب لتدريب ذاكرته ، وقد سحرت دزرائيلي رحابة صدره التي تضايق منها الرجال المتشددون ، ووجد فيه أخيراً رجلاً يتكلم في السياسة والأحزاب كما يراها هو نفسه ، أي أنها ليست ديناً وإنما هي فن .

لم يمل قط من سماع الحوادث الكبيرة في ذلك القرن لاسيما تلك التفصيلات الصغيرة الثمينة التي تبث حياة في التاريخ ، فمثلاً أن في الليلة السابقة لوفاة كاننج كانت السماء زرقاء ولكن الريح باردة ، وأراد كاننج أن يتعشى في الخارج ورآه لندهرست يرتعد . وقد شمل الوزير أيضاً دزرائيلي الشاب بصدافته وكان يسدى إليه النصائح . وفي ذات يوم دعاه للعشاء مع وكيل للوزارة صغير السن جداً اسمه وليم جلادستون وأخذ يلقي عليهما دروساً حكيمة : « لا تدافعا أبداً عن نفسك أمام المجالس النيابية إلا بالرد على الهجوم ، فإن السامعين في اللذة التي يشعرون بها بسبب الهجوم الجديد ينسون الحملة السابقة » . وكان هذا الشاب جلادستون رجل جد من نوع پيل ولا يمكن أن يسر كثيراً أمثال دزرائيلي ولندهرست ، فكان العشاء حزيناً ، على أنه قدمت لهم بجمعة بيضاء جداً طرية اللحم محشوة حشواً جيداً وفي ذلك خير رفيق .

بفضل لندهرست أخذ دزرائيلي ينفذ إلى خبايا العالم السياسي ، وظل وقتاً ما يغازل لورد درهام ومستقليه ، وأخذ الحزبان المتطرفان يبحثان له عن دائرة فتركهما وشأنهما ، ولكن هذه المغازلات عرفت في لندن فلم يرح لها الناس وقالوا : « أمن درهام إلى ولنجتون ؟ عجباً إن دزرائيلي هذا يجب أن يكون ذا عقل غير متحيز » ، وأضاف جريفيل الحرون : « إنه مثال الصديق الذي ينتظر من لندهرست » .

أدى فشله في الانتخاب مرة أخرى إلى أن يبرأ من علته واكتفى بالدروس الثلاثة القاسية ، ففكرة الاستقلال عن الأحزاب مقضى عليها بالفشل . وعمل دزرائيلي على أن ينتخب عضواً في نادي كارلتون معقل المحافظين ، وقرر أن يتقدم للانتخاب بعد ذلك على أنه من المحافظين ، وأخيراً ارتدى الزي الحزبي .

إن الرجل يحسن دائماً تعليل تقلباته ، وإن دزرائيلي على أنه كان مستقلاً ثم صار محافظاً يفخر بثباته على عقيدته ، على أن هذا الثبات أقل وضوحاً للملاحظ من الخارج . وعندما قضت ضرورات الحملة السياسية على المحافظ الجديد بأن يهاجم

أو كونييل بعد أن التمس من قبل خطاب توصية منه غضب الزعيم الأيرلندي غضباً شديداً . وبعد أيام تكلم في اجتماع بدبلن عن هذا الهجوم وعن هذا الخطاب ، واختتم خطبته وسط الضحك والهتاف بقوله : « إن اليهود كانوا في وقت ما شعب الله المختار على أنه كان بينهم جماعة من الأشرار ، ولا بد أن دزرائيلي من نسل هؤلاء ، وأن فيه حقاً صفات ذلك اللص الشرير الذي مات على الصليب ، وإني لأعتقد حقاً أن اسمه كان دزرائيلي ، ولا يبعد أن يكون دزرائيلي الحالي من أحفاد ذلك الشخص الذي ذكرت مقامه الرفيع » .

نشرت جميع صحف لندن هذه الخطبة الطريفة وتسلي بها كثير من الناس الذين يتضايقون من دزرائيلي . أما هو فتغلبت عليه عواطف نسيها منذ الصغر عند ما قرأ هذه العبارات المؤلة حقاً ! أية رغبة شعر بها لضرب هذا الرجل كما فعل فيما مضى بالطالب الذي أهانه بالمدرسة ! جرى إلى دورسيه وطلب إليه أن يتفق على المباراة . ولكن أوكونيل قتل من قبل رجلاً في مباراة فأقسم أن لا يبارز أحداً ، وحاول دزرائيلي أن يدفع ابنه مورجان أوكونيل للمبارزة ، ولكن هذا أجاب بأنه يقبل أن ينتقم للإهانات التي توجه لأبيه ، ولكنه لا يتحمل مسؤولية كل ما يقوله هذا الأب ، وعندئذ كتب دزرائيلي إلى أوكونيل رسالة عنيفة يقول فيها : « على الرغم من أنك وضعت نفسك من زمن بعيد خارج العالم المتمددين فأني لا أرضى بأن أهان من أحد حتى ولو كان وحشاً في صورة آدمي دون أن أؤدبه » ، ثم حمل بشدة على رفض الأب ثم الابن مبارزته واختتم الرسالة بقوله : « سنتقابل في فيليبي ، وكن واثقاً من أنني سأنتهز الفرصة الأولى كي أؤدبك تأديباً يذكرك بالإهانات التي وجهتها لي ويحملك على الأسف عليها » . بنيامين دزرائيلي . وبعد هذه الرسالة عاد إلى الهدوء وإلى رضاه عن نفسه ، وارتدى أظهر ملابسه وأكثر صداريه زخرفة ، وقصد دار الأوبرا وهنأه أكبر معارفه على شجاعته . وكتبت له سارة وكتب له إسحاق العجوز بأنهما لا يحبان هذه الضجة الكريهة حول اسمهما ، وأنهما لا يوافقان على مثل هذه الشدة . فرد عليهما بنيامين

مستنكراً وهو يقول : « إن من رأى جميع الأحزاب هنا أنى سحقتة ، وأنه من السهل عليك أن تنتقدا مسلكى ، ولكنى لا آسف على هذه الرسالة ولا يمكن إرضاء الناس جميعاً ، وقد قال لى « و » إن رسالتى الأخيرة كانت أبدع ما كتب باللغة الإنجليزية ، وهناك أناس لم يحبوا استعمال كلمة « الوحش » ووجدوا فيها خشونة ، وآخرون يجدونها خليقة بسويقت ، وعلى كل فالهم رأى المجموع ، وهذا رأى هو أن الناس جميعاً يرون أنى أظهرت شجاعة » .

وهذا حقيقى فإن أصدقاء أو كونيلى ورجال الهيئة الاجتماعية لم يوافقوا على المستوى الدنى لملته ، واعتقدوا فعلاً أن دزرائيلى أظهر شجاعة ، ولكن هؤلاء الناس لا يؤلفون رأى العام . وفى إنجلترا رأى ذو القيمة هو رأى التجار من وراء مكاتب حساباتهم ورأى القسس فى قراهم ، ورأى ذلك المجموع العظيم الشديد الحذر البعيد عن الخيال الذى هو الشعب الإنجليزى ، والصورة التى بدأت تتكون لدى هذا المجموع عن هذا المؤلف السياسى عن طريق الصحف هى صورة يكرهها العقل الإنجليزى أشد الكراهية ، وهى صورة شخص كثير الضجيج والتظاهر خال من العقيدة السياسية مضحك ووقع . ومما لاشك فيه أن أوكونيل كان قاسياً ولكن كما قالت السبكتاتور مثلاً : « إن دزرائيلى رغب فى أن يبدأ حرب الشتائم مع أكبر زعيم للشتائم ، فلما جرح بدأ فى الشكوى فهو يذكرنا بالكلب الصغير الذى يضربه الجواد بحافره بعد أن ظل أميالا ينبسح ويعض حوافر هذا الجواد » . وهذه الصورة السيئة لم تكن بعد إلا شبحاً ضعيفاً غير واضح ، ولكن إذا أضيفت إلى اسم يكاد يكون غير معروف ، فإنها تصير صورة خطيرة وهى « شخصية » لشخص خيالى ، ولكنها قد تثبت على أنها حقيقة أكثر من الرجل الحقيقى ، وإذا ما تكونت حفظ رأى العام ما يتلاءم معها من الوقائع وأهمل غيرها . ولو أن الشاب دزرائيلى قابل شخصيته كما يتوهمها الإنجليزى من رجال الأعمال لدهش وأطرحها بعيداً عنه مستفظعاً محتقراً ، وكان لا يشك فى أنه قابل ألد عدو يجب عليه محاربته .

عضو في البرلمان

عاد موسم المراقص وعادت مسر أنسون بشعورها المسترسلة كأجمل الجوارى ومسر نورتون بجملها اليونانى البديع ، وعاد بنيامين دزرائيلي الشاب المتأنق الطائش الخلاب الذى يتبين شبحه المحمل بالسلاسل الذهبية من خلال نوافذ لادى بلسنجتون ، ولكنه أحيانا يشتد به الضيق لهذا القناع ويتألم كثيراً لأن يكون دزرائيلي ، وزادت لديه لحظات الصمت وصارت أكثر وقوعاً وهى مثقلة بالأفكار الحزينة ، ثم يقطعها فجأة بالسخرية اللاذعة ، وتتابع السنوات وبلغ الثانية والثلاثين من عمره وهو سن الكهولة - بالنسبة لتابع .

لم يكن يقارب بينه وبين السلطة قليلاً إلا صداقة لورد لندهرست ، فهذا العجوز الظريف المستهتر يسأله المشورة كأنه نذله . وقد اتفقا فى الأسف على الاتجاه المنحرف الذى يسير فيه پيل بالحزب ، فصار حزب المحافظين تحت أوامره جيشاً بلا إيمان لأن الزعيم نفسه من غير المؤمنين ، ورأى پيل أنه من الوجهة العملية مطالب بالدفاع عن المنشآت التقليدية فى البلاد ، وهى الملكية ومجلس اللوردات والكنيسة الانجليكانية ، بينما هو يميل من الوجهة النظرية إلى الاعتقاد بأنها مما لا يدافع عنه . وكان حزب المحافظين غنياً ويعد بين مناصريه أصحاب الغابات والقصور الريفية والمصانع ولكن ليس فيه النبوغ والمبدأ ، وتكلم پيل كثيراً عن مذهب المحافظين ولكنه لم يكن يعرف ما يريد أن يحتفظ به .

أما دزرائيلي فهو على العكس كلما فكر فى الحياة السياسية بانجلترا كلما بداه من الواجب أن يواجه الأمور بشجاعة ، فالمحافظ فى نظره ليس معناه أن يؤيد فى ابتسامة الاعتذار دستوراً خلقاً ، وإنما هو موقف شريف وخيالى ، وهو الموقف الوحيد المعقول والموقف الوحيد الذى يحسب حساب إنجلترا الحقيقية وتلك

القرى القائمة حول قصر السيد ، وهذا الجنس النشط العنيد من صغار السادة الملاك ، وهذه الأرستقراطية القديمة المحتد ، وفي الوقت ذاته ميسرة للكثيرين ، بل يحسب حساب التاريخ نفسه « فالاحترام للسوابق وهو ما تسخر به العقول المغرورة السطحية يبدو أن أساسه في الخبرة العميقة للطبيعة البشرية ، وما يجب عمله هو أن يقام المبدأ الواقعي في وجه المبدأ النظري للأحرار والنفعيين » .

فكان الجدل السياسي الحديث عنده قائماً على الفرق بين المدرسة التاريخية والمدرسة الفلسفية ، واختار هو التاريخ ، فالبلد ليست كائناً فرضياً يمكن استنتاج حقوقه بمجرد التفكير العقلي ، والأمة هي عمل فني صاغه الزمن ولها مزاج كما للشخص مزاج ، وعظمة إنجلترا بوجه خاص ليست ناشئة عن مواردها الطبيعية وهي متوسطة ، ولكنها من أثر منشئاتها وحقوق الإنجليز سابقة لإعلان حقوق الإنسان بخمسة قرون .

هذه هي الآراء التي كانت تدور عادة في خلد صاحب المذهب الشاب ، وفي سنة ١٨٣٥ نشر كتابه في « الدفاع عن الدستور الإنجليزي » في شكل رسالة إلى لورد نبيل ، وهو كتاب في الفلسفة السياسية رأى فيه خير النقاد كمال الأسلوب ونضوج الفكرة ، فقد يظهر مجلس اللوردات سخيلاً لمن لا يعترف بالتمثيل من غير انتخاب ، ولكن دزرائيلي أوضح أن هناك ما هو أخطر من ذلك الانتخاب من غير تمثيل ، فقد تستطيع عصابة من المتهنئين السياسيين أن تحمل الناس على انتخابها ثم يحكمون البلاد دون أن يكونوا صورة لإرادتها . أما مجلس اللوردات فإنه على العكس من ذلك يمثل قوات حقيقية ، فهو يمثل الكنيسة في شخص لوردات الأساقفة ، والقانون في شخص « اللورد شانسلور » والمقاطعات في شخص « اللورد لفتنانت » والأرض في شخص الملاك الوارثين . أما عن مجلس النواب فهو يود على العكس لو أنه أوسع تمثيلاً مما جاء في الإصلاح المقيد الذي وضعه الأحرار سنة ١٨٣٢ ، وقد تبين له أن واجب زعيم المحافظين هو أن تتوفر لديه الشجاعة في الدفاع عن الماضي في كل ما هو حي أو جدير بالحياة ، ولكن عليه أيضاً أن يخلص

الحزب من جميع الأوهام والمبادئ التي صارت بالية ، ثم يسير به في جرأة نحو سياسة كريمة مشربة بحب العامة من الشعب وقادرة على التسلط عليهم .
نجح الكتاب نجاحاً عظيماً ، وهمهم الدوق قائلاً : « يجب إيجاد مقعد في البرلمان لهذا الشاب » ، وكتب پيل إليه رسالة تكاد تكون ودية . أما إسحاق دزرائيلي المحافظ القديم فقد سر كثيراً وكتب إليه : « لقد حصلت الآن على ما لم يكن لك منذ عشرة أيام ، اسم في عالم السياسة ، لم ينقصك الذكاء ولكنه يطنى أحياناً لكثرة ، ولقد نبذت الأسلوب القصير الرنان الذي يدل على الجهد المتواصل وأسلوبك الآن نهر مستمر يجمع بين الفكرة والتعبير ، فيه الرجولة وفيه الرقة » ، وكتب لندهرست : « إنه ليكون من المخجل لو لم يجد له الحزب مركزاً يسمح بالانتفاع بكامل مواهبه ونشاطه وحماسته » .

نضجت الفاكهة في ذلك الوقت ولا تلبث أن تتساقط ، والواقع أن الوقت حان إذ أخذ الدائنون يضايقونه أكثر من قبل ، وصار المحضرون يصلون حتى أبواب برادنهام ، فإن تقدمه للانتخاب أربع مرات ، واتخاذة خلية مسرفة ، وتأنيقه باللباس الغالي زاد ديونه ثلاثة أمثالها ، وكان يقرض أصدقاءه عن طيب خاطر نقوداً اقترضها لهم ولا يردونها ، وفي مرة واحدة فقط في ساعة ضيق طالب دورسيه بدين عليه فأجاب : « أقسم بالله ليس لدى في المصرف فلس واحد » ، وقد قال الصدق .

مات الملك وليم الرابع في مساء ذكرى واترلو كما يموت الأسد العجوز ، وتولت العرش ملكة صغيرة في الثامنة عشرة من عمرها ، وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً جمعت فيكتوريا مجلس وزرائها لأول مرة ، ورافق دزرائيلي حتى القصر اللورد لندهرست الذي ذهب ليقدم الطاعة للملكة ، وعند العودة وصف لندهرست وهو متأثر جداً هذا الاجتماع الذي ضم أشهر رجال إنجلترا ، فوصف ذلك البحر من الريش الأبيض والأوسمة والملابس العسكرية ، فإذا فتح الباب على مصراعيه ساد

سكون عميق كسكون الغابة ، وتقدمت الفتاة إلى عرشها وسط ذلك الجمع من كبراء الكنيسة والقواد ورجال السياسة ، وقد سحر دزرائيلي بهذا الوصف ووجد فيه كل ما يحب من عظمة الحفلات وذلك الوقار البراق ، وروح الفروسية في خضوع كل ما في إنجلترا من قوة أمام امرأة ، وكم ودلو أنه أيضاً أمام ملكته ليقبل يدها الفتية ، ولكنه ليس شيئاً مذكوراً . وتمر السنون .

أدت تولية ملكة جديدة إلى حل البرلمان وإجراء انتخابات عامة ، وفي هذه المرة عرض على دزرائيلي بتأييد لندهرست أن يرشح في دوائر عدة مضمونة ، ومن بين ما عرض عليه أن وندهام لويس زوج تلك السيدة الشابة الثائرة الغزلة التي عرفها لدى أسيرة بلوار سأله إذا كان يحب أن يكون له زميلاً في مايدستون ، وهي دائرة لها مقعدان في البرلمان مضمونان للمحافظين ، والفضل في هذا العرض لمسز وندهام ، وقد ظل وقتاً طويلاً يستثقلها جداً وفي أحد الأيام دعى إلى وليمة لدى آل روتشيلد ، وسألته ربة البيت : « هل تصطحب يا مستر دزرائيلي السيدة وندهام لويس إلى المائدة ؟ » فأجاب : « أى شيء خير من تلك المرأة التي لا تطاق ، ومع ذلك فالله قدير » ثم وضع يده في جيب صدره كعادته ومشى نحو العذاب .

لكن بعد مقابلات عدة عدل عن رأيه فيها ، فهي لم تك ذكية ولا مثقفة ، ولكنها تتكلم عن الأمور في حكمة ، وآراؤها عن رجال السياسة ليست طائشة ، ورأى أكثر من مرة أن نصائحها سليمة ، وانتهى به الأمر إلى أن صار يدعى كثيراً للعشاء في المنزل الكبير الذي يملكه وندهام لويس في لندن أمام هايدبارك . ومن الواضح أن مسز وندهام كانت تهتم له وتعجب به وقد تستطيع نفعه ، وهذا مزيج يستلذه النساء في الصداقة ، وكان يغازلها مغازلة فيها شيء من الجد و شيء

من المزاح ، مما يسلي هذا الجمال الذي نضج من زمن ~~من~~ ~~من~~ في أثناء المعركة قامت نحوه بدور الأم في التعميد ، وكتب دزرائيلي لها رسائل رقيقة يعبر بها عن سروره ، إذ يرى اسميهما مقرونين في إعلان واحد ، وقد نسي تماماً كراهيته الأولى ، ولم يعد أحد يمتدحه — ولا سارة — كما تفعل

هذه السيدة ؛ ومن كتاباتها عنه : « تذكر نبوءتى ، سيصير مستر دزرائيل بعد سنوات قليلة من أعظم رجال هذا الزمن ، لأن مواهبه وتأيد أصدقاء مثل لورد لندهرست ولورد شاندوس وقوة زوجى على إبقائه فى البرلمان سيضمن له النجاح ويدعوه الناس محسوبى البرلمان » .

ويشار كها فى رأيها الحسنى عن هذا المرشح على الأقل رجل واحد ، هو المرشح نفسه ، فقد قال لناخبيه فى مايدستون : « عند ما أعود هنا وأنا نائب عنكم فلن ينظر إلى أحد منكم إلا بشىء من الارتياح وربما بشىء من الفخر » .

تم الانتخاب فى ٢٧ يوليه وانتخب لويس ودزرائيل ، وهكذا حصل دون نضال يذكر ، وفى بضعة أيام على المقعد الذى رغب فيه طويلاً ، فالحياة عجبية ، لقد هزم دائماً فى وايكومب حيث اعتقد أنه معروف ومحترم ، وهو ينتصر فجأة فى مايدستون التى لم يرها قط قبل أسبوع ، فأية طريق ملتوية سار فيها الحظ إلى أن وصل به إلى غايته ، والفضل فى مقعده لعناية الأم التى حاطته بها امرأة ضئيلة الجسم ثائرة ، والفضل فى مقابلته لسنز وندهام لويس عائد إلى صداقته لبلوار ، وهذه الصداقة نشأت من فيفيان جراى ، ولم يكتب فيفيان جراى إلا لفشله فى جريدة « مرسى » وفى مضارباته على أسهم أمريكا الجنوبية ، ودخل هذه المضاربات على أثر إقامته فى مكتب ساحة فردريك ، وأرسل لهذا المكتب ، لأن اضطهاداته فى مدرسة كوجان دلت أباه على أنه من المستحيل أن يتربى تربية جامعية ، وهكذا انتقل خطوة بعد خطوة ، فإذا عاد إلى الطفولة وجد سلسلة متصلة من الظروف حيث الحادث السىء يصير سبباً فى حوادث سعيدة ، والحوادث السعيدة تسبب الكوارث والفشل . وإنه لمن الصعب أن يستخلص المرء فى هذا الترتيب الكامل الخفى قاعدة أو قانوناً ، فكل هذا من الأسرار . صار يعتقد الحياة معجزة مستمرة وفى داخل تلك الغابة المظلمة خيط « أريانه » اللامع وهو إرادة بنيامين دزرائيل ، فقد يخطئ فى طرائق أعمالها ونتائجها ، بل هو أخطأ دائماً ، ولكنه لم يفقد قط الغاية الواضحة ولا العزيمة الصادقة للوصول إليها . ربما هذا يكفى ... بل هو يكفى

بلا شك لأن قدميه وضعتا في الركاب ، فهو بنيامين دزرائيلي عضو البرلمان ؛ عنوان جميل ومغامرة جميلة ، وبعد بضعة أشهر تصفى هذه الجماعة في إعجاب إلى جملة الرنانة وعباراته المليئة والتزاوج العجيب فيها بين الصفة النادرة والاسم القوي ، وبعد بضع سنوات يصل العضو المحترم بنيامين دزرائيلي إلى حكم المستعمرات أو الأمور المالية في تلك الامبراطورية العظيمة ، ثم بعد ذلك ...

رسالة إلى سارة دزرائيلي

مايدستون في ٢٧ يونيه سنة ١٨٣٧ الساعة ١١ .
« عزيزتي : نال لويس ٧٠٧ أصوات ، ونلت ٦١٦ صوتاً ، ونال الكولونيل تومسون ٤١٤ صوتاً ، وكاد يتم الانتخاب فأرسلت هذه الكلمة على عجل » .

ديزي

وإلى مسز وندهام لويس

برادنهام في ٣٠ يونيه

« نرجو جميعاً أن تزورينا أنت ومستر وندهام هنا بين أحراش الزان ، ولا نستطيع أن نقدم لكما غير ملذات بسيطة : مناظر طبيعية برية وقاب ودود ! وإليك وإلى زوجك احترامى » .

دز

من مسز وندهام لويس إلى ماجور إيثانز (شقيق زوجها)

« زرت عائلة مستر دزرائيلي وهم يسكنون داراً كبيرة على مقربة من وايكومب وأكثر غرف هذه الدار طولها ثلاثون وأربعون قدماً ، ولديهم عدد كبير من الخدم والخيول والكلاب ، ولديهم مكتبة غاصة بأندر الكتب . وكيف أصف الأب ؟ إنه أحب وأكمل سيد كهل قابلته في حياتي ، والآنسة دزرائيلي جميلة وذكية ، وله أخوان ، أما أكبر الإخوة وهو صديقنا السياسى الذى يدعى عادة ديزى ، فإنك ستراه كثيراً لأنك تعلم أن وندهام عمل على انتخابه معه في مايدستون » .

ومن دزرائيلي إلى مسز ادوارد بلوار ليتون

« من العجيب أن أختتم نضالى في الانتخابات بأن أصير نائباً عن مايدستون »

إننا أطفال الآلهة ولا نكون عبيداً للظروف أكثر منا في الساعة التي نعتقد فيها أننا سادة لها ، فإذا يكون المنظر التالي في مهزلة الحياة الخلابية ؟ الأقدار وحدها تعلم ذلك » .

دزرائيلي

ومن دورسيه إلى دزرائيلي

« ولتجنب الحب والدسائس ولك مقعدك الآن فلا تخاطر بشيء ، وإذا وجدت أرملة فتزوج » .

أمضى في برادنهام الأشهر الثلاثة بين الانتخاب وانمقاد البرلمان وهو في حاجة للتفكير في الماضي والاستعداد للمستقبل ، وكثيراً ما قام بنزهة طويلة سيراً على الأقدام في تلك الحقول البديعة إما منفرداً وإما مع سارة . وقد ظل الفصل جميلاً مشمساً ، والهواء معطراً بعقيق الأزهار يرن بأزيز النحل ويهزه طيران الفراش الأبيض . وكثيراً ما اخترق ممراً ضيقاً فوجد فجأة أمامه مراعى واسعة مغطاة بالحشائش في ضوء الشمس ، ومجموعة من الأشجار الضخمة وبيتاً ريفياً قديماً مغطى بالبلاب أو الأعناب المتسلقة ، فهو يعجب كثيراً بالجلوس من أجل هذه المناظر ، وفي كل من هذه البيوت سيد ضخم ذو وجه أحمر وابن له عينان رائقتان وبنات عجيبات وطاهرات ، هنا المنايع التي تستمد منها لندن قواها ، ومن هنا يأتي الرجال الذين يصونون للملكة امبراطوريتها ، وهذه العظمة وذلك الجمال هما اللذان يجب فهمهما كي يصير المرء جديراً بحكم هذا البلد . وكان بنيامين دزرائيلي وهو يتنقل بين الأشجار والأزهار يقول لنفسه ، ربما لأنه من جنس أقدم وأكثر مقاساة أحب هؤلاء الإنجليز أكثر قليلاً مما يستطيعون أن يحبوا أنفسهم .

ولكنه سوف يتألم إذ ينتزع نفسه من هذا الملجأ ، فإنه يشعر وهو وحيد بين أهله وأخته بأنه بلغ منتهى القوة وله الحق في أن يكشف عن نفسه ، ومهما قال يقابل قوله بالإعجاب ولا يضايقه عقل ضئيل ولا منافس حسود ؛ وقد احتفظ منذ عهد المدرسة بشيء من الخوف لابتداء موسم جديد ، فالموسم الجديد يقترب بفكرة

معركة تنشب ودور يمثل وخطر يقابله ، وكان جسده العصبي يطلب الرحمة ، فقد دفعه للتغلب على العقبات بغمز المهاز ، وهو لا يخلو من قلق أو تعب . وهذه المرة خاصة وهو يسهر على أسلحته البرلمانية ساءل نفسه : ماذا تكون عليه هذه المدرسة الجديدة وهؤلاء الرفقاء المهاجون ، وأى بحر يواجهه بعد الخروج من هذه الميناء الهادئة ؟

القسم الثاني

لأن يصبح الرجل ملكاً أو سائلاً فستكون له دائماً
تلك العينان السوداوان أو الرماديتان ، وذلك الفم الحذر
أو الفضاح ، وتلك اليد نفسها ، فبين هذا الإصرار من
الطبيعة في كل منا ، وبين هذه المصادفات المختلفة في غير
ما تناسب ، يمر تاريخنا كأنه صفحة بين أسطوانتي مطبعة
تتلقى الحروف في كل لحظة من الجانبين ...

وهكذا ولو أننا لا نستطيع تغيير الطبائع كما لا نستطيع
تقويم الشعور المجمعة ، إلا أنه يمكننا الاعتماد على الطبائع ؛ بل
نذهب إلى أبعد من هذا فنقول : بما أننا لا نستطيع تغيير
الطبائع فإننا نستطيع الوثوق بها ، ومن ينحدر إلى عمقها
يلمس الصخر ، فقوة قيصر أو الاسكندر مثلاً قامت
بلا شك خاصة من ميلهما للاختلافات ، وأنهما لم يلوما
شجرة الكمثرى أن لم تخرج برقوقا .

« أورد »

والتاريخ

والتاريخ هو العلم الذي يبحث في
أحداث الماضي وتطور المجتمعات
والثقافات المختلفة عبر الزمن
والتاريخ يساعدنا على فهم
السياق الذي نشأ فيه مجتمعنا
والقيم التي تحكم سلوكنا
والتاريخ هو علم حي يتطور
مع اكتشافاتنا الجديدة

والتاريخ هو علم حي يتطور
مع اكتشافاتنا الجديدة
والتاريخ هو علم حي يتطور
مع اكتشافاتنا الجديدة
والتاريخ هو علم حي يتطور
مع اكتشافاتنا الجديدة
والتاريخ هو علم حي يتطور
مع اكتشافاتنا الجديدة

خطبة الاستهلال

من المحتمل أن يعتقد أهل برادنهام أن إنجلترا بأسرها تتكلم في دخول بنيامين دزرائيلي إلى البرلمان ، وأما لندن فالحديث فيها يدور عادة حول الملكة الفتيّة وحذقها في التصرف وذكائها ، والود الذي تجوبه لورد ملبورن رئيس وزرائها ويتحدث الكثير من الناس عند عودتهم من أجازاتهم عن سفرهم الأول في السكك الحديدية وشعورهم بحاسة الخطر ، ثم تناسيهم هذا الشعور .

عاد دزرائيلي على الأثر إلى آل وندهام لويس « زملائه » ، ودعته مسز وندهام الفخورة بحمايتها له إلى شرفة دافئة في المسرح لرؤية كين ، وذهب إلى لندهرست ليتلقى تهنيئته ثم ليهنئه بدوره ، فإن هذا العجوز المتين تزوج من فتاة صغيرة وصار لا يتكلم إلا عن رغبة في ولد ، ثم أخذه وندهام لويس إلى البرلمان .

لما كان قصر وستمنستر القديم قد احترق جزئياً عقد اللوردات والنواب اجتماعاتهم في قاعات مؤقتة وهي تضيق بهم شيئاً ما ، ولكن دزرائيلي استطاع أن يحجز لنفسه مقعداً خلف زعيمه سير روبرت پيل مباشرة ، وأظهر له سير روبرت الود ، ودعا العضو الجديد إلى الاشتراك في غداء صغير يوم الخميس التالي بنادي كارلتون « وهو غداء قاصر على أعضاء مجلس النواب وحدهم ، ولا تنتهي منه حتى نكون نحن قد عرفنا شيئاً عن نفسية هذا المجلس » ، ولاقت « نحن » هذه قبولا ، وقال وندهام لويس لزوجته عند عودته : « لقد أمسك پيل بيد دزرائيلي في أوضح مظاهر الود » .

صار من الواضح إذ أخذت الأصوات لأول مرة أن وزارة لورد ملبورن من « الهويج » ستبقى في الحكم بتأييد الأيرلنديين لها ، وظل دزرائيلي أسبوعين يتفرج على المناقشات ولا ينطق ، وبه رغبة شديدة إلى الكلام إلا أن الخوف الشديد استولى عليه

وحوله رجال عظماء ، ففي مواجهته على مقعد الوزراء وأمام الصندوق الأحمر الرسمي يجلس لورد جون رسل زعيم « الهويج » ، وهو يبدو ضئيلاً جداً في ثوب الريدنجوت الأسود القديم الزى ، وقد اختفى نصف وجهه تحت قبعة ذات إطار عريض ، وله مظهر حزين ، ولورد جون هو الرمز الحقيقي لحزبه ، وهو يقدم أجراً الآراء في أسلوب من أقدم الأساليب ، ويلفظ كلمة الديمقراطية بصوت فيه نغمة الأرستقراطية . وعلى مقربة من لورد جون يجلس لورد بلهرستون وزير الخارجية وقد غطى جانب خديه بشعر فوديه بعد أن صبغه ومشطه بعناية ، وهو بلهرستون الذي وصفه جراثيل بقوله : « إنه يشبه جارف النقود وقد هرم واعتزل العمل من أما كن القمار ببادن » ، ويرى « الهويج » أنه غير مهذب لأنه لا يظهر الاحترام للتاج وهو مظهر حافظ عليه « الهويج » دائماً حتى وهم يعزلون ملوكاً عن عرشهم . وأقرب إليه بعد المنضدة الضخمة التي تفصل بين الوزراء والمعارضة يرى سير روبرت پيل بجثته العظيمة ، ويرى جانباً من وجه لورد ستانلي بأنفه الدقيق المقوس وفمه الحساس وشعره المجعد المنتفش بعض الشيء ، وهو ذلك اللورد الأبى الذكى الذى يلبس ثيابه فى إهمال متعمد يصح أن يتلقن منه ديزى درساً ؛ وعند مدخل الباب بين المستقلين يجلس صديقه بلوار ، وفى وسط عصابة الأيرلنديين يجلس عدوه اللدود أوكونيل .

بعث فيه الاضطراب أيضاً ذلك المزيج فى هذه الجمعية بين عظمة طقوسها وإهمال قواعد اللياقة فيها ، فلا أحد فيها يصغى واللفظ كثير أثناء الخطب ، ويدخل النواب ويخرجون بلا انقطاع ، ولكن رئيس المجلس يلبس الرداء والشعر المستعار والحجاب يدخلون وهم يرفعون عصا السلطة ، ولا يشير أحد إلى زميل إلا بقوله السيد المحترم ، كل هذه التفصيلات الصغيرة سرّاً لها كثيراً هذا الحدث الذى ظل طويلاً يلاحظها من الخارج ، وكان على ثقة بأنه فى اليوم الذى يبدأ فيه الكلام لن يرتكب خطأ ، يوجه الكلام لرئيس المجلس وحده حسب الاصطلاح المتبع فى ذاك المكان ويدعو كل نائب من المحامين « السيد المحترم العالم » ، وكل نائب

من الضباط « السيد المحترم الجرى » ، وسير روبرت پيل « البارونيت المحترم » ، ولورد جون « اللورد النبيل المعارض » ، ومن ذلك العهد صبت أفكاره في قالب التعبيرات البرلمانية ، وإذا ما صار وزيراً قرع الصندوق الأحمر بقبضته في عظمة وفي آخر الخطبة من خطبه التي تقابل بالتصفيق يتهالك في غير عناية على مقعد الخزينة ويمسح شفتيه بمنديل من التيل الفاخر ، ولكن منذ قاس عن قرب ذلك الركود القوى في هذا الجسد الكبير امتزج تعجله بشيء من القلق .

في معرض إثبات صحة نيابة أعضاء المجلس ثارت مناقشة في شأن اكتتاب افتتحه رجل يدعى مستر سبوتسوود يرمى به إلى إمداد المرشحين البروتستانت بالأموال اللازمة لمقاومة الكاثوليك في أيرلندا ، لم يقتصر الاستياء من هذا الاكتتاب على الأيرلنديين وحدهم بل شاركهم في ذلك الأحرار الذين رأوا أنه يتعارض مع حرية الناحيين ؛ تكلم أوكونيل في حماسة عن هذا الموضوع فما انتهى حتى وقف دزرائيلي في مكانه ، كان من المتفق عليه أن يرد لورد ستانلي نيابة عن المحافظين ، ولكن دزرائيلي ذهب إليه وسأله أن يسمح له بالكلام قبله ، دهش ستانلي ولكنه لم يهتم كثيراً وسمح له بذلك .

تطلع الأيرلنديون والأحرار في فضول للخطيب الجديد الذي وقف أمامهم ، وقد سمع الكثيرون منهم أنه أفاق ، وأنه من المستقائين ، ثم تحول محافظا ، وأنه ملفق روايات وخطيب مزخرف العبارة ، ومن المعروف أنه حدثت بينه وبين أوكونيل مشادة عنيفة من قبل ، فتجمعت عصبية قوية من أصدقاء أوكونيل بمجرد أن وقف دزرائيلي ، وفي مقاعد المحافظين فخص السادة الريفيون بشيء من القلق هذا الوجه الذي هو بلا شك غير إنجليزي السحنة ، وتضايقوا لمنظر لفائف شعره وملابسه وقد ارتدى سترة خضراء فاقعة وصداراً أبيض مغطى بالسلاسل الذهبية ، (وقال له بلوار ذات مرة لم تكثر من السلاسل يا ديزي هل تتمرن على أن تكون محافظا لمدينة لندن أم ماذا ؟) ، وفي عنقه رباط كبير أسود يزيد في امتقاع لونه ، وكان شديد

الانفعال ، فهي لحظة خطيرة وهو يلعب دوراً كبيراً ، وعليه أن يظهر للأحرار خسارتهم له ، ويظهر للمحافظين أن بينهم زعيماً من زعماء المستقبل ، ويظهر لأوكونيل أنه حل وقت التكفير عن خطيئته ، ولديه ما يبعثه على الثقة في نفسه ، فإن خطبته أعدت بعناية ، وهي تحتوى على عدد من العبارات ذات تأثير مؤكد ومن تقاليد البرلمان أن تقابل خطب المبتدئين بالرفق ، ويقال عادة للمبتدئ إن خطبته « هي خير خطبة استهلالية منذ خطبة بيت » ؛ فمثلاً جلادستون الشاب الذي وجده دزرائيلي في مقاعد النواب عند ما تكلم لأول مرة منذ خمس سنوات بين العطف العام كتب في مذكرته اليومية : « تكلمت لأول مرة مدة خمسين دقيقة وأصنئ إلى المجلس في عطف شديد ، ورضى أصدقائي عني ، ثم أخذت للشاي في نادى كارلتون » ، لكن جلادستون خريج إيتون وأكسفورد ، له وجه جميل إنجليزي السحنة ، ذو ملامح بارزة ومألوفة وثياب داكنة وحركات وقورة .

أحدث صوت دزرائيلي المتصنع دهشة مشوبة بعدم الارتياح ، حاول دزرائيلي أن يثبت أن الأيرلنديين وأوكونيل بوجه خاص استفادوا هم أنفسهم من اكتتابات مماثلة ، أو على قوله : « من هذه الشحاذة الفخمة » . كان المجلس يمتد العبارات الرنانة ، وسمع ضحك مكتوم ، فاستمر في خطبته قائلاً : « لا أزعج بأني غير شاعر بصعوبة موقفي (يتجدد الضحك) ، ولكنى واثق من السادة المحترمين (ضحك وأصوات تقول إلى الموضوع !) أوكد لهم أنهم إذا لم يريدوا سماعي فإنى سأجلس من غير تملل » ، (تصفيق وضحك) . وبعد لحظة من هدوء نسبي جاءت في خطبته عبارة جمعت فيها الألفاظ جمعاً يبعث على الدهشة ، فثارت العاصفة وارتفع الصفير من جماعة الأيرلنديين ، وأخذوا يضربون الأرض بأقدامهم ، ويقلدون أصوات الحيوانات . حافظ دزرائيلي على هدوئه واستمر ، « إنى أريد حقاً أن أحمل المجلس على أن يمنحنى خمس دقائق أخرى (ضحك شديد) ، فإنى أقف الليلة هنا يا سيدي لا بصفة رسمية ، وإنما بصفة واقعية لحدّ ما ، فمثلاً لعدد كبير من أعضاء البرلمان

(ضحك جنوني وعام) ، لم تبتسمون ؟ (ضحك) لماذا تحسدونني ؟ (ضحك صاحب وعام) « .

من هذه اللحظة بلغت الضجة حداً كبيراً حتى لم تسمع غير بضع عبارات « سيدى . فى اللحظة التى أعلن فيها ناقوس كنيسةنا الكبرى خبر وفاة الملك ، (صياح .. أوه ! أوه ؟ وضحك كثير) ، قرأنا عندئذ يا سيدى (ضحجج وصيحات . أوه ! أوه ! ..!) إذا كان السادة المحترمون يرون من العدالة مقاطعتى فإنى أسلم لهم (ضحك شديد جداً) ، إنى لن أسلك مثل هذا المسلك نحو أحد ، هذا كل ما أستطيع قوله ، (ضحك) ولكنى أريد ببساطة أن أسأل .. (ضحك) ليس شىء أمهل من الضحك (ضحك شديد) عند ما نذكر أناشيد الغرام (ضحك شديد) ذلك الغرام القديم والجديد الذى تبادله اللورد النبيل « تيتروس » مقاعد الوزراء ... (ضحك شديد) ، وعند ما نذكر فى الوقت ذاته أنه بين أرلندة المتحررة وإنجلترا المستعبدة يجلس هذا اللورد النبيل فى هدوئه فوق منصة السلطة وهو يستطيع أن يمسك فى أحد يديه مفاتيح القديس بطرس ويحرك فى الأخرى ... (هنا قوطع النائب المحترم بضحك شديد مستمر حتى صار من المستحيل معرفة كيف أتم هذه العبارة) . عند ما سكت الضحك استمر قائلاً .. نرى هنا يا سيدى الرئيس التعصبات الفلسفية للناس (ضحك وتصفيق) إنى أحترم التصفيق حتى ولو جاء من الخصوم (ضحك) وإنى لأعتقد يا سيدى (صياح إلى الموضوع) إنى لا أعجب يا سيدى للمقابلة التى قوبلت بها (ضحك) فكثيراً ما أعدت من جديد أشياء (ضحك) وكثيراً ما أنهيت إلى النجاح (صياح . حقاً ! .) ، ثم فى صوت شديد وهو ينظر فى غضب نحو مقاطعيه ، وقد رفع يده وفتح فاه على سعته ، وصاح وقد انقلب مرعبا وتغلب فجأة على الضجيج « إنى أجلس الآن وسيأتى الزمن الذى تصغون فيه إلى » .

سكت وخصومه لا يزالون يضحكون وأصدقاؤه ينظرون إليه فى دهشة وحزن وفى أثناء هذا العذاب كله أيدى رجل واحد فى ثبات ، وهو البارونيت المحترم سير روبرت پيل ، وليس من عادة سير روبرت أن يجهر بتأييد خطباء حزبه ، فهو

يصغى إليهم في سكوت يكاد يكون عدائياً . ولكنه في هذه الفرصة تلفت عدة مرات نحو الخطيب الشاب وهو يقول : اسمعوا ! اسمعوا ! في صوت قوى ، وعند ما التفت نحو القاعة لم يستطع إلا أن يبتسم قليلا .

وقف لورد ستانلي محتقراً ما حدث ، ولم يقل كلمة واحدة عن هذه المقابلة الغريبة التي قوبل بها زميل له بل تناول الكلام عن الموضوع في جد وأصغى إليه المجلس في احترام ، وأسند دزرائيلي رأسه إلى يده وهو صامت وحزين ، فهذا هو الفشل مرة أخرى ، وهذا هو الجحيم ، لم يحدث قط منذ تتبع مناقشات مجلس النواب أن رأى مثل هذا المنظر غير المشرف ، هل يبتدىء من جديد في البرلمان حياة مثل حياته في مدرسة كوجان ؟ وهل يجب عليه هنا أن يناضل أيضا ويعادى وهو يرغب كثيراً في أن يُحِبَّ ويُحَبَّ ؟ لماذا تتعقد له الأمور أكثر مما تتعقد للآخرين ؟ ولكن لماذا تحدى في خطبته الأولى أو كونييل وعصابته ! يصعب عليه الآن أن يسبح مقاوماً التيار ، ولكن هل يستطيع ذلك أبداً ؟ لقد فقد مكانته كلها في هذا المجلس ، استعاد في حرارة الصورة التي رسمها عن هذه البداية ، فقد تخيل مجلساً أسر بعباراته وسحر بخيالاته وخبب بلواذع نكاته ثم التصفيق المستمر والنجاح التام لساعته وهذه الصيحات المهينة والفشل آه لو يلجأ إلى أشجار برادنهايم .

اضطره إعطاء الأصوات لأن يقف ولم يصغ إلى المناقشة ، وسعى إليه لورد شاندوس الطيب القلب يحمل التهاني ، فأجابه أن ليس هنالك موضع للتهنئة ، وتتم قائلًا : « إنه لفشل » ، ولكن لورد شاندوس قال : « كلا ! مطلقاً ! إنك مخطئ » ، لقد رأيت پيل الآن وسألته : أصدقني الآن ما رأيك في دزرائيلي . فأجابني ، إن بعض أصدقائي شعروا بخيبة وهم يتكلمون في فشله ، ولكني أقول عكس ذلك تماماً فإنه فعل كل ما يمكن فعله في مثل هذه الظروف ، فأنا أقول كل شيء إلا أنه فشل ، ويجب أن يشق طريقه .

استوقفه النائب العام من الأحرار في طرقات البرلمان وسأله في ود . . والآن

يا مستر دزرائيلي هل تستطيع أن تخبرني كيف أتممت إحدى عباراتك في خطبتك فانا نود أن نعرف تكملة قولك . في يد مفاتيح القديس بطرس وفي الأخرى ؟...»
فاجاب : « وفي الأخرى قبعة الحرية ياسير جون ... » ، فابتسم محدثه وقال « صورة جميلة » ، فأجاب دزرائيلي في شيء من المرارة « نعم : ولكن أصدقاءك لا يسمحون لي بإتمام صوري » ، فقال النائب العام « ولكنني أؤكد لك أن رغبتنا في الإصغاء إليك كانت شديدة جدا ، وإنما هي ضجة فئة صغيرة عند الحاجز لا سلطان لنا عليها ، ولكن ليس هنالك ما تخشاه » .

ما هذا ! إذن أثر الفشل الذي لا مرد له لم يكن قويا كما هو لديه ؟ ومثل الكثيرين من الرجال الخاضعين لأعصابهم استرد دزرائيلي ثقته بنفسه في السرعة التي فقد بها هذه الثقة ، وأخذت سحابة اليأس تنقشع عن نفسه ، وفي اليوم التالي وهو يكتب إلى سارة عن الكارثة أخذ يتحدث من اتساعها « حيث أريد أن أعطيك فكرة صادقة عما حدث ، فأقول لأول وهلة إن بدايتي كانت فشلا حتى أنني لم أنجح في أن أجِد فرصة لقول ما أردت قوله ، لم يتسبب هذا الفشل عن انهيارى أو عجزى ، وإنما عن مجرد القوة العملية لخصومي ، لا أستطيع أن أصف لك الحد الذي وصلوا إليه ، كانوا شديدي الوطأة متحزبين وظالمين ، وقتلت طول الوقت في قوة لا تفنى وهدوء لا يتزعزع ، وأنزلت بهم ضربات جيدة هنا وهناك عند ما يسود الصمت ، وانتهيت بحماسة عندما تبين لي أنه لم يبق ما أفعله » ، ووقع على هذه الرسالة « أخوك د . وهو رضى النفس » .

في اليوم ذاته عندما دخل بلوار إلى نادى أثينيوم رأى « شيل » الكهل والنائب الأيرلندي الشهير ومساعد أوكونيل يحيط به جماعة من الشبان الراديكاليين ، وهم مسرورون لما حدث لدزرائيلي ، وافترب منهم بلوار وظل صامتا ، وعلى حين فجأة رمى « شيل » جريدته وقال لهم في صوته النافذ : « الآن أيها السادة سمعت كل ما قلموه ، وفوق ذلك سمعت خطبة دزرائيلي ، وأقول لكم

هذا : إنه إذا كانت روح الخطابة موجودة في رجل فهي في هذا الرجل ، وليس هنالك ما يحول دون أن يكون من خيرة الخطباء في مجلس النواب ، إنى أعرف الكثير من أمر هذا المجلس ، وأقول لكم أيضاً إنه من غير هذه المقاطعة قد يفشل مستر دزرائيلي ، وإنى لا أسمى حادث الأمس فشلاً ، وإنما هو صدمة . وإن خطبتي الأولى تعتبر فشلاً ، لأن الأعضاء أصغوا إليها ، ولكننى عوملت بازدراء في حين أنه قوطع مقاطعة شريرة ، ويجب أن تكون خطبة البداية مملة ، فمجلس النواب لا يسمح للرجل أن يظهر الذكاء وقوة الخطابة في آن واحد دون أن يترك للمجلس فضل اكتشاف هذا الأمر .

أحدثت هذه الخطبة القصيرة من خصم دهشة ، وتفرق الشبان في شيء من الخجل ، واقترب بلوار وقال لشيل : « سيتعشى دزرائيلي معى في هذا المساء ، فهل تحب أن تقابله ؟ » ، فقال شيل : « إنى شديد الرغبة في رؤيته بالرغم من إصابتي بالنقرس لى أخبره برأى فيه » ، وكان شيل في وقت العشاء ساحراً وانتحى بدزرائيلي جانباً وأخبره أن هذه المقابلة الصاخبة هى فرصة عظيمة له ، وقال : لو أنهم أصغوا إليك فما هى النتيجة ؟ إنك تلقى أحسن خطبة في حياتك وتقابل بيروود فتياًس من نفسك ، ولكنك على العكس أظهرت للمجلس أن لك صوتاً جميلاً ، وذلاقة في القول ، وشجاعة وشخصية وحياة ، والآن عليك أن تتخلص مدة دورة برلمانية من نبوغك ، وتتكلم في فرص كثيرة ، إذ يجب ألا تظهر بمظهر الخائف ، ولكن تكلم في اختصار ، وكن هادئاً جداً ، وحاول أن تكون مملاً ، وناقش الأمور مناقشة غير كافية ، لأنك إذا ناقشتها بدقة ظنوا أنك تحاول إظهار الذكاء ، واعمل على إثارة دهشتهم بأن تتكلم في المسائل التفصيلية ، واذكر الأرقام والتواريخ ، فلا يمضى وقت حتى يتنهد المجلس على الذكاء والفصاحة التى يعرفون أنك تملكها ويشجعونك على استعمالها ، وحينئذ تتملك آذان هذا المجلس وتصير محبوباً لديه .

هذا الحديث الذكى الذى يدل على معرفة عميقة بالإنجليز أضاء المستقبل

لذرأئيلي ، وليس هنالك من يقدر مثله على فهم هذه النصيحة واتباعها ، فهو
يكيف نفسه كالتحفة الفنية ، وهو دائماً على استعداد لأن يعدل من صورة
نفسه ، وقد ارتكب مرة أخرى الخطأ الذي أنبه أبوه عليه ، وهو التعجل
والرغبة في الشهرة السريعة ، ولكن يجب أن يعرف كيف يتقدم في بطاء .

بعد ثمانية أيام من ذلك اليوم ، وقف وسط مناقشة عن حقوق المؤلفين ،
وقد استعد جميع الأعضاء لمقابلته مقابلة حسنة ، واتفق المحافظون والأحرار على
فكرة واحدة ، هي أن ذلك الرجل عومل معاملة ظالمة ، وليس ذلك مما يروق
لديهم ، فهم رجال صيد وقنص ، ويحبون أن تتاح الفرصة للخطيب كما تتاح
للفريسة ، وظل عالقاً في أذهانهم من تلك الجلسة الفظيعة شعور الخجل ، وصاروا
ميالين لتأييد هذا الشاب الغريب الأطوار إذا جراً على محاولة أخرى ، وسيحتملون
حتى عباراته المنمقة جداً وخيالاته العجيبة . ولكن مما أثار الدهشة العامة
أنه لم يقل غير الشيء العادي الواضح عن موضوع يعرفه جيداً ، وجلس بين
الرضا العام . وأجاب صاحب المشروع بأنه سيحسب حساباً كبيراً للملاحظات
القيمة جدا التي أبدتها نائب مايدستون المحترم ، وهو من خيرة الأزاهير التي
يتحلى بها الأدب الحديث ، وأبدى سير روبرت پيل رضاه الشديد بقوله :
« اسمعوا ! اسمعوا » ، وهنا كثيرون من الأعضاء دزرأئيلي ، وجاءه كولونيل
قديم من المحافظين ، وقال له بعد همهمة ودية : « لقد عدت إلى الجلوس ثانية
على ركابك ، والآن تستطيع أن تستمر في السير » . وكتب دزرأئيلي إلى سارة
يقول : « في المرة القادمة سأجلس بين التصفيق الشديد » .

بدلاً من أن تكون تلك البداية المحزنة مضرة به ، فإنها جعلت له مكانة
الضحية ، وفي ثلاثة أسابيع حصل في ذلك المجلس الصعب على نوع من الشهرة ؛
فهو شجاع حسن الحديث ، ويظهر أنه على معرفة تامة بالموضوعات التي يعالجها ،
وكان السادة الإنجليز يفكرون « ولم لا ؟ »

زيجات

صار نجاح دزرائيلي مؤكداً في المجلس منذ يناير ، وقد أمضى فترة الانتظار والمحافظة على الجد الممل التي وصفها شيل ، وكما تنبأ هذا ود الجميع لويعود خلافاً ، وروى أخوه جيم عند عودته إلى برادنهام ، بعد أن حضر إحدى جلسات المجلس كيف أنه بمجرد وقوف « بن » عاد النواب مسرعين إلى مقاعدهم وكيف ساد الصمت العميق لسماعه ، وأصغى إسحق العجوز إلى هذه القصة في تأثر ، وتمت سارة : « لبياركك الله أيها العزيز » ، فإنها اعتقدت دائماً أن أخاها رجل عظيم .

حملت السياسة دزرائيلي على تخفيض قسطه من الحياة الاجتماعية ، ولقد تغيرت على كل حال حياة الكثيرين من أصدقائه ؛ فعائلة بلوار البراقة والهشة تكسرت ؛ إذ ذهب بلوار بزوجه إلى إيطاليا محاولاً التقارب بينهما ، ولكن في نابولي فكر في موضوع رواية هي : « آخر أيام بومبي » ، وأخذ في كتابتها ، وأهمل روزينا كما كان يفعل في لندن ، ووجدت المسكينة نفسها مهجورة في هذه البلدة الغريبة ، ومحرومة حتى من كلابها المحبوبة ، فسمحت لأمر إيطالي بالتودد إليها ، وهب بلوار من أحلامه إلى الغضب لهذه الحقيقة ، وبعد حادثين مؤلمين أو ثلاثة اضطر للانفصال ، ولم تعد روزينا المسكينة المتألمة ترى أصدقاء زوجها إلا للشكوى منه ، وشعر بلوار بتأنيب الضمير ولم يعد سعيداً ، ووجد دزرائيلي في ذلك حججاً لتأييد عدم إيمانه بالزواج عن حب .

وفقدت كارواين نورتون الجميلة مرحها أيضاً ، فإن زوجها البغيض بعد أن استفاد من صداقة لورد ملبورن لزوجه ، أقام عليهما قضية متهماً لهما بالزنا واستطاعت زوجته أن تثبت أنه قاده بنفسه مئات المرات حتى باب الوزير ،

وبرأها المحلفون ، ولكن نورتون مع ذلك هجر زوجته وأخذ معه أطفاله ، ولا يسمح القانون الإنجليزى لمسز نورتون بمحضاتهم ، فأخذت ترجو صديقها بلوار ودزرائيلي فى أن يعمل على تعديل القانون ؛ وفى الشقة الصغيرة فى « ستورى جيت » لم تعد الشرفة ذات الأزهار والستائر من المسلمين تسمع غير الشكوى والرجاء ، فقل عدد الزائرين .

ولا زال دزرائيلي يتردد على لادى بلسنجتون فى بعض الليالى التى لا يجتمع فيها البرلمان ، وفى ذلك البيت أيضا أظلمت الصورة ، فإن دورسيه زاد فى الترف وبالغ فى الإنفاق والقمار حتى أعوزته النقود ، وكثيراً ما يقابل الزائرون دائنيه أمام الباب ، والبيت الوحيد الذى ظل هادئاً يرحب بضيوفه ، هو بيت وندهام لويس ، وليس لمسز لويس رقة الأخوات حفيدات شريدان وذكاؤهن ، ولكن ربما أن عضواً شاباً فى البرلمان كبير المطامع شديد الحساسية يكون فى حاجة أكبر إلى العطف منه إلى الرقة ، فهذه الصديقة ثمينة لدزرائيلي .

فى ذات صباح بعد نحو ستة أشهر من دخوله إلى البرلمان ، جاءه الخبر بوفاة زميله نجاة فأسرع إلى الأرملة ووجدها فى أشد التأثر .

رسالة من دزرائيلي إلى مسز وندهام لويس :

« من الطبيعى بعد الامتحان القاسى الذى مررت به أخيراً ، أن تستسلمى لعواطف الوحدة والحزن ، هذا طبيعى ولا بد منه ، ولكن يجب ألا ترضخى لهذه العواطف ، ويجب أن تحاولى الابتعاد عن التفكير دائماً فى الماضى ؛ فقد يكون المستقبل مليئاً لك بالسعادة والأمل أما من جهتي فأنى أقول إن الآلام التى مرت بك والصفات الممتازة التى احتملت بها هذه الآلام ، وأعترف لك بأننى لم أكن أتوقعها ، وثباتك وطيب خلقك ، ستجعل منى صديقاً وفيّاً لك ، ويمكنك أن تعتمدى علىّ بقدر ما تنفع نصائحي وتأيدى وصحتي لك فى تعزيزتك » .

والواقع أنه استمر على التردد عليها في إخلاص ، وأخذت روزينا بلوار صديقة هذا البيت تتبع في احتقار وقلق تلك الزيارات المتكررة من صديق الزوج السابق ، واعترفت ماري آن لها بأن دزرائيلي يميل إليها ميلاً أكبر من مجرد الصداقة ، وقد تعلمت روزينا الارتياح في رجال الأدب ، فنصحت لها بأن تكون على أشد الحذر . وعند تنويع الملكة أهدى كل نائب نوطاً من الذهب على سبيل التذكار ، فأهدى دزرائيلي نوطه لمسز وندهام لا سارة .

أخذت العبارات التي يختتم بها رسائله تزداد اشتعالاً فمن « صديقك الودود » انتقل إلى « استودعك الله وإني لسعيد لو تكونين كذلك » ، ومما هو جدير بالاعتبار أنه بدأ يشركها مع سارة في تلك القصص ذات الفخر المكشوف عن نجاحه ، وأمامها يرفع النقاب ويلقي الترس « جميع صحف المحافظين والأحرار في لندن تكلمت عن خطبتي الأخيرة وامتدحتها كثيراً » ... « يقيم لورد شاندوس وليمة كبيرة لدوق أوف ولنجتون وجميع المدعوين هم على الأقل وزراء ، وأظنك تتعجبين عندما تعلمين أنني دعيت معهم ، لكن شاندوس صديق وفي ، وهو يفخر بنجاحي في البرلمان ... »

« تقيم عائلة لندندري وليمة دعت إليها مائة وخمسين من نخبة أهل لندن . وكانت « فاني »^(١) وفية فدعتني ولذلك ترين اسمي في « المورننج بوست » وهذا عمل من أرق ما يكون ، لأنه لم يك منظوراً بأي حال . . » وأرسل وصف الغرف المزدانة بأشجار البرتقال والموائد المغطاة بالبلور الفاخر ، وسمك السلمون المقدد والبطارخ والكبد السمين ، لكل من سارة ومسز وندهام لويس ، وقد بدأت تؤلف جزءاً من العائلة .

هل بدأ يفكر في الزواج ؟ إنه لم ينس نصيحة الكونت دورسيه : « إذا وجدت أرملة فتزوج . . . » ولكن لم يكن ليتجاهل الاعتراضات ، فهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وهي في الخامسة والأربعين ، وليس لها مركز في الهيئة

(١) فرنسيس آن ليدى لوندندري

الاجتماعية كبير كمر كزه ، وربات البيوت اللاتي تتنازعن دزرائيلي لا يتحمسن لمارى آن ، وفيما يتعلق بالثروة ؟

ترك وندهام لويس لامراته حق استعمال منزله في « جروفرجيت » لمدة الحياة ، ودخلا يبلغ نحو أربعة آلاف جنيه ، وهو كاف للمعيشة وللقيام بواجبات الضيافة ولكنه ليس بالثروة الكبيرة ، ولم يكن هنالك رأس مال آخر في بديون دزرائيلي وهذه الثروة فوق ذلك لا تورث ، وبما أن مسز وندهام هي أكبر الاثنين سنًا ، فإن دزرائيلي معرض جداً لأن يجد نفسه في منتصف مجرى حياته مضطراً لهجر بيته وطريقة معيشته ، ثم إن ماري آن ليست بالمرأة المثقفة ، والناس يرونها مضحكة شيئاً ما ، ويقال إنها لا تتذكر قط أيهما ظهر قبل الآخر : اليونان أم الرومان ، وبعد حديث أمامها عن « سويقت » ، سألت عن عنوانه كي تدعوه للعشاء ، ويرى النساء الأخريات أنها غبية طائشة تتكلم كثيراً وفي ضجة مخيفة ، وهي صريحة إلى درجة الحماسة ، وذوقها فيما يتعلق بالأثاث والملابس عجيب وكريه ، ومن المستطاع لدى أديب شاب ووزير من وزراء المستقبل أن يجد أصلح منها .

لكن دزرائيلي لا يرى هذا ، فهو على غير ما يراه أهل المجتمعات لا يراها غبية ، حقيقة هي جاهلة ولكن ماذا يهم ذلك ؟ لقد رآها وهي تعمل أثناء انتخابات عدة ، وهي تفهم الرجال وحكمها سليم ، وتعمل عملها كاملاً وعلى خير وجه ، فهي رفيق ناصح ، وأحاديثها الطائشة تسلي دزرائيلي وتريحه . فله صديقات كثيرات من البارزات ، ولا يرغب في أن يرى نفسه في بيته مضطراً لتحمل هجمة من هجمات الذكاء ، وماري آن تعجب به ، وقد شعر بأنها لا تعيش إلا من أجله ، وفي لحظات الانقباض وهي كثيرة لديه يكون في حاجة إلى من يعزیه فقد تألم من بداية حياته الصعبة أكثر مما ينم عليه مسلكه وبروده شيئاً ما . وقد رغب منذ أمد بعيد في أن يجد سارة أخرى تكون له زوجة فضلاً عن أخت ، ويشعر بعض الرجال بالحاجة إلى الاحتفاظ باستقلالهم من أجل المغامرات الخيالية ، أما دزرائيلي

فحاول الغرام ووجد للحال أنه يتعارض مع الطموح وأن ملجأ العاطفة المستمرة أكثر إغراء .

كان دائماً سريع الاندفاع ، فبمجرد أن وجد في ماري آن الزوجة التي يرغب فيها ، قال لها ذلك ولم يقابل هذا الإعلان منه مقابلة سيئة ، فهي تحترم مواهبه أكبر الاحترام ، ولها كل الثقة في مستقبل حياته ، ولكنها رغبت إليه في هدوء وفي اعتدال أن تتاح لها فرصة التفكير ، وطلبت منه سنة لتدرس أخلاقه .

كان البرلمان في عطلة ، وبرادنهام هادئة مزدهرة ، وذررائيلي عاشقاً ، فأخذ في تأليف مأساة ، وصار يخبر ماري آن يوماً فيوماً بما يتم في أمر مؤلفه وفي أمر حبه : « إني أتقدم تقدماً سريعاً ظاهراً ، وإنك لتعلمين أني لا أطمئن لنفسي في مهولة ، وليس من عادتي أن أتكلم عن مؤلفاتي في رضا ، فتستطيعين أن تصدقيني بأن عملي الحالي يتجاوز كثيراً ما كنت أنتظره . . . لم يبق هنا إلا القليل من الأزهار ، ولكنني أرسل لك بعض أزهار البسلة » .

كتب بعد أربعة أيام : « أكتب إليك وأنا في صحة جيدة ونفس راضية ، والعمل يسير سيراً حسناً ، وإني مرتاح لما قت به أنظر إلى ما ألفته فأجده جيداً ، فالصحة والعقل الرائق وحبك الغالي لدى — إني لأشعر بأنني أستطيع افتتاح العالم » .

بعد ستة أيام : « لا أستطيع الجمع بين فكرة الحب وفكرة الفراق ، ففكرتي عن الحب هي أن أنعم دائماً بصحبة المرأة الساحرة التي أنا مخاض لها ، وأن أشاطرها أفكارى وخيالاتى وسعادتى ومتاعبي جميعاً . . . فكل ما أريده أن أكون معك وأعيش معك ، وألا أنفصل عنك أبداً ، ثم لا يهمني إن كنت في السماء أو في الأرض أو ربما في قاع المياه » .

لكن ما لبث أن قلت الردود على رسائل دزرائيلي ، وصار في لهجتها شيء

من الجفاء ، وعقب ذلك صمت طويل وغريب أقلقه على عواطف ماري آن ، فإذا يمر بخاطرهما ؟ لقد طلبت منه سنة كي تدرس أخلاقه ، وربما أن الحكم النهائي لا يرضيه ؟ طلب منها المقابلة ومنحته إياها ، وجرى بينهما حديث مؤلم ، فحول مسر وندهام الأصدقاء لا يوافقون على زواجهما ، ومن المعروف أن دزرائيلي الشاب مثقل بالديون ، وكيف يمكن تصديق أنه يحب امرأة أكبر منه باثنتي عشرة سنة ؟ فهو إذن لم يتقدم إليها إلا ليهدي من ثورة الدائنين نبأ هذا الزواج . وتكلمت روزينا بلوار كثيراً عن حب ديزي للأربعة آلاف جنيه ، وهي دخل ماري آن ، وهذا آخر لون أعطى لصورة ذلك المغامر الجميل الجريء ؛ فلقد تملق جميع الأحزاب ليحصل على مقعد في البرلمان ، وهو ينتهي إلى الزواج من امرأة عجوز ليحصل على دارها ودخلها . ووصلت هذه الإشاعات إلى ماري آن نفسها ، وقلقت لها ، فهي امرأة تميل إلى النظام وتحسب حسابها جيداً ، وهي تحب ، ولكنها لا ترغب في أن تخدع ، وأفصححت عن ذلك في خشونة ، فكتب إليها يقول بعد خروجه من منزلها :

« ... أقسم لك فيما يتعلق بالمصالح المادية أن هذا الزواج لن يكون له أية فائدة ، فأني حاصل على كل ما يستطيع العالم أن يهبه ، وليس تملك دخل ظاهري هو الذي يزيد في مركز الرجل ، لأنني أستطيع أن أعيش كما أعيش من غير ما يمس الشرف ، إلى أن يؤدي سير الحوادث الطبيعي إلى الاستقلال الذي أرغب فيه ، وإني لا أخوض في هذه التفصيلات الكريهة إلا لأنك عزوت إلى أن لي صالحاً ، لا ، إني لا أتنازل بأن أكون خليل أميرة ، ولا يمكن لكل ذهب « أوفير » أن يدفعني إلى المذبح ، وإن الصفات التي أرغب في أن تكون للشخص المحبوب الذي يقاسمني الحياة لهي صفات تختلف عن ذلك كل الاختلاف وتتطلب طبيعتي أن تكون حياتي حبا دائماً ... »

« وداعاً ... إني لا أزعم بأنني أتمنى لك السعادة ، فليس من طبيعتك أن تحصيلي عليها ، وقد تمضين سنوات قليلة وأنت تجولين في دائرة واهية ، ولكن

سيأتي الوقت الذي تنهدين فيه رغبةً في قلب محبٍّ ، وتيأسين من أن تجدى وفيها وهذه ساعة العقاب ، حينئذ تفكرين فيّ مع الندم والإعجاب واليأس ، وتذكرين القلب المدله الذي فقدته والنبوغ الذي خنته .

من مسز وندهام لويس إلى دزرائيلي :

« بحق الله ، احضر فاني مريضة وأكاد أصل إلى الجنون ، وسأجيب على كل أسئلتك ، وإنني لم أرغب قط في أن أراك تهجر داري ، ولم أرغب قط في الكلام في مسائل المال . . . لم يمض عام على ترملي ، وكثيراً ما يحدث لي أن أشعر بعدم اللياقة الظاهرة في مسلكي ، وإنني لك لمخلصة . »

في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٩ ، عقد زواجهما في كنيسة سان جورج ، وكتبت ماري آن في دفتر حسابها : « قفاز بمبلغ شلنين ونصف شلن ، وفي الصندوق ٣٠٠ جنيه ، تزوجت في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٩ ، وصار ديزي العزيز زوجاً لي . »

كتب إليها قبل ذلك ببضعة أيام : « إنني لأعلم أنه لم يتح لشخصين ما أتيح لنا من فرصة السعادة الدائمة الكاملة ، وإنني أتطلع إلى يوم اجتماعنا على أنه العهد من حياتي الذي يتقرر فيه مستقبلي ، وليس ما يحدث بعد ذلك على ما أعتقد يحرك من نفسي ؛ إذ أجد لي دائماً ملجأ في قلبك من أحزاني أو من خيبة الآمال ، وقوتك الحكيمة والسريعة تقودني في السعادة وفي النصر . »

وذلك فعلاً ما ينتظره من الزواج .

في السنة ذاتها تزوج عضو آخر من أعضاء البرلمان أصغر سناً ، وإن لم يكن أقل بروزاً ، هو وليم جلادستون ، الذي تعشى معه دزرائيلي عند لندهرست عندما قدمت بجمعة محشوة ، والزواج في هذه الحالة يختلف كل الاختلاف ، وليس من العبث أن نذكر الظرف في اختصار ؛ فقد قابل جلادستون خطيبته أثناء

سياحته في إيطاليا ، وهي ابنة لادى جلين ، وقد سافرت بصحبة أمها وأختها وحاشية في مركبة سفر كبيرة ، وفي فلورنس حياهن شاب ذو ملامح منتظمة وقوية ، وسألت كاترين جلين : « من يكون هذا ؟ ، فأجبت : ألا تعرفينه ؟ إنه الشاب جلادستون ، الرجل الذى يعتقد جميع الناس أنه يجب أن يصير رئيس وزارة إنجلترا » .

توثقت علاقة السياسى الشاب الذى يقضى أجازته بهذه الفتاة الجميلة التقية ، وتحادث معها طويلا في كنيسة سانتا ماريا ماجورى ، وتكلم في الفرق بين بخل الإنجليز في زخرفة كنائسهم وترفعهم في حياتهم الخاصة ، وسألته : « هل تعتقد بأنا على حق في أن نعيش هكذا ؟ » ، وكتب في مذكراته اليومية : « إنى أحببتها من أجل هذا السؤال ، ما أجل التفكير في أن قلبها وإرادتها هما في يدي الله ، وإنى لأرجو أن يكون عونها في كل شيء . . . » طلب يدها وهما في الكوليزيوم تحت ضوء القمر كما يسطع في روما فترددت ، ولكنه رآها في إنجلترا مرة ثانية وتنزه معها في حديقة على مقربة من أحد الأنهر ، وقص عليها قصة نفسه وكيف رغب في أن يكون قساً ، وكيف اعترض والده ، ثم كيف استسلم للسياسة ، وفهم أن السياسى قد يستعمل سلطته في سبيل مجد الكنيسة ، وقات وهي متأثرة أن تكون زوجة له .

قال لها عندئذ سنتخذ شعاراً لحياتنا قول دانتي : « في إرادته سلام لنا » وتزوجا في قرية مزدانة بالأزهار نسقها أهل القرية الذين يحترمونهما ، وقد ألقوا بطنائسهم البسيطة في طريق الموكب . وفي نحو الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم قرآ في التوراة معاً : « وهذا العمل اليومى آمل أن يدوم ما دامت حياتنا مشتركة » .

أدخلت مسز جلادستون شيئاً من الخيال في حياة زوجها الجافة ، فهو مثال النظام والدقة ، أما هي فخصيفة بالفطرة وميالة للفكاهة ، وهو يرتب كل

شئ ويؤبه ، وهي تضيع كل شئ وهي تداعبه قائلة : إنه من الخير أن تكون
زوجته بعيدة عن النظام ، لأن ذلك يجعله أقرب للإنسان ، وهو من جهته علمها
كيف تحلل عواطفها ، وتسهر على نفسها ، وتدون مذكرات يومية ، نقرأ فيها
على سبيل المثال : « استخدمنا طاهية بعد حديث طويل في المسائل الدينية ،
لا سيما بينها وبين وليم » .

كانت كاترين جلادستون ظريفة حقاً ...

مارى آن

« كان كما يجب أن يكون الرجل دائماً من
المرأة : رقيقاً جداً ، وإنما هو لها دليل »
دزرائيلي

صار رجلاً متزوجاً يسكن بيتاً جميلاً في بارك لين ، ويدعو زملاءه إلى مأدعة
عشاء عليها أربعون صفحة ، ونقصت السلاسل قليلاً ، ونقصت الدنتله بعض
الشيء . تغير دزرائيلي كثيراً في بضعة أشهر ، وقد يرى الآخرون في ماري آن
آلاف العيوب ، ولكنها المرأة التي يحتاج إليها هذا الرجل المتكبر الحساس ؛
فقد جعلته يعيش في جنة من العبادة مضحكة بعض الشيء ، ولكن ما فيها من
أمن يهدى القلق الطويل المؤلم .

رَسَمَ صورة للزوجين بعد زواجهما بوقت قصير :

وهي : فؤارة جداً

هو : هادئ جداً

مرحة وسعيدة عند ما يتكلم

مسلكه جدى يكاد يكون حزيناً

سريعة الغضب

قلما يغضب

راضية النفس

ضيق النفس

باردة في الحب وحارة في الصداقة

حار في الحب وبارد في الصداقة

لا صبر لها

صبور جداً

كسولة جداً

مكب على العمل

كريمة فقط لمن تحبه

كريم جداً

لا تقول قط إلا ما تعتقد

كثيراً ما يقول ما لا يعتقد

تختلف كل الاختلاف وتظهر

من المستحيل أن تعرف ما يجب

عواطفها لمن تحبهم

وما لا يجب فهو لا يظهر عواطفه

راض عن نفسه	غير راضية عن نفسها
غير أنانى	أنانية جداً
لا يجد تسلياً إلا في القليل من الأشياء	تتسلى بكل شيء
هو نابغ	وهى غبية
يعتمد عليه إلى حد	لا يعتمد عليها

يقف نفسه على السياسة والطموح
ليست طموحة وتكره السياسة
تقول روزينا بلوار أحياناً في حدة وحسد إذ لم تعد بعد خسارة زوجها تحمل
أن ترى غيرها من النساء يجدن زوجاً : « إننى قبيحة وغبية مثل مسز دزرائيل »
على أن مقارنة صورتيهما تنبئ عن ذكاء في مسز ديزى أكثر مما تعترف به روزينا ،
فهي وحدها التي فهمت في ذلك الحين الحزن العميق المحتفى وراء السخرية
الذررائيلية ، وعدم وجود المرح الحقيقي ، والتضاد بين مسلك الطيش والسخرية
لذلك الرجل المتجمل قديماً ، وبين العواطف العنيفة الحزينة التي تغلى تحت هذه
القشرة الرقيقة .

صارت ترافقه في كل مكان ، وعبدتها عائلته في برادها ؛ فهي تحمل المرح
إلى دارها اجتماعها الشيخوخة ، وقد صار مسز دزرائيل كفيفاً ، وهذا أمر شديد
على رجل يجد في القراءة حياته ، وأخذت سارة تقيد له المذكرات في كل يوم
فتسمح له بالاستمرار في عمله ، وقد اتفقت الأخت وزوجة الأخ في الإعجاب
بمواهب « ديزى » .

كثيراً ما يذهب دزرائيل وزوجته لقضاء بعض الأيام في الريف في دور
النبلاء حيث تلقى بساطة مسز دزرائيل نجاحاً كبيراً ؛ ففي ذات مرة قالت لسيدات
يتناقشن في جمال بعض التماثيل اليونانية : « آه لو رأيتن زوجى ديزى وهو في
الحمام ! » ، وقالت لسيدة أخرى : « إن دارك مليئة بالصور غير اللائقة ، ولدينا
صورة فظيعة في غرفتنا يقول ديزى إنها صورة « فينيس وأدونيس » وقد ظلمات
مرة مستيقظة حتى نصف الليلة كي أمنعه من النظر إليها » . وفي ذات صباح بعد

أن أمضى الزوجان ليلتهما في غرفة مجاورة للورد هاردنج قالت للورد عند الفطور :
« إني يا لورد هاردنج أعد نفسي أسعد النساء ، فقد قلت لنفسي عندما استيقظت في
هذا الصباح ما أسعد حظي ، نمت بين أكبر الخطباء وأكبر المقاتلين في هذا
العصر » — يضحك الناس كثيراً ، ولكنهم يضحكون في حذر إذا ما أدار
الزوج ظهره ، لأن دزرائيلي على شدة شعوره بما هو مضحك يدافع عن امرأته بولاء
شديد ولا يلومها على شيء مطلقاً .

في ذات يوم وها في زيارة لبوار الذي سكن عندئذ على ضفة التاميز ، ركب
الزوجان في قارب يقوده البرنس لويس نابليون المطالب بعرش الإمبراطورية
الفرنسية ، وأحد المهاجرين المحبوبين في إنجلترا ، وفي وسط النهر عجز الأمير عن
القيادة في موقف الخطر ، وغضبت ماري آن لذلك وعاملت نابليون معاملة البحار
الذي لا يحسن عمله لا معاملة إمبراطور فرنسا في المستقبل ، وصاحت به : « يجب
ألا تتولى أعمالاً لا تقدر عليها ، إنك لمغامر أكثر مما يجب » ، وضحك الأمير
ضحكاً عالياً ، أما دزرائيلي فقد لزم الصمت وعليه علائم الجد وإن تسلى بذلك .

عند ما ينجح عضو البرلمان لا يفكر إلا في أن يكون وزيراً ، ولديزي كل
الحق في أن يظن ذلك قريباً ؛ فقد فشل الأحرار إذ قيل للشعب إن الإصلاح
الانتخابي هو نهاية كل الآلام ، ففرض الشعب هذا الإصلاح على مجلس اللوردات
ومع ذلك صارت الحال إلى أسوأ مما كانت ؛ ففي كل مكان حلت الآلات محل
العامل ، وصار الغزليون اليدويون يموتون جوعاً ، وزاد عدد المعوزين ، وصارت
الجماهير التي تأثرت بالبطالة تلقى اللوم على النظام السياسي ، وقيل لهم إن الإصلاح
ليس كافياً ، وإنه لم يزد على أن أبدل سادة الأرض بسادة الأقطان والحوانيت ،
وإن منح الأصوات للجميع هو وحده الذي يضمن السعادة للفقراء . وتكون
حزب كامل يطالب بوثيقة الانتخاب العام ، وكان هؤلاء المطالبون (الشارتست)
فضيعين حقاً إذ لم يقتصروا على المطالبة بحق الانتخاب العام ، بل طالبوا بالاقتراع

السرى ودفع المرتبات للنواب وتساوى الدوائر ، وبدأ الكثيرون من الموسرين يتخوفون ، وفكر البعض الآخر « لن يحدث شيء ، ففي هذه البلاد لا يحدث شيء مطلقاً » . والتمس الفريق الأول من الوزراء أن يتخذوا تدابير لمقاومة المطالبين بهذه الوثيقة ؛ والتمس الفريق الآخر اتخاذ مثل هذه التدابير لمقاومة رجال الصناعة وصارت وزارة الأحرار في أخرج المواقف ، فهي قد تولت السلطة بفضل ائتلاف أصحاب النظريات وأرباب الصناعة ورجال الأحرار التقليديين ؛ فلم تكن تستطيع إرضاء الفقراء دون أن تغضب حلفاءها . وكانت فكرتها الوحيدة لتخفيف وطأة الفاقة هي قانون الفقراء الجديد الذى ينشئ الملاجئ (بيوت العمل) حيث يطعم المعوزون ، ولكنهم يحجزون ويتبعون نظاما شديداً ، وصارت هذه السجون التى يفصل فيها بين الزوج وزوجته ، ولا يستطيع الأب أن يضم أطفاله إلى صدره مكروهة جداً للحال لدى الجمهور ، ورسم لها ديكنز فى رواية أوليفر تويست صورة فظيعة وحقيقية ؛ وقد بلغت كراهية الناس لهذه الملاجئ مبلغاً عظيماً حتى كانوا يفضلون عليها سكنى الغرف الحفيرة بلا أثاث ولا نار ، ورفض الفقير قطعياً أن يجد مأوى فى ذلك « الباستيل » للفقراء .

وأمام ذلك استفاد حزب المحافظين من كراهية الشعب لخصومه ، وقد يصعب على پيل وهو ابن أحد أصحاب المصانع ، وهو الذى وافق على قانون الفقراء أن يستغل هذا الموقف فى البرلمان ، ولكن دزرائيل لم يتصور ما هو أكثر ملاءمة لآرائه ، فهذا الأسف على الماضى الذى يشعر به التعساء ، وهذا الحزن على أن حل الإحسان الإدارى الشديد محل الإعانات الودية للكنيسة أو القصر ليس إلا حب المحافظة على القديم التى نادى بها أبداً ، وقد تحول إلى عاطفة بسيطة ؛ فمن أين يأتى الشر فى رأيه ؟ من أن تولى السلطة الوضيعون الذين ألقوا على عاتق الحكومة الانجليزية برغم كل التقاليد الانجليزية تلك الواجبات التى هى واجبات طبقهم . فعندما جاء الشارست ليقدّموا إلى البرلمان عرضتهم الموقع عليها من اثني عشر ألف اسم ، وعند ما رفض الحزبان أن ينظرا فيها ، وعند ما أحال لورد جون

رسل أبو الإصلاح أولئك الرجال من أبناء الإصلاح إلى المحاكمة تكلم دزرائيلي وحده تقريباً مدافعاً عنهم ، ولم يشاطرهم الرأي في فضائل العلاج بحق الانتخاب العام ، ولكنه يعتقد أن الداء الاجتماعي لا يعالج إلا بعلاج اجتماعي ، وأعلن عن عطفه على تعاستهم واستغرابه لتهجم لورد جون رسل عليهم بعد أن كان مثلاً لهم ، وقال في مرارة : « سيحين الوقت الذي يكتشف فيه الشارست أنه في البلاد الأرستقراطية مثل إنجلترا لا تنجح الحياة نفسها إلا من النبلاء ، سيكتشفون هذه الحقيقة العظيمة ، وإذا ما وجدوا سيداً كبيراً متحمساً يقودهم فإنهم يصلون إلى غرضهم ؛ حيث فشل وات تيلر تمكن هنري بولنجبروك من أن يسقط أسرة حاكمة ، وحيث شقق جاك سترو فقد يصير لورد جون سترو وزيراً للدولة » .

تحدث الناس : « هذه خطبة جميلة ، ولكن ماذا يريد ؟ » — « أظن أنه ينقلب مستقلاً » — « ولكن الخطبة تعارض مبادئ الراديكاليين » — « إذن سيصير من الأحرار » — « إنه متطرف في كراهيته للأحرار » — « إذن ماذا يكون ؟ » — « إنه مجنون » — « ماذا يريد بقوله يصلون بغير العريضة إلى ما يرغبون فيه ؟ » — « أظنه يريد أن يقول إننا إذا رغبتنا في الاحتفاظ بالسلطة لا نستطيع ذلك إلا إذا ضمنا السعادة للأمة » — « فإذا قلت لك إذن ؟ أليس ذلك من مبادئ المستقلين الصرفة ؟ » — « الزعم بأن الشعب يكون أسعد مما هو الآن ليس إلا من آراء المستقلين لا غيرهم » .

شعر الأحرار بأنهم مهددون فحاولوا إحباط هذا التهديد ، ووجد المحافظون في الصناعة المتسعة المدى موضعاً لغضبهم ، وفي قانون الفقراء مارداً مخيفاً لهم ، ففكر الأحرار في الانتقام من كبار الزارعين بمناهضة قانون القمح ، وقد زاد في الأسعار تتابع أربعة محصولات سيئة ؛ فلماذا لا يفترض أن البطالة ناشئة عن ارتفاع أسعار المعيشة ؟ وإذا اتبعت سياسة التعامل الحر فإن ذلك يرضى العمال وأصحاب الأعمال معاً . نعم إن الزراع يتضايقون ، ولكن بما أنهم جميعاً على وجه التقريب من المحافظين فليس لذلك أهمية في الانتخاب . أما دزرائيلي فأيد في ثبات

نظرية « الحماية » ؛ فمن الذى يستفيد من إلغاء الرسوم ؟ الفقراء ؟ لا ، بل أرباب
الصناعات لأن الأجور تنخفض مع هبوط أسعار المعيشة ، إذن لماذا نضحي
بإنجلترا الزراعية من أجل إنجلترا الصناعية ؟ لماذا يُعمل على عدم تشجيع الزراعة
وعلى خرابهم ؟ يقول أصحاب نظرية حرية التعامل : « نستورد طعامنا ونصير مصنعاً
للعالم » ، ولكن منذ الذى يستطيع التنبؤ بالمستقبل ؟ وإذا تغير العالم وصار جميعه
مصنعاً فمن يغذى إنجلترا عندئذ ؟ .

ترزعزع الأحرار على أنهم ظلوا أقوياء فى ضعفهم ، وإن صارت هزيمتهم محققة
ورفض الدوق السلطة وصار صموتا جداً ، يذهب إلى الأندية فيقابل كالملاك ،
ولكنه يمر بها من غير أن يفوه بكلمة ، وإذا وجه إليه الحديث لا يجيب إلا بقوله :
« ها ! » . إذن فالوزارة يؤلفها يـيـل ، ومن الطبيعى أن يكون لأفصح خطباء
الحزب مكان فيها ، وإذا ما قيل هذا القول لمسز ديزى احمر وجهها كأنها
فتاة صغيرة .

السيد المحترم

في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٤١ ذهب سير روبرت پيل إلى قصر وندسور ليقبل يد الملكة ، التي كانت في بداية أمرها وطيشها تكره هذا الرجل الجدى الخجول المختلف كل الاختلاف عن لورد ملبورن الساحر الذى جعلها تعيش كملكة من ملوك القرن الثامن عشر ، ولكنها الآن تزوجت من الأمير الجميل البرت دى ساكس - كوبورج ، والبرت رجل ذو خلق جدى ، فهو يحب سير روبرت ويحترمه ، وكل ما يحبه البرت محبوب لدى الملكة . وقابلت الملكة هذه المرة زعيم المحافظين وهى تثق فيه . وذكرت منذ أيام قوائم غير رسمية بأسماء الوزراء وفيها جميعا اسم دزرائيل ، ولكن پيل لم يدعه لمقابلته بعد .

ما لبث دزرائيل أن علم بأن صديقه لندهرست سيعين رئيساً للقضاة ، ولورد ستانلى للمستعمرات ، ودوق أوف بكنجهام حامل الختم الخاص ، وجلادستون الشاب للتجارة ، ثم ملئت جميع المناصب شيئاً فشيئاً فلا يرى فى نادى كارلتون غير جماعات يهين بعضها البعض ، وظل دزرائيل وحده لا يأتيه نبأ من رئيس الوزارة ، فهل يهمل سير روبرت رجلاً من خيرة أعوانه ؟ إن ذلك يكاد يكون مستحيلاً ، ولكن إذا حدث لسوء حظه فآفة خيبة وآفة كارثة ! سيظل المحافظون مدة طويلة فى الحكم ، وإذا ما أهمل هذه المرة فإن ذلك معناه البقاء بعيداً فترة حياة البرلمان أو مدة فترتين ! فالعمل الذى قام به فى صبر مدة أربع سنوات فى البرلمان ينهار ، وصار يخيل إليه الآن فى النادى أن فى النظرات سخرية مسلية ، وأن بعض الأحاديث تنقطع عند اقترابه ، ودفعه اليأس فى آخر الأسبوع إلى الكتابة لپيل : —

» عزيزى سير روبرت

لقد آليت على نفسى فى مثل هذه اللحظة ألا أثقل عليك بشخصى ، وكنت

أستمر على ذلك لو وجدت أحداً يعبر عن مشاعري ، فأنا لا أود أن أرهقك بمطالب لا بد أنك أرهقت بمثلها ، ولا أقول إنى منذ سنة ١٨١٤ ناضلت في أربع مواقع من أجل حزبك وأنفقت مبالغ كبيرة ، واستعملت ذكائى بقدر ما أستطيع لدعايتك السياسية ، ولكن فى حالتى مظهر خاص يحول دون السكوت عليها فانى قاومت عاصفة من الكراهية والعداء السياسى لم يقابل بمثلها غير القليل من الرجال منذ اللحظة التى تطوعت فيها تحت لوائك بتحريض أحد رجال وزارتك ، ولم أكن مؤيداً فى تلك التجارب إلا بعقيدتى فى أنه سيأتى اليوم الذى يعترف فيه علانية أشهر رجل فى بلادى بأنه يشعر ببعض الاحترام لكفائاتى وخلقى .

وإنى لأعترف بأن إهمالك لى فى هذه اللحظة فيه القضاء على ، وإنى لأتوجه إلى قلبك وإلى عدالتك وإلى كرم سجيتك وهى الصفات التى أشعر بها فىك لتنجينى من تحقير لا يحتمل ، وأعتقد أنى ياسير روبرت خادمك الأمين ما

ب . دزرائيلى

وفى الليلة السابقة لم تعد مسز دزرائيلى تستطيع احتمال أحزان زوجها ، فكتبت إلى رئيس الوزراء من غير علمه .

« عزيزى سير روبرت

أرجو ألاّ تستاء من تدخلى ، ولكنى شديدة القلق لأن مستقبل زوجى السياسى ينهار للأبد ، إذا كنت لا تدعوه ... فلا تحطم كل آماله ، ولا تدعه يشعر بأن حياته كلها كانت خطأ .

فهل أستطيع أن أذكرك بنشاطى الوضيع والحماسى ، وقد قمت به فيما مضى خدمة للحزب أو على الأصح خدمة للزعيم العظيم ؟ ولو سألت مايدستون لقليل لك إنى أنفقت نحو أربعين ألف جنيه . أرجو ألاّ ترد على هذه الرسالة فإنى لا أريد أن يعرف مخلوق بآنى كتبت إليك هذا الالتماس الوضيع . وإنى ياسير روبرت العزيز خادمك الأمانة إلى الأبد ما

مارى آن دزرائيلى »

ردّ پيل على دزرائيل في رسالة جافة أصر فيها بوجه خاص على عبارة من رسالته لا أهمية لها ، وهي قوله : « وقد تطوعت تحت لوائك بتجريض أحد أعضاء وزارتك » ، فلاحظ پيل في غضب أنه لم يكلف أحداً من أعضاء وزارته بمثل هذه المهمة (ولم يذكر دزرائيل شيئاً عن مهمة ، وكل ما أراد فقط أن يقوله هو أنه اتصل بحزب المحافظين بنفوذ لندهرست عضو وزارة پيل) . وأضاف پيل إلى ذلك أن المناصب لديه قليلة ، حتى إنها لا تكفي لمن خدموا من قبل تحت لوائه ، وقد ظن أن قلة الوسائل لديه مفهومة لدى رجال كان يفخر باشتراكهم معه وهو لا يناقش في ميزاتهم .

الحقيقة أن پيل ود أن يعطى دزرائيل منصباً ، ولكن حوله زملاء لا يرغبون في هذا « المغامر » مثل كروكر ذلك الرجل الكريه الذي عرف دزرائيل في زمن إنشاء الجريدة وسبب فشله ، ومثل لورد ستانلي المتكبر والمتواضع معاً وقد أعلن أنه « إذا دخلها هذا الأفق فهو ينسحب » .

على أن پيل لم يدافع عن دزرائيل في حمية ، والرجلان يختلفان كل الاختلاف فقد جمع پيل حول مهده البرلماني الثروة والأخلاق والاحترام ، في حين أنه تحوم بلا شك حول دخول دزرائيل متأخراً إلى حظيرة السياسة أشباح الديون والاستهتار وشذوذ الخيال . وأسرة پيل معروفة بالدوق السليم ، ودارهم في لندن ساحرة تطل شرفاتها المزدانة بالأزهار على النهر ، وبهوها الجميل محلي بصور من رسم أساتذة الفن الهولنديين ، وقد قال لهم بعض زائريهم من الفرنسيين : « إن العشاء عندكم للذيد » . وكانت لادى پيل جميلة وحلوة الشمائل ، والصورة التي رسمها لها المصور لورانس وحذا فيها حذو روبنز في صورته « قبعة القش » يعتبرها الكثيرون من الهواة بأنها خير صور الرسام ، وكل ما يحوط پيل يمثل فكرة الصلابة الفلمنكية ، وجمال الفضيلة ؛ وكل ما يحوط « دزى » يبدو في بهرج زائف . وتضى الجواهر إذا ما ازدانت بها لادى پيل في نار مظلمة ، أما مسز « دزى » فتبدو عليها أجمل الأحجار الكريمة كأنها من الزجاج . ومنزل مارى آن في ساحة

جروفر مزدان في ذوق سيء وصارخ، وأثاث المنزل مخيف وثيابها مضحكة، وهذه تفصيلات ضئيلة، ولكنها تضيف إلى عدم ثقة رئيس الوزراء. ثم إن الرئيس لا يحب مبدأ الرجل كما لا يحب الرجل نفسه، فإن پيل بحكم نشأته أقرب إلى المصنع منه إلى القصر أو الكوخ الريفى، وأقرب إلى متشددى البروتستانت منه إلى الفرسان، فهو في الواقع رجل من كبار الطبقة المتوسطة، وهو بقلبه وعقله مع كوبدن ومع برايت أى مع خصومه، وهو يتأثر بنظريات الاقتصاديين وبمظهر الأمانة، وبخشونة برايت في حذائه الغليظ أكثر مما يتأثر بلوازع الخطيب، فهو يميل بمجامع قلبه لمثل جلاستون، وهو مثله عليه مسحة أكسفورد في الظاهر وأهل ليثربول في الباطن، وهو مثله صار عضواً في البرلمان في الواحد والعشرين من عمره، ووكيل وزارة في الخامسة والعشرين، وهو يحب جلاستون الذى يتلو الصلاة قبل أن يبتدىء الكلام، ويعرف كيف يضع على المسألة البسيطة غلافاً من العبارات الطويلة الغامضة، وقد نزل دزرائيلى بنفسه إلى درجة التماس المنصب، أما جلاستون فعند ما عرضت عليه الوزارة سأل نفسه في قلق عما إذا كانت السياسة الدينية للوزارة تسمح بقبوله المنصب. وإنه لما تراح إليه نفس بسيطة وخجولة كنفس پيل أن يجد المطامع مقنعة تحت آراء مناسبة، وعند ما قبل جلاستون المنصب أخيراً، هز پيل يد الوزير الشاب بقوة وقال: «ليباركك الله» فكيف يستطيع أن يعامل دزرائيلى المستهتر هذه المعاملة؟ إن ستانلى لعلى حق فهذا الرجل لا يطاق.

ما تألفت الوزارة حتى اجتمع البرلمان وذهب إليه دزرائيلى وهو خائف جداً فقد صار موقفه صعباً، كان الحزب وهو فى المعارضة سعيداً بأن يستعمله ضد الخصوم، لكن منذ الآن سيصير هذا المحافظ التعس الذى لم يشغل منصباً حيواناً منفرداً، فشروعات القوانين يدافع عنها الوزراء، ولا يراد منه إلا أن يعطى صوته، وهو دور مؤلم للعقل المتكرر؛ وقد سر أعداؤه لما حل به وأخذوا يترقبون

مسلكه في فضول الشماتة ، وصاروا ينتظرون أن ينقلب على الزعيم الذي أهمله ، وشجعه على ذلك الكثيرون من نصحاء السوء ، وتودد إليه المستقلون .

فهم الخطر ونفسه تجيش بعواطف عنيفة نحو پيل ، وليس في رفض منحه منصباً ما يعاب ، ولكن نعمة الرفض غير حكيمة ، وإذا ما نظر دزرائيلي إلى مقاعد الوزراء ، وإذا ما شاهد الوجوه الراضية لهؤلاء الرجال المتوسطي الذكاء الذين احتقروه ، شعر برغبة قوية إلى الهجوم ، ولكنه كان يلجم هذه النفس الثائرة ، وإنه لفي حاجة إلى الصبر أكثر منه في أي وقت آخر ، وهذا رأى ماري أن أيضاً ، وكانت بديعة في شفقتها في هذه الظروف السيئة .

دهش المجلس إذ رأى دزرائيلي يحافظ على حضور الجلسات ، ويعطى صوته عن رضا كامل في صف الحكومة . وكان پيل شديد الرغبة في إرضاء أصحاب مذهب حرية التعامل فألنى رسوم الجمارك على أكثر من سبعمائة مادة ، وعوض خسارة الميزانية من هذا الإيراد بطريقة عجيبة مبتكرة هي ضريبة الدخل ، لكن دزرائيلي الذي يعتقد في الحماية لم تخر عزيمته ، بل اكتفى بأن ألقى خطبة هامة في موضوع فني وغير مثير للمناقشة عن موظفي القنصليات ، وهي خطبة دقيقة مليئة بالأرقام والنوادر ، لكنها شيقة إلى حد حمل المجلس على الإصغاء إليه في سكون مدة ثلاث ساعات ، مع أن المجلس كان في مبدأ الأمر ثائراً ، شك الكثيرون في ذكائه من قبل عند ما رأوا إهمال پيل له ، فكانت عودته باهرة تسترعى النظر لا سيما أن الموضوع ذاته لا يساعده .

كان من أشد المتحمسين في تهنئته جماعة من الشبان تخرجوا حديثاً في كمبردج وأرسلتهم الانتخابات الأخيرة إلى البرلمان ، سحرتهم هذه الفصاحة الحديثة الخالية من العبارات المألوفة ، وقال له الشاب سميث . « إنك تتكلم كأنك في نادى كارلتون ، أو على مائدتك ، فالصوت غير متصنع ، وإلقاؤك ممتاز مع شيء من عدم المبالاة ، وصبغة بسيطة من السخرية » . وأظهرت هذه الجماعة المؤلفة من هذا الشاب سميث ولورد جون مانرز ومن يحوطهم تلطفاً كبيراً معه ، وهم ينتمون

إلى عائلات قديمة جداً وشهيرة جداً ، ويمتلكون القصور الشبيهة بقصور الأحلام معلقة فوق الربى في الضباب ، أو مخبأة بين الحدائق الواسعة في وسط الأشجار ، وقد تنقفوا في أيتون وكبردج حيث نشأت بينهم صداقة وعواطف نبيلة ، وألفوا معاً نظرية سياسية تقوم على إحياء النظم القديمة ، وعلى الوئام بين عامة الشعب وبين أرسقراطية عارفة بواجباتها ، وتلك هي مبادئ « دزى » في أجلى مظاهرها .

فالحركة الصناعية التي جذبت إليها الرجال الناضجين لم ترض هؤلاء الشبان الناشئين ولم يستطيعوا اتخاذها ديناً ، فهم في حاجة دائمة إلى الحماسة التي لا يجدونها في دين تجار الأقمشة القطنية حين يقولون : « اشترؤا في أرخص الأسواق وبيعوا في أعلاها » ، ولم يقنعوا بمثل هذا الإنجيل . وبعد انتشار الآراء المجردة من الخيال في سنة ١٨٢٠ عاد الناس فاستولى عليهم الخيال . ففكر هؤلاء الشبان من الإنجليز تفكيراً جدياً في إحياء الفروسية وقانونها القائم على الشرف واحترامها الديني للمرأة وربما فات زمن النظام الإقطاعي ، ولكن الروح الإقطاعية التي تعتبر الناس مرتبطين فيما بينهم بواجبات متبادلة ظلت أكبر ما يرجى ، وأسفوا على الزمن الذي كانت فيه قاعدة الحياة : « إن الشرف يقضى بذلك » وقد يكون من المستطاع إحياء النار الخالية .

في سنة ١٨٣٩ نظم اللورد إجلنتون مباراة في الفروسية على أراضيهِ ، فحضر إليها جميع أشراف إنجلترا ، وهم يلبسون دروع أجدادهم ، ونصبت اللادى سيمور إحدى صديقات « دزى » ملكة للجمال فيها ، ولكن لسوء الحظ هطلت الأمطار بشدتها المعروفة في مانشستر ، فأغرقت الحماسة وفتحت فوق ثياب القرون الوسطى آلاف من المظلات ، وصار فارس الأسد وفارس البرج الأبيض وفارس المرأة جميعاً فرسان الوجه الحزين ، كأن الآلهة انقلبت مؤيدة لعصر فيكتوريا ، على أن الشباب يقاوم الآلهة . واتخذت الحركة مظاهر أخرى من غير أن تموت ، ففي أكسفورد اتخذت مظهر التجديد الديني ، وبدأ صوت نيومان بما فيه من « حنان عجيب » يخلب النفوس ، وحاول بعض الشبان من رجال الدين أن يقاربوا بين

الكنيسة الإنجليزية وبين الكاثوليكية ، وقد ظلت الكنيسة مدة أربعين سنة تخشى من الإيمان أكثر مما تخشى من عدم الاهتمام بالدين ؛ ومل هؤلاء الشبان تلك الكنائس المغلقة والصلوات الباردة ، وتحول البعض منهم حتى اتصل بروما ، وحاول البعض الآخر أن يدخلوا إلى كنيستهم طقوساً أكثر حرارة ؛ وفي كمبردج اتفق أصدقاء دزرائيلي الحديثون وهم لورد جون مانرز ، وجورج سميث ، وكوكران على أن يتعرفوا آلام الشعب ويحاولوا علاجها .

كانوا كشأن جميع الأصدقاء الحقيقيين لا يتشابهون فيما بينهم إلا قليلاً ، فلورد جون مانرز رجل جد متدين ونفس طاهرة ، وهو كالفارس «لانسوت» ، إلا أنه قد ضل الطريق في عالم الآلات ، وهو يأسف بمجامع قلبه على الزمن الذي كان فيه الملك يركع أمام القديس ويرى الشعب في ملكهم أنه المختار من الرب ، ويرى في الشريف زعيماً وحامياً ، ونظم في هذه الموضوعات شعراً رديئاً لا يخلو من البساطة :

فليذهب المال والتجار والنظم لكن ليبق لنا الإعراق في النسب
أما جورج سميث فشاب ناشئ ذكي ومراء فاجر ولكنه ذو عاطفة ، مستهتر ولكنه خيالي ، على استعداد للتضحية بآرائه لاعتبارات دنيوية ، وعلى استعداد في الوقت ذاته لأن يهجر الدنيا فجأة للسير وراء نزعة صوفية . وجورج رجل عجيب حقاً ، فهو في سن العشرين قد جرب الحياة وكشف خداعها كالحكيم الكهل ، وفي الخامسة والعشرين جن بالحياة أكثر من الطفل ، وهو شاعر من غير زهد الشاعر ، وباحث عن العروس ذات المهر الغالي من غير حب للمال ، وقد كتب في مذكراته : « إذا أردت أن تتذوق الحياة فيجب أن تشربها في جرعات صغيرة » وكان هو يشربها في جرعة واحدة . أعجب دزرائيلي إعجاباً شديداً بجورج سميث وهو الرجل الوحيد الذي لم يمل منه قط ، وكان يحب صداقة سميث لمانرز ، وعقيدة مانرز في مواهب سميث ، وتواضع سميث وإن بدا متعجرفاً إذا قورن بمانرز ، وكان

إذا ما رآها واقفين على عتبة الحياة تخيل فارسين يسيران وأسلحتهما تضيء في الشمس .

خدع بيل هذه الشبيبة المتحمسة إذ ينقصه النبوغ ، وهم يملون أقواله المألوفة حتى يكاد يدفع بهم الملل إلى الموت ، بينما هم يسكرون بفصاحة دزرائيلي ، ووجد سميث في « دزي » عقلاً ملائماً لعقله ، أما لورد جون فكان أكثر تحفظاً ، وقال بعد المقابلة الأولى : « لقد أجاد دزرائيلي في القول ولكنه أجاد فيه أكثر مما يجب » ، وكان ينزعج من دزي في لحظات صراحته ، فهو يدهش ويتألم من دزي الذي تتم عند خروجه من جلسة دافع فيها عن الكنيسة : « من العجب يا والبول أننا أعطينا أنا وأنت أصواتنا في صف عقيدة ميتة » ، ويندهش بعض الشيء عندما أعلن دزرائيلي لهؤلاء الأشراف أنه لا يوجد أشراف إنجليز وقال لهم : « إن أشراف الانجليز نشأوا من أصول ثلاثة : نهب الكنيسة ، وبيع الرتب بواسطة الملوك الأول من أسرة ستيورات ، وبيع الدوائر الانتخابية في الأزمنة الحديثة ، فجميع أشرافكم من أصل حديث . وعندما جمع هنري السابع برلمانه الأول لم يكن عدد الأشراف المدينين إلا تسعة وعشرين ، ومن هذه العائلات لم يبق غير خمس » ، وشرح لهم بعد ذلك أن الأصل الوحيد الذي ظل محافظاً على الثقافة القديمة هو بيت إسرائيل ، وأن أسرته هي أقدم من أسرهم ، فضحك سميث وأصغى جون مانرز في جد بكج الملائكة .

من اللذيذ أن يكون محوطاً بتلاميذ ، ولكن الوقت يمر ولا يعوض ، وبيل متربع في السلطة وهو أقوى مما كان في أي وقت ، وظل كل طريق إلى العمل النافع مغلقاً أمامه . قال دزرائيلي لزوجته : « أعتقد أنه يجب تقليد تاليران العجوز في هذه اللحظة ، إذ كان يلزم الفراش إذا لم يتبين ما يفعله » ، وقرر أن يذهب لقضاء فصل شتاء في باريس ، وزار ناخبه قبل سفره وفسر لهم مسلكه ،

فهو سيستمر على تأييد پيل بصوته مراعاة للنظام الحزبي إلا إذا أقدم رئيس الوزراء على خيانة الزارعين .

نزل مع ماري آن في فندق أوروبا بشارع ريفولي ، وقد أوصى دورسيه به أخته دوقه جرامونت خيراً ، فقابلته هو وزوجه خير مقابلة ، وكانت تستقبل ضيوفها ثلاث مرات في الأسبوع في دار صغيرة بفوبور سان أونريه غاصة بالآثاث القديم والصور ، وقابلاً لديها أوجين سو الذي ذكر دزرائيلي أنه : « الكاتب الوحيد الذي يقبل في الأوساط الاجتماعية » ، وأمضى الآنسات دى جرامونت الجميلات أوائل السهرة مع الضيوف ، ولكنهم في الساعة العاشرة قبلن أمهن وانصرفن لفراشهن .

دعى دزرائيلي وزوجه على أثر ذلك لدى مدام بودران زوجة الجنرال بودران ياور الملك ، وهي إنجليزية بديعة الجمال ، وصغيرة السن حتى لتصح أن تكون ابنة لزوجها ، وقابلاً هنالك العائلات التي قامت على التزاوج بين الفرنسيين والإنجليز مثل عائلات لامرتين وأوديلون - بارو ، وتوكفيل . وتعهد الجنرال بودران بأن يخبر الملك أن مستر دزرائيلي عضو البرلمان يود أن يعرض على جلالته بعض الآراء عن حالة الأحزاب في إنجلترا ، وهي آراء إذا قدرت قدرها قد يكون لها تأثير هام في سياسة البلدين .

قابله الملك في سان كلو ، وثار فضوله لهذا الوجه الرومانى الحزين الذكى المحاط بالجدائل السوداء ، واهتم لدزرائيلي ومال إليه ، ودعاه إلى العوده ، وصار من المعروفين في القصر ، وكانت الملكة ومام أدليد والدوقه دى نيمور يجلسن حول مائدة وهن يشغلن ، بينما الخدم يدورون بالملججات ؛ ويأخذ الملك دزرائيلي إلى غرفة مجاورة للتحدث إليه تارة عن السياسة وتارة عن شبابه ومغامراته العجيبة وحياته المثقلة التي عاشها ، ويقول له بالإنجليزية : « أجل يامستر دزرائيلي ! إن في حياتي تقلبات كبيرة » ، وهو يحب كثيراً أن يتكلم بالإنجليزية ، وكانت لغته مشوبة بلهجة خفيفة أمريكية . وقال لدزرائيلي إنه هو وحده الذي يعرف كيف

يحكم الفرنسيين ، وإن السبيل الوحيد لقيادة هذا الشعب هو أن تطلق يدك له كلية ، وتعرف جيداً متى يراد إيقافه . وطرب دزرائيلي لهذه العلاقة الوثيقة مع ملك له هذا الذكاء الكامل ، فقد تحقق أحد أحلام صباه ، وشاطر فوق ذلك الجنرال بودران في الرأي بأن الملك أكثر بساطة مما يجب ؛ ففي حفلات العشاء الكبرى في قاعة ديانه كان لويس فيليب يأتي بقطعة من لحم الخنزير ويقطعها قطعاً رقيقة كالورق ، ويرسلها لضيوفه الذين اصطفاهم ، ويفخر بهذه المقدرة ، وقد أخبر دزرائيلي أنه تعلمها وهو طريد من بلاده من خادم في مطعم إنجليزي كان يتعشى فيه بتسعة بنسات ؛ والملوك في روايات دزرائيلي يميلون إلى الأبهة أكثر من ذلك .

إنجلترا الشباب

« وماذا تعمل بالقدس إذا وجدته ؟ »

فخص مانرز وسميث الموقف السياسي فحسباً دقيقاً ؛ فتبين لهما أن الوسيلة الوحيدة للبقاء مخلصين لأنفسهما هي تأليف حزب مهما كان صغيراً ، ولكن يجب أن يكون لهذا الحزب زعيم مجرب ، ولماذا لا يكون دزرائيلي وهو أمامهم ؟ سافر سميث وصديقه كوكران (المعروف بينهم باسم كوك) إلى باريس لمقابلة ديزي فوجداه فيها بارزاً يتمتع كالطفل بنجاحه ، وبغرفة انتظاره المليئة بالوزراء ؛ فهو قد أشرف على الأربعين من عمره ، ولكنه ظل محتفظاً بموهبة التمتع بعظمته . وكتب سميث إلى مانرز يقول : « إنه وهو على انفراد مع لويس فيليب في سان كلو ، يتخيل نفسه مؤسساً لأسرة مالكة جديدة ، وقد نقش جداول شعره التي تشبه جداول منفريد على نقود المملكة » .

قابلهما في حماسة ، فإن الاتفاق السري بين هؤلاء إذ تعهدوا بأن يكونوا على رأى واحد عند إعطاء الأصوات وأن يقبلوا قرارات الأغلبية منهم ، لما يوافق هواء في الدسائس ، رأى على أثر ذلك اتساع هذه الجماعة وبلغها خمسين أو ستين عضواً ، وپيل وقد نوهض وقلق وغلب على أمره .

تعشى الجماعة معاً في مطعم روشيه دي كنكال بوادي مونسو ثم عادوا إلى باريس ، وظلوا يتناقشون طويلاً وهم يتمشون حول ساحة فاندوم ، وتم الاتفاق بينهم .

كان كوك أقل ارتياحاً إلى ديزي من سميث ، فقد رأى أنه كثير الحيلة كبير المطامع ، وأخذ عليه حدة الذكاء ، وضعف حاسة الفكاهة التي هي استعمال الذكاء في نقد النفس ، وعند ما اطلع مانرز كذلك على مجرى الأمور قلق بعض القلق ؛

فهل هم جميعاً يقصدون غرضاً واحداً؟ إن دزرائيلي يفكر بوجه خاص في مناهضة الحكومة ، والتلاميذ لا يفكرون إلا في ربط أصدقاء برباط عاطفي ، ويرون في مشروعات ديزي نوعاً من الجنون . وهل يمكن إسقاط پيل؟ إن ذلك أمر مستحيل ، فإن وراء رئيس الوزارة أغلبية عظيمة ، وهل ذلك مرغوب فيه؟ في اللحظة التي تصل فيها هذه الجماعة إلى أن تكون حزبا حقيقياً مضطراً إلى توضيح مثله العليا في سبيل الدسائس السياسية لا بد أن يفرق الحسد بينهم ، وتتحطم تلك الألعوبة الجميلة ، وقد كتب مانرز يقول : « لو كنت على يقين من أن دزرائيلي يعتقد فيما يقوله لشعرت بالسعادة أكثر مني الآن ، فأراؤه التاريخية هي آرائي ، ولكن هل يعتقد فيها؟ » .

كان مانرز فيما يتعلق بالدين متشدداً ؛ فهو مؤمن بدينه ، ولكن تبين بعد بضع محادثات مع دزرائيلي أن دزرائيلي ميال ميلاً كبيراً إلى مبادئ أكسفورد المعتدلة التي تسبغ على كنيسة إنجلترا روحاً خيالية من غير أن تصير كالكنيسة الرومانية . وكان سميث المستهتر يجد تسلياً في الإصغاء إلى الأحاديث الدينية لهذين الصديقين ، وقد اختلفت وجهة نظرهما إلى حد أنهما عجزا عن رؤية هذا الخلاف فككنيسة إنجلترا بالنسبة لـ ديزي هي قوة تاريخية كبرى يجب احترامها وتأييدها ، ولكن لم تمر بخلافه لحظة فكرة تعليق أية أهمية على نصوص آرائها ، أما بالنسبة لجون مانرز فالإيمان ضرورة واضحة حتى إنه لا يتصور أنه من المستطاع أن يعيش الإنسان بغير التحقق من جميع مسائل المذهب . وكتب سميث وكان بعيد النظر جداً : « إن ميل دزرائيلي إلى مذهب أكسفورد في اعتدال ، هو مثل ميل بونابارت إلى الإسلام في اعتدال » .

ما عاد ديزي إلى لندن حتى أخذت الجماعة في العمل وجلس الزعماء الأربعة معاً خلف پيل ، وأخذوا يتبادلون آراءهم عن الجلسات ، ولا يترددون في إعطاء أصواتهم ضد الوزارة ، إذا كان موقفها معارضاً لمذهب إنجلترا الشباب ، وهكذا

أعطوا أصواتهم في صف المستقلين تأييداً للقانون الخاص بحماية الأطفال (الذين كانوا عندئذ يشتغلون في المصانع أحياناً اثنتي عشرة ساعة في اليوم) ، ورفضوا أن يعطوا أصواتهم بالموافقة على إجراءات القمع في أيرلنده ، وفي هذه الحالات كانوا يبدون في جد عدم موافقتهم للحزب ، ويأخذ أحدهم في شرح مذهبهم كمحافظين يخدمون صالح الشعب .

لا شيء يضايق بيل مثل هذه الثورة المنظمة التي تستند إلى مذهب خاص ؛ فهو رجل شديد السيطرة اعتاد أن يطاع طاعة عمياء ، واعتاد أن يعامل أنصاره في شيء من البرود مع عدم الصبر ، وإذا ما جاء أحدهم يقول له في خجل : « أظن أنه يجب أن أتكلم . . . » . يجيبه في خشونة : « أظن ذلك ؟ » حتى في مجلس الوزراء إذا سمح أحد أعضائه لنفسه أن يكون على غير آرائه كان يتناول صحيفة ويتلوها غاضباً ، وقد قال عنه أحد وزرائه : « إنه يطردني إذا جرؤت على الكلام » ، وقد تضايق من معارضة هؤلاء الأطفال الثلاثة ، وذلك الروائي ، ومن الطبيعي أن يعزو المؤامرة بأكملها إلى دزرائيلي ، وأخذ يعامله كما يعامل الكلب أثناء انعقاد الجلسة ، فإذا ما وجه إليه دزرائيلي أبسط الأسئلة في الجلسة أجابه في اختصار قاطع ، وكان دزرائيلي يزيد هذا المظهر وضوحاً كأن يقول : « إن السيد المحترم بتلك الرقة التي يختص بها أصدقاؤه . . . » ؛ فيضحك المحافظون الذين كثير ما يساء إليهم بعد أن يخفوا فهم بأيديهم ، ويخفضوا من أنظارهم .

كتب السير جيمس جراهام أحد الوزراء إلى كروكر يقول : « أما عن شباب إنجلترا فإن دزرائيلي هو أقدرهم وهو الذي يحرك العرائس ، وفي رأي أنه رجل لا مبدأ له ، وأنه ليأسه عمد إلى الإيهاب ، واعتقد معك أنهم سيرجعون جميعاً إلى مطعمهم بعد أن يجروا قليلاً ، وبعد أن يقفزوا قفزات الخراف ، ولكن فرقة أو فرقتين من سوط إذا ما وضعت في محلها كافية للإسراع بهم وتأكيدهم ، ودزرائيلي وحده هو الشرير ومعه لا أرغب في أي نوع من الاتفاق ، وإذا طرد إلى صف أعدائنا السافرين فإن ذلك من صالح الحزب » .

كتبت الملكة نفسها إلى عمها ملك البلجيك وقد صارت كبيرة الميل إلى سير روبرت : إنه « بسبب جماعة من الشبان المتهوسين » كادت تحرم من وزيرها . وقد انضم بيل إلى رأى جراهام وكروكر ، وقرر أن يخرج دزرائيلي من الحزب فاذا فصل منه خسر مقعده في الانتخابات القادمة وتخلص منه الحزب ، فلم يدع في الاجتماعات العامة للمحافظين ؛ وسأل دزرائيلي الوزير عما إذا كان ذلك نسياناً أو حرماناً ، فأجيب أن إهماله كان متعمداً ، وأن السبب هو موقفه في بضعة الشهور الأخيرة .

بدأ الجمهور يعترف بوجود شباب إنجلترا ، فتلك العصابة من صغار السادة في صدارتهم البيضاء الذين يكتبون الأشعار الرديئة ويتكلمون عن فرسان العصور الماضية وأشرفها ، ويزعمون أنهم يتسلطون على العمال بالمواكب على مثال ما كان في زمن الإقطاعيات ، كانت موضع تسلية جون بول كثيراً ، ونشرت جريدة « بنش » أشعاراً موجهة إلى قاض من محكوم عليه من شباب إنجلترا وهو يطلب أن يربط خلف عربة نقل ويجلد كي يحيى عقوبة إنجليزية مفيدة . لكن كل الناس لا يضحكون ، فقد قام الأصدقاء الأربعة بسياحة إلى مانشستر وقبولوا مقابلة حسنة من جميع العمال وخطبوا فيهم ، وتكلم مانرز وسميث طويلاً إلى جماعة من أصحاب المصانع ، واعترفوا بأنه إذا كان منهم القساة والجشعون ، فإن الكثيرين منهم رقيقو القلوب ، وفي ذلك عناصر نظام الإقطاع المجدد لو عرف المسيطرون فيه واجباتهم ، وليس من الحكمة مناهضة الصناعة ، ويجب اكتساب الشباب الصناعي إلى صف المحافظين الشعبيين .

في أثناء العطلة كانوا يجتمعون جميعاً في بيت من البيوت العظيمة لأحدهم ، ويحب دزرائيلي هذه الاجتماعات ويصير فهمه لهؤلاء الشبان أمتن منه في أى وقت آخر ، فإن بينه وبينهم رابطة قوية هو الحب المشترك لكل ما يصدر عن الخيال واعتقادهم أن الحياة ليست مجرد نضال منحط على المصالح والحاجيات ، بل فيها مجال للصداقات المتأججة ، وللإخلاص السخيف والنبيل معاً ، وللشعور بالجمال ،

وقد صار جون مانرز بعد أن عرف في دزرائيلي هذه العواطف وشعر بصفتها أكثر تعلقاً به من الاثنين الآخرين ، وصار الثلاثة يكتبون إليه قائلين : « أيها السيد والقائد العزيز » ، أما هو فيشعر بعودة شبابه بينهم ، ويشعر بحرية ناشئة عن مركزهم الاجتماعى لم يعرفها قط من قبل ، وسقط عنه ذلك الاستهتار السطحى الذى فرضته عليه صعوبة الحياة ، ويشعر بفضل أصدقائه إذ يراهم ممثالين لأحلامه . دفعته العاطفة القوية مرة أخرى للرغبة فى الكتابة ، وأخذ يفكر فى رواية أبطالها سميث ومانرز وأصدقائهما ، وتعرب فى الوقت ذاته عن إيمانه السياسى ، وتظهر ضعف الأحزاب القائمة والدور الذى قد تلعبه عقيدة المحافظين ، وقد تكلم فى هذه الموضوعات تحت ظلال أشجار الحدائق العظيمة مع حلفائه ، ونجح فى أن يتصور وجود تحالف بين الأقسام الثلاثة لآنجلترا الحديثة : الأرستقراطية والشعب والكنيسة . وغلب عليه الخيال ، وابتعدت السياسة الحقيقية ، فلزم برادنهام ، وأخذ فى العمل ، وقد صار الآن على علم بتردد طبيعته فقال : « أريد أن أخلص مكتبي من الأوراق فى يناير إذا كان ذلك مستطاعا ، لأن العمل والخيال لن يمتزجا » .

نشر دزرائيلي فى مرتين متتابتين فى سنتى ١٨٤٤ و ١٨٤٥ المجلدين الأولين من المجلدات الثلاثة التى وضعها عن شباب أنجلترا هما روايتا : « كوننجسبي » و « سييل » .

ورواية كوننجسبي أو الجيل الجديد هى فى الوقت ذاته قصة أصدقائه ، ونقد لعالم السياسة ، ووسيلة اتخذها دزرائيلي كي يحدد مذهبه عن طريق الخيال ، وقد اتخذ سميث نموذجاً لبطله كوننجسبي ، وصوّر مانرز وكوكران إلى جانبه ، وأظهرهم أولاً فى أيتون وفى كامبردج متدمرين من سخافة الآراء فى زمنهم ، ومحتقرين للسياسيين من الأحرار والسياسيين من المحافظين ، المحافظين الذين لا يريدون أن يحافظوا على شيء ، والأحرار الذين يكرهون الحرية « أهى حكومة محافظة ؟

أى نعم ! أفعال الهويج ومبادئ التورى » وكوننجسبى وهو يبحث عن مذهب جديد قابل شخصاً عجيباً اسمه سيدونيا فسّر له العالم أخيراً ، وسيدونيا يهودى من أصل أسبانى ذو ثروة طائلة ، وهو خليط من دزرائيلى وروتشيلد أو هو على الأصح ما تمنى دزرائيلى أن يكون أو ما تمنى روتشيلد أن يكون ، وهو ذو عبارة قصيرة وفصاحة كاملة ، ويظهر أنه فكر فى كل الموضوعات وهو يحل أصعب المشاكل بوضع كلمات وفى هدوء يكاد يكون فوق طاقة البشر ، وإذا كان فيه عيب فهو أنه ينقصه الحب ، فأشد خطبه خطراً فيها شيء من روح السخرية الخفيفة ، وهو يمر من الجذ العميق إلى نوع من السخرية المؤلمة ، ولكن هذا الاستهزاء السطحي يخفى عقلاً متطرفاً فى الحرية وربما هو نتيجة له .

مالقنه سيدونيا لكوننجسبى هو الايمان فى الفرد النابغ ، ويسأل كوننجسبى وما قيمة الفرد أمام رأى العام ؟ فيجيبه سيدونيا : قيمة قدسية — وما الغرض الذى يجب أن يرمى إليه الشباب ؟ — يجب أن يبحث عن نوع من الحكومة يكون محبوباً لا محتملاً فقط ، وأن يكون لديه مطمع فى البطولة ، فإن أية دولة لا تكون قوية بغير هذه العاطفة ، وبغيرها تكون الحياة السياسية قطعاً من غير ملح ، والتاج زينة ، والكنيسة إدارة ، والدستور حلماً .

وينتهى الكتاب عند دخول كوننجسبى إلى البرلمان . وقد أعجب شباب إنجلترا بالكتاب إعجاباً كبيراً وصار ملحمة لهم .

لم تكن رواية سيبيلى أو الأمتان أقل قيمة منه ، والأمتان هما الأغنياء والفقراء والكتاب يظهر للإنجليز ما يجب أن تكون عليه حياة الفقراء ، وقد صور فيه دزرائيلى تعاسة القرى وتعاسة مدن العمال ، وتعاسة المناجم وموضوع الرواية مما يؤثر بسهولة ، ولكن صور حياة الشعب حقيقية ومؤثرة من غير مبالغة ، ويمكن الشعور بأنها صورت فى عطف ، ولكن فى أمانة . ولم يتخذ دزرائيلى لهجة الجد فى كتاب من كتبه مثل ما فعل فى هذا الكتاب ، فهو يترك السخرية فى كلامه عن الشعب ، واختتم كتابه فى نوع من الحماسة الحقيقية والإعجاب عن عقيدة

هي بأن يعهد إلى نخبة الشباب بالبحث عن علاج لمثل هذه الأنواع الكثيرة من التعاسات ، حيث أن الشعب لا يستطيع شيئاً إن لم يقاتل تحت زعمائه الطبيعيين وهو يقول : « ودعائي أن نعيش حتى نرى لآنجلترا مرة أخرى ملكاً حراً وشعباً سعيداً ، وفي اعتقادي أنه لا يمكن الوصول إلى هذه النتائج العظيمة إلا بنشاط شببيتنا وإخلاصهم ، فنحن نعيش في عصر لا يمكن أن تكون فيه عبارة الشباب مرادفة لعدم الاهتمام ، ويجب أن نعد أنفسنا للساعة القادمة »

تقرأ على الصفحة الأولى لسبيل هذه الكلمات : « أريد أن أهدى هذا المجلد إلى امرأة تحملها نفسها الجميلة وطبيعتها النبيلة دائماً على العطف على الذين يتألمون ، امرأة كانت صوتها الحلو تشجيعاً ، وذوقها ودقة حكمها دليلاً للمؤلف في هذه الصفحات — إلى أشد النقاد — وأكمل الزوجات » .

البلوط والقصة

من عادة دزرائيلي أن يقول إنه كلما نُشر مؤلف من مؤلفاته قفز عقله دائماً إلى الأمام ، والرواية لديه هي دائماً وسيلة للتحليل وتجربة موقف ، والمتمرن على سياسة يتبعها ، فهو يقول : « إن الشعور هو صمامة الأمان في عقلي ، ولكنني أرغب في عمل ما أتخيله » . فبعد أن أُعرب في كوننجسبي وفي سيويل عن المثل الأعلى في سياسته عاد إلى العمل في سرور ، لكن من سوء الحظ أن فكرة شباب انجلترا لم تكن إلا عاطفة لا برنامجاً ، فلم ينظر السادة ذوو اللون الشديد الحمرة واللحوم المكتنزة نظرة جدية قط إلى هذا المذهب بأجمعه ، فيجب تعرف موقع سفينته والسفر بها في الحقيقة ، فأين انجلترا السياسية الآن ؟

كان مجلس النواب تحت سيطرة سير روبرت پيل أكثر منه في أي وقت ، وكان سير روبرت راغباً في التخلص من الحكومة الحزبية ، وقد اعتد بقوته فصار يعتقد أنه يستطيع أن يفرض الإعجاب به على خصومه كما يفعل مع أصدقائه وقد وثق بما فيه من فضائل ، فصار يرى في معارضته إثمًا ، وأصيب بأخطر الأمراض السياسية وهو الطمع في مظهر الإخلاص ، وهو من الأمراض التي لا تغفو ؛ وكان يحلو لدزرائيلي في ذلك الوقت أن يكرر قولاً مأثوراً للكردينال دي رتز : « ليس في العالم شيء إلا وله وقت محتوم ، وخير المسالك هو أن يعرف المرء ذلك الوقت ويختاره » . فبعد تحليل دقيق للجو البرلماني فكر في أن اللحظة الحاسمة قد حانت ، وبعد ملاحظات طويلة وصبر وضحت له علة پيل ، فإن پيل بجميع الرجال الأذكى الذين لا يبتكرون ، به ميل خطر لا تتحالم ما يخلقه الآخرون وهو غير قادر على خلق سياسة ، ولكنه يقع في نهيم على ما يجده من هذه السياسات ، ويطبقها في شدة أكثر من مخترعيها ؛ وهكذا لأمر عجيب ، وبسبب ثبات آرائه

صار من أقل الزعماء ثباتاً ؛ فهو يدافع عن سياسة ما من بعد اللحظة التي يكون من الحكمة المدافعة فيها ، ثم إذا ما فهم فجأة اعتراضات خصومه صار من أشد المدافعين عن السياسة المعارضة ، وهكذا بعد أن حارب « كاننج » بشدة قاسية عندما أراد أن يحرر الكاثوليك صار بعد وفاة كاننج هو محرر الكاثوليك ، وهكذا بعد أن انتخبه سادة الريف للدفاع عن سياسة الحماية التجارية إذا به يندفع اندفاعاً في سياسة حرية التبادل ، وهكذا دائماً في اللحظة التي يكون فيها شديد الإيمان بإخلاصه وشجاعته العقلية يبدو للآخرين متقلباً ، ولا حظ دزرائيلي الجهة التي يحسن أن يبدأ فيها بالهجوم ، وبدأ فيه في حزم وثبات .

قامت المناوشة الأولى على أثر أحد ردود پيل ، فقد اختتم دزرائيلي بضع ملاحظات بأن ناشد الوزير بالآلا يرى فيها عملاً عدائياً بل على العكس صراحة الصديق ، فوقف پيل والتفت إلى دزرائيلي وأنشد في اختصار قاطع أبياتاً من الشعر نظمها كاننج سلفه الشهير وهي :

أحب الخصم يظهر لي جهاراً	يناضلني بأسلحة الرجال
وأما الويل صبتـه سماء	وأنكى ما يحل من النكال
بل الطاعون يدخل في خفاء	فيجتاح العباد بلا قتال
فذلك صاحب قد شب حرباً	يسميها الصراحة في المقال

اقتباس غير موفق من رجل مثل مع كاننج دور ذلك الصديق الخطر ، أو على قول البعض دور الصديق الخائن . تبادل النواب النظرات وأخذوا يرمقون دزرائيلي ولكنه لم يجب . وبعد أيام قلائل وقف دزرائيلي مرة ثانية ليعارض في النظام الذي يقضى بتذكير المحافظين بولائهم كي يوافقوا على قوانين توافق مبادئ الأحرار فقال : « إن السيد المحترم داهم الأحرار وهم في الحمام ، فخرج بثيابهم وترك لهم حق التمتع الكامل بموقفهم الحر ، وهو المتشدد في المحافظة على ثيابهم » .

فضحك النواب جميعاً ، وصفقوا له ، واستمر دزرائيلي في لهجة الجد يقول : « إذا كان السيد المحترم يرى بعض الأحيان من الخير أن يؤنب أنصاره ، فقد

نكون جديرين بهذا التأنيب ، وأقول عن نفسي إنى مستعد للانحناء تحت عصاه ولكن حقاً إن السيد المحترم إذا لجأ للاقتباسات بدلاً من التأنيب فقد يكون ذلك أمضى الأسلحة لأنه السلاح الذى يتناوله بيد أستاذ ، وعندما يستعين بمصدر من المصادر إما نثراً وإما شعراً فهو واثق أبداً من النجاح ، لأنه أولاً لا يقتبس أبداً عبارة لم يوافق عليها البرلمان فى الماضى ، ثم لأن اقتباساته دائماً موفقة ؛ فالسيد المحترم جداً يعرف قيمة إحقاق اسم عظيم فى المناقشة ، وكيف يكون تأثيره عظيماً ، فهو يسرى كالكهرباء ، وهو لا يذكر أبداً إلا مؤلفاً عظيماً ، مؤلفاً محبوباً كاسم كاننج مثلاً ؛ فهو اسم لن يذكر فى مجلس النواب على ما أثق إلا ويحدث فى النفوس أثراً ، فنحن جميعاً نعجب بنبوغته ونأسف جميعاً أو الغالبية فىنا على نهايته قبل الأوان ، ونعطف جميعاً معه فى نضاله مع التعصب القائم وتسليط الآراء العادية ومع الأعداء السافرين والأصدقاء المخلصين ، وليكن السيد المحترم مقتنعاً أن الاقتباس من ذلك المؤلف يحدث تأثيره كبضعة أبيات مثلاً نظمها كاننج عن الصداقة اقتبسها السيد المحترم ؛ فالموضوع والشاعر والخطيب ، أى اتفاق سعيد ! (تصفيق طويل وشديد) فتأثيرها فى المناقشة لا بد أن يكون حاسماً ، وإنى لو اثق أنه إذا كان الاقتباس موجهها إلى فلم يبق لى إلا أن أهنى السيد المحترم علناً لا على ذاكرته الوقادة وحدها ، وإنما على شجاعة ضميره أيضاً .

رُشقت هذه العبارات الرقيقة والمسمومة فى فن عظيم ، فقد ألقيت فى مبدأ الأمر بتواضع متصنع ، وفى صوت منخفض ومتماثل ، وفى استعداد بطيء ، ثم فجأة نطق بعبارة « كاننج مثلاً .. » فأوجد عند السامعين جميعاً لذة توقع الهجوم مما زاد فى قوة هذا الهجوم حتى صار لا يقاوم ، وهو مقنع فى كمال النطق والحلاوة الأخاذة للصوت ، وكان التأثير كبيراً والحماسة شديدة حتى إن أحد الوزراء قام ليرد فاضطر إلى التزام الوقوف صامتاً فترة طويلة ؛ وخفض پيل رأسه وامتنع لونه وصار يتنفس بصعوبة ، وبقي دزرائيلى وحده بعيداً عن الاهتمام ، وكأن المؤثرات البشرية تمر به من غير أن تترك أثراً فيه . وكتب سميث إلى مارى آن يقول :

«إن المنظر كان يملك على البكاء سروراً». وصار والده العجوز الأعمى في برادهم يكررو وهو جالس إلى جانب سارة: «الموضوع والشاعر والخطيب، أى اتفاق سعيد!»
شعر پیل بمرور العاصفة فوقه، وهو رجل رقيق الإحساس تعود الاحترام ووجد صعوبة كبرى في كبج مشاعره، كيف رضى المجلس أن يعامل أكبر رجال البرلمان هذه المعاملة من رجل متبجح؟ وأى ظلم... كاننج؟ نعم إنه أحب كاننج، وكانت الظروف معقدة والأخطاء من الجانبين كما يحدث أبداً، حاول أن يفسر موقفه، لكنه شعر بعداوة جمهوره له فتحول غضبه تحولا دقيقاً إلى عداوة شديدة نحو المصالح الزراعية التي رفعته إلى السلطة، وقد زادت إرادات الميزانية على النفقات، فطلب الكثيرون من المحافظين أن تستعمل هذه الزيادة لإعانة الزارعين، وطلب پیل رفض هذا الاقتراح بواسطة أحد وزرائه دون أن يكلف نفسه عناء الكلام، وانتظر المجلس وهو نافذ الصبر، بين القلق واللذة، من دزرائيلي أن يتكلم، ومن المحزن أن ترى ملامح روبرت النبيلة وقد ارتعشت وامتقع لونه، ولكنه منظر مرغوب فيه، وهكذا يحدث عندما يدخل حيوان جميل من حيوانات القتال إلى الساحة وشعره يبرق من القوة والصحة، فإن الجمهور يتألم مقدما، ويشعر بلذة وهو يرى الملوحين بالقماش الأحمر يشيرون من غضبه

وجه دزرائيلي الخطاب في هذه المرة إلى أصدقائه من أصحاب مبدأ الحماية، وأخذ يعتب عليهم في سخرية، لم هذه الشكايات غير المعقولة من مسلك رئيس الوزراء؟ «بلا ريب أن هنالك اختلافا بين موقف السيد المحترم كزعيم المعارضة وكوزير للتاج، لكن هي القصة الأبدية، فيجب أن لا نعرب في المقابلة بين ساعات التودد والغرام القصيرة والسنوات الطويلة بعد الوصال والامتلاك، ليس إلا حقا أن السيد المحترم جداً قد تغير، إني أتذكر خطبه عن الحماية، وهي خير ما سمعت من خطب، وكان عظيماً أن نسمع السيد وهو يقول: «إني لأفضل أن أكون زعيم السادة الإنجليز على أن أكتسب ثقة الملوك...». كان هذا القول

عظيما ، نحن الآن لا نسمع كثيراً عن السادة الإنجليز ولكن ماذا ؟ لم تزل لهم متعة الذكرى وجمال التفكير في الماضي ، هم غرامه الأول ، وإذا كان لا يركع أمامهم الآن كما فعل في ساعات ولهم ، فإنهم يستطيعون أن يتذكروا الماضي ، ليس أقل فائدة وأتعس من مناظر الاتهام والعتاب ؛ فنحن نعرف في مثل هذه الحالات أنه إذا زال سحر المحبوب لم يبق فائدة من الالتجاء للعواطف ، إنكم تعلمون أن ما أقوله صدق ، وكل رجل وأكثر الرجال قد مر بهذا الدور ؛ فأصدقائي المحترمون يشكون من السيد المحترم ، وعمل السيد المحترم ما يستطيعه لكي يظلوا هادئين ؛ فهو أحياناً يلتجئ إلى صمت المتكبر ، وهو أحياناً يعاملهم في برود العنيد ، ولو عرفوا الطبيعة البشرية لفهموا ولزموا الصمت ؛ ولكنهم يرفضون أن يسكتوا . وماذا يحدث ؟ ماذا يحدث دائماً في مثل هذه الظروف ؟ إن السيد المحترم جداً وهو مرغم على العمل يرسل لهم تابعه ليقول في رقة : « إننا لا نستطيع أن نسمع هذه التأوهات أمام بابنا » ، هذه ياسيدي تماماً حالة الزراعة تلك الحسنة التي شغل الناس بها وخانها عاشق .

من المستحيل أن ننقل صورة عن تأثير هذا الكلام ، فإن نعمة الإلقاء كان لها أثر كبير ، وقد قيل كل هذا في صوت منخفض متماثل ينقطع عند ما يعلو التصفيق والضحك ، ثم يعود متماثلاً دون مجهود ظاهر كمجرى مستمر من الفكاهة والتأنيب يتساقط قطرة قطرة على الوزير في هيكله الكبير ، وكان المجلس في الوقت ذاته تحت تأثير اللذة والحجل ، وقد تخوف من قوة ذلك الرجل الذي جرؤ على مجابهته ، كانوا يصفقون دون أن ينظروا إليه ، وقد جذب بيل قبعته فوق عينيه ولم يستطع أن يخفي حركته العصبية ، وتتم لورد جون رسل قائلاً : « كل هذا حق » ، وضحك « أليس » الفظيع نفسه ، وظهرت علامة السرور على « ما كولي »

جاءت العطلة البرلمانية لحسن الحظ بشيء من الهدوء لسير روبرت وشعر براحة إذ ذهب إلى عائلته في الريف ؛ فقد كان هذا الوزير الشديد أرق الأزواج

والآباء ، ولا ريب في أن دزرائيلي نفسه وهو شديد التأثر بالعواطف المنزلية كان يشفق عليه لو قرأ الرسائل التي يرسلها سير روبرت إلى لادى پيل :

حببتي العزيزة .

لا أستطيع تحمل فراقنا أكثر من ذلك ، فإن نوعاً من التعب والشوق يطغى علىّ هنا ، وإن العودة في نحو الساعة الثانية أو الثالثة من الصباح إلى بيت مهجور وأن أجد غرفتنا فيها منضدة زينتك وقواريرك وغرفة الأطفال مهجورة ، وجميع الغرف ساكنة وغير مأهولة مما لا أستطيع احتماله أحياناً . خبرى جوليا الصغيرة أنني محتفظ بساعتها ، وأنى أملؤها في كل مساء وأراقبها .

لكن الوجوه الحقيقية للرجال تبقى دائماً تقريباً مخفية أمام الذين لا يعرفونها إلا في الحياة العامة ؛ فيل ودزرائيلي يقفان وجها لوجه ، وكل منهما ظالم للآخر وكل منهما جدير بالاحترام ، وكل منهما مغلق ؛ فهما فارسان وضعا الخوذة فوق رأسيهما يتقاتلان ، ورماحهما لا تقابل غير الحديد ، ولم يرفع قط أحدهما قناع الآخر عن وجهه .

ما بعد پيل عن البرلمان حتى استرد ثقته ؛ فقد وجد على مقربة من زوجته الظريفة وقصره الجميل في درايتون عالماً متلامماً هو سيده المطلق ، وجواً من الثقة والمديح أحيا فيه الأمل ، وعلى كل فقد انتهى دور الانعقاد من غير هزيمة وهو لا يزال قوياً كما هو دائماً ، وليس للأحرار غالبية توصلهم إلى الحكم فمن صالحهم تأييده ، ولا ريب في أن سادة الريف صاروا يكرهونه الآن ، لكنهم سيظلون يخشونه ويخدمونه كالخراف ؛ فهو قد خسر قلبهم ولكنه لم يخسر صوته ، ولم يزل كوبدن يقول : « لا خليفة الأتراك ولا قيصر الروس له من السلطة ما لپيل » ؛ فإذا نظر هذا الأسد بعد أن زالت عنه الوحشة إلى دزرائيلي الصغير بدا له دزرائيلي كالذبابة .

مع ذلك كان شهر يوليو كثير المطر ، وهذا المطر الذي أغرق مباراة الفروسية في إجلنتون نشأ عنه السيل الذي سوف يجرف پيل .

كتبت سارة ليزى الذى سألتها عن أخبار المحصول . . . « إن المطر ينهمر حتى أن الحمام لا يجد مكانا غير مبلل في هذا الطوفان ، وسيكون المحصول سيئا جداً » ، علم پيل في شهر أغسطس أن مرضاً أصاب البطاطس . وتلاءم الخوف من المجاعة في إنجلترا تلاًوما كبيراً مع نظريات التعامل الحر التي أخذت عواطفه تزداد ميلاً إليها حتى اعتنق هذه النظريات ، ومالبت أن استعمل كلمة « المجاعة » ، إذا تلفت البطاطس فلا بد من مجاعة في أيرلنده ، وليس في إنجلترا حنطة لمساعدة أيرلنده . إذن ليس من حل إلا إلغاء الرسوم على الحنطة ، وتطلق الحرية أخيراً لدخول الأغذية . نعم يجب فتح الموانئ وإلغاء هذه الرسوم الفظيعة . وماذا يقول الحزب ؟ هلا يصيح متهما إياه بالخيانة ؟ لا يهمل ذلك إلا قليلاً ، فإن پيل على استعداد للتضحية فكوبدن وبرايت سيوافقان على رأيه ، ويلقى دزرائيلي خطبة ساخرة تلهي المجلس ساعة ، لكن پيل يقف أمام الأجيال القادمة على أنه الرجل النافع الذى ضحى بمصالح حزب في سبيل مصالح البلاد .

مالبت لندن أن علمت بانعقاد مجلس الوزراء أربع مرات في أسبوع واحد ، وأن پيل وقد خلع المبادئ التي أوصلته إلى السلطة يريد إلغاء الرسوم على الحنطة ، وأن لورد ستانلي هدد بالاستقالة ، وأن الحكومة أشد مرضاً من البطاطس . دهش الناس جميعاً لما اعترى پيل من ذعر ، وقال لورد ستانلي : إنه لا يفهمه ، فالمحصول في أيرلنده لا تعرف حقيقته إلا بعد شهرين ، واستيراد الحنطة لا يطعم الأيرلنديين الذين ليس لديهم فلس لشراؤها ، ثم إن پيل يتكلم عن إبقاء رسوم خفيفة مدة ثلاث سنوات ، وفي ثلاث سنوات تكون المجاعة بعيدة ، أجب رئيس الوزارة أن الأزمة عالمية ، وأن جميع الأمم تمنع إصدار المواد الغذائية . فقال ستانلي : إذا لم يكن هنالك ما يستورد فلماذا نغير جميع السياسة الجمركية للبلاد ؟ ، لكنه لم ير أن القرار كان عاطفياً لا منطقياً . اشتد اهتمام الناس وتساءلوا : « وما رأى الدوق ؟ » ، وكان الدوق لا يحب هذه المغامرة وقال : « إن هذه البطاطس العفنة هي التي سببت كل الضرر فهي التي دفعت پيل إلى هذا الخوف الشديد » ، وهمهم

قائلاً : « إنه لم ير في حياته رجلاً في مثل هذا الفزع » . لكن الدوق وقد اشتد به الميل إلى الصمت كان يرى من الشرف أن يطيع الأوامر مهما كانت ، وأظهر استعداداه لأن يصدر أمره مرة أخرى قائلاً : « ياسادتي اللوردات استديروا نصف دائرة إلى اليمين ! ثم سيروا » ، علم دزرائيلي بالأخبار وهو في زيارة أخرى لباريس ، وقال لنفسه : « إن هذه البطاطس العفنة سوف تغير مستقبل العالم » .

قال له تيرس : « إذا كانت المجاعة حقيقية فسيصير پيل رجلاً عظيماً ، أما إذا كانت غير حقيقية فسيكون أضحوكة » .

عندما صدر القرار استقال ستانلي ، وتبعته الوزارة بأكملها ، ودعت الملكة لورد چون رسل الذي رد إلى پيل في الحال الكأس المسمومة التي قدمها هذا إليه لكن پيل وجد السم حلو المذاق ، وقال للملكة : « سأكون وزيرك على كل حال » . وكتب إلى صديق : « إنه حلم عجيب وإني لأشعر كرجل يعود إلى الحياة » ، وما سماه الآخرون خيانة ظهر في عينه تحولاً مقدساً ، وكررت الملكة والبرنس البرت له القول ، وهما من المتحمسين لحرية التعامل ، بأنه سينقذ البلاد ، وهو يعلم بأنه لا يقهر ، وليس هنالك من يريد أن يحل في مركزه ، وستنصلح الأمور وهو مثل عوليس ، الوحيد الذي يستطيع أن يشد هذا القوس .

عاد البرلمان إلى الانعقاد ، وتألف في مجلس اللوردات حزب من أنصار الحماية الجرمكية يديره ستانلي لمقاومة پيل ، وذهب كروكر لدراسة الحالة في أيرلنده ، فأخبر زعيمه أن المجاعة كما قال تيرس : لم تكن حقيقية ، وكتب چون مارنرز إلى دزرائيلي يقول : « إن المجاعة لا ظل لها من الحقيقة ، وإن المنتظر أن يكون المحصول في السنة القادمة جيداً جداً » . لكن أيرلنده لم يكن لها علاقة بقرار پيل أكثر من « كاتشاتكا » فهو خاضع لأزمة عقلية ولا شيء يوقفه ، ومن الجلسة الأولى أخبر الحزب أن جميع آرائه الاقتصادية تغيرت ، وأصغى السادة الريفيون مستفظمين لتصريحاته ، ولكنه ألقاها بلهجة السيطرة حتى إنه لم يسمع أقل لفظ ، وفضلاً

عن ذلك ظل رئيس الوزارة محتفظاً بمهارته في الجدل البرلماني في هذا السير نحو الاستشهاد ، ففي أحد الأيام وقف جلادستون ليتكلم وسأل سير روبرت في صوت منخفض : « هل اختصر الكلام وأوضحه ؟ » ، فقال له الزعيم : « لا بل أطل فيه وأسهب » ، وهذه هي الطريقة التي اتبعها في هذه الجلسة الصعبة ، فقد ظل يخطب هذا المجلس المأخوذ في أسعار الكتان وأسعار الصوف بلا انقطاع ، ومزج كلامه يبحث في السمن ، وآخر عن عقود اللحم المملح للبحارة ، كان كل ذلك عادياً مملاً حتى أن السامعين وهم يرون هيكـل سير روبرت المعروف وهو واقف أمام صندوقه الأحمر وأمامه سير چون بملاحه الحزينة وقد اختفى نصف وجهه تقريباً بالقبعة العريضة ، تساءلوا عما إذا كانت هذه المأساة حلماً ؛ هكذا كان فن هذا الأستاذ في المناقشات البرلمانية ، وهو يعرف في بعض الأحيان قيمة النزول بالمناقشة وإعطائها جواً من الحقارة ، أو على قول دزرائيلي يعود من الآلة البخارية إلى المغلاة .

ظهر كأن الستار ستسدل بالرغم من كل شيء على نجاح حكومي حين وقف دزرائيلي ، وبعد أن علق ببضع عبارات على نعمة رئيس الحكومة في كلامه وهي نعمة لا تحتمل من رجل يعلن تغيير سياسته تغييراً كلياً ، استمر في صوته المتماثل وقد وضع أصابع يده في صدره : « سيدي : إنه من الصعب أن نجد في التاريخ لموقف السيد المحترم شبيهاً ، والمثل الوحيد الذي أذكره الآن هو حادث من حوادث الحرب الأخيرة في الشرق الأدنى ، فإني أذكر أنه في زمن ذلك النضال الكبير ، وكان وجود الإمبراطورية العثمانية في كفة الميزان ، أنشأ السلطان أسطولاً كبيراً للدفاع عن إمبراطوريته ، واختار رجاله من نخبة الرجال ، وضباطه خير الضباط لديه ، وكوفي الضباط والجنود جميعاً قبل الموقعة ، ولم يغادر الدردنيل قط مثل هذا الأسطول في عظمته منذ عهد سليمان العظيم ، وشاهد السلطان بنفسه هذا الأسطول عند سفره ، وصلى جميع رجال الدين داعين للحملة بالنجاح ، كما صلى جميع رجال الدين من أجل نجاح الانتخابات الأخيرة ، وسافر الأسطول ، لكن

ما كان أشد حسرة السلطان عندما رأى الأمير الأ كبر لهذا الأسطول يسير به رأساً إلى موانئ العدو . سيدى : لقد أنحى الناس باللوم على الأمير الأ كبر فى ذلك الوقت ونعت أيضاً بصفات الخيانة ، ولكنه حاول أيضاً تبرير عمله فقال : حقا إننى وضعت على رأس هذا الأسطول العظيم ، وحقا إن مليكى عانقنى ، وحقا إن جميع رجال الدين فى الإمبراطورية صلوا من أجل نجاح الحملة ، لكنى لا أحب الحرب ولا أرى أى سبب لإطالة هذا النضال ، وغرضى الوحيد فى قبول القيادة هو إنهاء هذه الحملة بأن أخون مليكى » (تصفيق شديد من المحافظين) .

اعترف دزرائيلى صراحة أن للناس رأيهم فى تفضيل حرية التعامل أو سياسة الحماية ، لكن الشئ الذى لا يقبل أن مجلساً أنتخب ليتبع إحدى السياستين يفخر باتباع السياسة الأخرى ، وأن رجلا اختاره المليك لثقة حزب به يأتى ليقول إن ثقة هذا المليك تسمح له باحتقار الحزب ، وإنه لا يحفل قليلا بحكم المجلس حيث إنه واثق من حكم الأجيال القادمة .

دام الهتمام عدة دقائق ولم يكن موجها للفنان والخطيب فقط ، فإن الرجل السياسى وجد الأرض الصلبة ، فما انتهت الجلسة حتى أحاط بدزرائيلى سادة الأرياف وتكلموا فى إنشاء حزب لسياسة الحماية فى مجلس النواب ومقاومة رئيس الوزراء .

كان دزرائيلى منذ ثلاث سنوات يقابل كثيراً عضواً من أعضاء البرلمان يختلف عنه كل الاختلاف ، هو لورد جورج بنتنك ابن دوق بورتلند ، وهو معروف بصفة خاصة بأنه صاحب حظيرة من أكبر حظائر الخيل فى المملكة ، وهو الحاكم المطلق فى عالم السباق ، وقد طهره من « الجوكية » عدى الأمانة وصار محترماً فى عالم السباق عن جدارة ، وبالرغم من شدته العظيمة كان خدام الخيل عنده يعبدونه وهم يقدرون صراحته المتناهية وقوة حبه للجياذ ، كان لورد جورج يراهن على كل جواد من نسل جياده ولو من الجيل الثانى ، ولا يخرج جواداً دخل

حظائره حتى الموت ، ويعتبر من إنكار الجميل بيع جواد عجوز لأنه لا يستطيع العدو .
دخل عضواً في البرلمان منذ ثمان سنوات ، لكنه لم يتكلم فيه قط ، يعتبر
المجلس كأنه نادٍ ، وكثيراً ما يدخل إليه وقد ظهرت الياقة الحمراء لسترة الصيد
تحت المعطف الأبيض ، ويستمد بعض نفوذه من أنه صديق أكيد ورفيق لجميع
الأعضاء الذين يهتمون للجياد (وهؤلاء كثير) والبعض الأكبر من تقدير المجلس
جميعه لأخلاقه الشخصية ، وهو معروف بأنه عنيف ، لكنه وفي لأصدقائه بقدر
ما هو شديد في عداوته ، وبالرغم من ضعف ثقافته كان صائب النظر
بصيراً بالأمور .

منذ سنة ١٨٤٢ صار دزرائيلي كثير التردد على لورد جورج ومصاحبته ،
وقد يظهر أن الصداقة صعبة بين رجل الجو المطلق الذي لا يفتح الكتاب
إلا نادراً وبين الكاتب المحدث شيئاً ما ، الذي يفرض على نفسه ركوب الخيل
أحياناً على أنه واجب ، لكن دزرائيلي ينجذب بلا ريب انجذاباً لا يقاوم نحو
هذه المخلوقات القوية المعتادة على الهواء الطلق لما بينها وبينه من تباين ، وكان
يشعر شعوراً قوياً بما فيه من حساسية شديدة تبلغ حد المرض ، ولهذا السبب
نفسه كان يعجب بما فيها من عدم مبالاة عظيمة . وذهب في صداقته للورد جورج
إلى حد الاشتراك معه في مهرة ذات أصل عريق اسمها كيتي ، هي ابنة لأحد الجياد
التي كسبت سباق الدربي ، أخذ المدرب « چون كنت » ينظر بعين الريبة إلى
ذلك الرجل العجيب الممتقع اللون الذي عشي في حظائر السباق في حذر ، ويتكلم عن
الخيل بلغة عادية ، وخيل إليه أن هذا الزائر الغريب الأطوار يظهر من الاهتمام
بشئون الخيل ما لا يشعر به ، وأنه بدلاً من أن يقنعه لورد جورج باعتناق دين السباق
فهو يحاول أن يكسبه لدين السياسة ، وفي بعض الأحيان إذا ما ذهب المدرب عند
المساء ليخبر سيده بحال الخيل في مرانها أثناء النهار كان يجد السيد وصديقه
جالسين أمام الموقد وهما يقلبان كتباً زرقاء ، فيترك چون كنت الغرفة وفي نفسه
قلق وخوف .

في اليوم الذي أعلن فيه سير روبرت پيل تغير سياسته ، خرج لورد جورج بنتنك من صمته كما يخرج الأسد من عرينه ، فهو بطبيعته يكره عدم الولاء ، فصار من أشد المتحمسين لتأليف حزب في الحال من مؤيدي مذهب الحماية ، وطلب إليه دزرائيلي على أثر ذلك أن يكون زعيمه في مجلس النواب ، وأجاب بنتنك : « إني رجل نلت قسطاً ضئيلاً من الثقافة ولست بطبيعتي ميلاً للحياة السياسية ، وأعرف أنني غير كفء لهذا المركز ، لكنني أقبل إذا كنتم في حاجة إليّ » . وهم في الواقع محتاجون إليه ، فإن مقامه ومركزه يطمئنان أولئك الذين يترددون في السير وراء دزرائيلي ، وقد أظهر مع ذلك في النضال أنه أشد بأساً مما ظن ، كان له صوت صغير عجيب يظهر كأنه ينتزعه بصعوبة من جسده القوي ، وحركاته غريبة ، وهو لا يقدر على قطع الكلام إذا ما بدأه ، لكن إرادته لا تتزعزع ، وهو صبور على العمل في جمع الوقائع والأرقام ثم يسردها في عنف عظيم ، وتفهم إخلاصه وقوة العاطفة التي دفعته إلى العمل عند ما تعلم أنه في اليوم الذي قبل فيه مركز الزعيم لأصحاب الحماية أمر ببيع جميع جياده ، وقد تحققت النبوءة المؤلمة التي تنبأ بها مدرب الخيل . ومنذ ذلك الوقت واظب بنتنك على حضور جميع الجلسات ، ولما كان من عادة هذه العائلة أن ينام أفرادها بسهولة بعد الطعام فقد فرض على نفسه الصوم كل يوم حتى اللحظة التي يخرج فيها من المجلس ، وهذا النظام مع ما للعمل العقلي من تأثير في هذا الرجل الذي ألف المعيشة في الهواء الطلق كان له أسوأ الآثار على صحته .

قال أصدقاء پيل وهم يضحكون : « بنتنك ودزرائيلي أي تزاوج ! » ، ولكن ظهر عند أخذ الأصوات لدى القراءة الأولى لقانون الخنطة أن ١١٢ عضواً فقط من أعضاء الحزب أعطوا الأصوات لپيل بينما ٢٤٠ منهم « حافظوا مع بنتنك على شرفهم » . لكن الوزارة نالت أغلبية مؤلفة على الأكثر من معارضيها الأحرار ، وصار من الجلي أنهم يخذلونها بعد مرور القانون ، وأن پيل منذ ذلك اليوم محكوم عليه بالسقوط . وأخذ بنتنك ودزرائيلي يعاملانه معاملة شديدة أثناء

القراءات الثلاث للقانون ، ولم يقتصدا قط في الألقاب التي نعتا بها الوزارة ، وكما اشتدا في القول كلما ظهر الرضاء على المجلس ، سمي دزرائيلي رئيس الوزارة : « ذلك الذي يسطو على الآراء وهو لص المذاهب » ، وكان يتكلم عن ذلك المضارب السياسي الذي يشتري في أقل الأسواق سعراً ويبيع في أعلاها ؛ وكان بنتنك أقل اختراعاً للألقاب وأشد وحشية ، فآلم جون مانرز الرقيق العاطفة المذهب بعدم تبصره . وعند ما وقف پيل ليردد ذكر كلمة الشرف قابله المجلس بصياح الاستنكار وإشارات الاحتقار ، وحاول رئيس المجلس تهدئة المجلس مراراً فعجز عن ذلك ، وخيل إليه أن دموع الوزير الكبير تكاد تنحدر من عينيه .

بعد هذه المناقشات العديدة التي تنهى كثيراً في الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح ، يعود دزرائيلي إلى داره فيجد ماري آن وقد استيقظت وأشعلت بالحطب ناراً كبيرة في الموقد وأضاءت جميع الأنوار ، وهي تريد أن تشعر زوجها عند دخوله الدار بتأثير الراحة والسرور ، وفي بعض الأحيان تذهب في عربة إلى باب البرلمان وتنتظره بعض الليل وقد وضعت على ركبتها طعاماً بارداً . يروي عن إخلاصها أنها صحبت ديزي إلى المجلس ذات مرة في يوم مناقشة هامة وجرحت يدها إذ أقفل عليها خادم الباب فجأة فصبرت ولم تقل لزوجها شيئاً حتى لا تقلقه في لحظة هو في حاجة إلى الهدوء فيها . وكانت لادي پيل أيضاً في الريف تؤيد زوجها برسائل مؤثرة فتقول : « إني أقرأ الصحف حتى يخونني جلدي ... ولا أسألك إلا شيئاً واحداً : هل أنت على ثقة على الأقل من أن تستطيع أن تبرهن على نزاهتك وحكمة مسلكك ، وهل تجد العدالة بعد هذه الإهانات القاسية ؟ إذا كان الأمر هكذا فقد أستطيع أن أجد الشجاعة ... وأأسفاه . إني أعتقد الآن في الحظ وأعترف أن حظي سيكون عاثراً ، ليرعاك الإله في كل الأمور ويحفظك ... لست إلا قصبة ضعيفة ، ولكن اتخذني تكئة ، فإنك ستجد دائماً خلاص والحب » .

كان اللوردات قادرين على إيقاف القانون ، ولكن دوق ولنجتون حملهم

على الموافقة عليه ، وكان منظره حزيناً وقبعته على عينيه ، وكان في أشد حالات غضبه وهو يجيب المعارضين ويقول : « إننى تماماً من رأيك ياسيدى ... فهى حركة ملعونة ، لكن يجب أن أنظر إلى سلم البلاد وراحة الملكة » . ونشرت مجلة نيش خبراً صغيراً تحت عنوان جريمة الزواج من امرأتين جاء فيه : « جىء بشخص اسمه پيل أمس أمام مستر بول القاضى وهو متهم بزواج امرأة اسمها حرية التعامل ، مع أن زوجته الأولى وهى الزراعة لا تزال حية » .

في مساء اليوم نفسه الذى ووفق فيه على قانون الحنطة فى القراءة الثالثة هزم سير روبرت باتفاق أصحاب الحماية والأحرار وتم جاره فى أذنه : « يقال إننا هزمنا بأغلبية ٧٥ صوتاً » ، لم يجب سير روبرت ، بل لم يدر رأسه وظهر عليه الحزن الشديد ومد ذقنه إلى الأمام ، وهى عادة له حين يتألم ولا يريد الكلام .

زعيم

« إن ذوى العقول الكبيرة يجب أن
ينتظروا نجاح ذوى المواهب المتنوعة وذوى
الذكاء الكبير ثم لا ينتظرون غيرهم »
دزرائيلي

ما أشد مرارة الانتصار إذ يتخيل الرجال في سباقهم الطويل نحو الموت
مواقف سعيدة ، وأنه بعد بضع خطوات تنتهى مرحلة اليوم ، ثم تأتى الراحة
حول الموقد ، ولكن ليس فى مجرى الزمن المستمر راحة ولا مواقف ، وفى كل
مساء يكون الماضى جالما والمستقبل سراً .

أصبح ذلك العملاق الضخم الذى احتقر داود ملقى على قارعة الطريق ،
وصارت جنود المحافظين التى انقسمت شطرين تفر فى جهات متعارضة ، وتولى
لورد جون رسل وأحراره السلطة من غير منافس ؟ فماذا يكون شأن بنيامين
دزرائيلي فى تلك الفوضى الكبيرة .

لقد قضى فى هذه الحملة خمس سنوات تعلم فيها أشياء كثيرة ، وقد وجد فيه
مانرز وبنتنك ، وهما من أشد الحكام ، رفيقاً أميناً فى القتال كسب ثقتهمما وكان
يعرف أنه جدير بهذه الثقة ، وعلى الرغم من علمه بتفوقه على بنتنك ورغبته الشديدة
فى أن يكون زعيماً للحزب عزم على أن يخدم بإخلاص كمساعد مادام بنتنك
فى مركز القيادة ، وقد تعلم أن الإخلاص والشجاعة يفيدان الرجل أكثر مما
يفيده تأنيق ثيابه أو بريق عباراته ، وأن العظمة الكاذبة لا تدوم ، وأن الإخلاص
إلى الحزب ولو كان ناكراً للجميل هو فضيلة سياسية لازمة ، وقد صارت قيمته
أكبر وأكبر كثيراً من ذلك الشاب المتأنق الذى دخل برلمان سنة ١٨٣٧ .
لكن مركزه لم يكن متيناً فإن أصدقاء پيبل وجلادستون وجراهام ونخبة

المثقفين في الحزب كانوا يمتقونه ، وأقسموا أنهم لن يتفقوا معه بعد ذلك ؛ وكانت الملكة في البلاط والأمير ألبرت خاصة ، وهو رجل شديد على الفكرة ، يعتبرانه رجلاً طموحاً بلا مبادئ أقدم على تعذيب سير روبرت الوقور والعزيز لديهم لمجرد الحسد ؛ وبدأ سادة الريف الذين تبعوه في حدة القتال من غير تفكير كبير يتراجعون ، وبالرغم من ارتدائه الآن ثياباً سوداء فجرد شكل سحنته بينهم جعل له منظر طائر الأبيس أو البجعة ، وقد ضل طريقه إلى حقل بيت إنجليزى ، وإذا ما أضاءت الشمس مقاعد المحافظين بدت جميع الوجوه بيضاء ، إلا وجهه يصير أشد سواداً ، وقد قلقوا لسعة اطلاعه فحاول أن يطمئنهم بأن يطفى من ذكائه ، وأعلن أحد كبار أصحاب الأراضي بعد محادثة معه أن مستر دزرائيل ليس بالرجل الشديد الذكاء ، لكنه رجل جدير بالإكبار حقاً ، وهذا يدل على ما تركه من أثر حسن ، لكن مثل هذا الرأي نادر جداً .

ذعر المحافظون في أعماق أنفسهم إذ أسقطوا بيل ، وشاهدوا هذا السقوط بأعينهم لكنهم لم يصدقوه ، فكيف استطاع ذلك الساحر العبرى ذو الجداول السوداء ، أن يجعل هذا الرجل العظيم الجميل يختفى ؟ لم تعد شخصية دزرائيل تتمزج عندهم بما هو فكاهى بل صارت لها مكانة خفيفة ؛ فبعد أن تمزق قناع الاستهتار اكتشفوا من ورائه ساحراً قديراً لكنه خفيف . وأخطر الأمور أن لورد ستانلى زعيم حزب الحماية فى مجلس اللوردات ورئيسه الحقيقى لم يجب دزرائيل قط ، لا ريب فى أنه لا يقول الآن ما قاله فى الماضى : « إذا دخل هذا الدعى فإنى أنسحب » ، صار يعترف أن مسلك دزرائيل أثناء السنوات الخمس لا يحتمل الشك فى إخلاصه ، لكنه يشعر نحوه بعداء يكاد يكون جسدياً ، كان ستانلى سيداً كبيراً من سادة القرن الثامن عشر قليل المبالاة محباً السخرية ، مفكراً فى نفسه مرحاً فى مظهره ، يفخر بأنه يحسن كل الأعمال ، لكنه لا يتقن عملاً بذاته ، ترجم هوميروس فى شعر إنجليزى لا بأس به ، ورجح أحد جواده المكان الثانى فى سباق الدربى ، ليس له برنامج سياسى ، ولا يضايقه شىء

أكثر من تحرير هذا البرنامج ، وهو يمتدح الالتجاء إلى المبادئ الأولية وإلى تفسير مسلكه ، يحب مظهر الهدوء وعدم العناية ، وقد تضايق للذعر الشديد الذى استولى على بيل ، ولم يكن أقل تضايقاً من مطامع دزرائيلى الحادة ، وهو رجل مندفع لكنه يتعب من النضال بسرعة ويخشى من النشاط الدائم الذى يتجلى فى السوق ، وهو يعترف اعترافاً كاملاً بمواهب دزرائيلى ، هذا وربما ، من يعلم ؟ بإخلاصه — إلا أنه يجد من حقه ألا يدعو للعشاء لديه ، وإذن لا يتخذ زميلاً له فى إدارة الحزب .

فى هذه اللحظة التى يجب فيها أن يُطمئن برلماناً قليل الثقة ، وأن يبدد الجو العجيب الذى تجمع حول اسمه ، أقدم بنيامين دزرائيلى عضو البرلمان على عمل من أبعد الأعمال عن الحكمة ؛ فقد نشر رواية دينية النزعة .

هذه الرواية التى عنوانها « تنكريد » هى قصة سيد إنجليزى صغير حج إلى القبر المقدس ليحاول فهم السر الأسوى ، اتخذ المؤلف هذا الموضوع حجة لشرح نظرياته عن اليهودية وعن الكنيسة ، وفى رأى دزرائيلى أن الدور الذى تقوم به الكنيسة هو الدفاع فى عالم مادي عن بعض المبادئ السامية التى وردت فى العهدين القديم والجديد ، وأهمها الاعتقاد بالدور الذى يقوم به ما هو إلهى وما هو روحانى فى هذا العالم . صار من عادة الناس الذين ينظرون نظرة سطحية أن يقولوا عن دزرائيلى إنه شرقى النزعة ، لكنها صفة غير حقيقية ، وحكم تعوزه قوة التفرقة بين مميزات الألوان ، فهو قد ربى فى إنجلترا ونشأ على التفكير الإنجليزى ، وهو محاط بأصدقاء من الإنجليز ومتعلق تعلقاً شديداً بإنجلترا ، فهو أبعد من يهود الشرق منه إلى جورج بنتنك ، لكنه يختلف كذلك اختلافاً كبيراً عن أصدقائه ذوى الدماء الإنجليزية ، وهو يشاطر الشرقيين بوجه خاص فى تلك العاطفة المزدوجة التى تجمع بين الرغبة فى متع هذا العالم والشعور بأن هذه المتع زائلة وباطلة .

تأكيد كتاب عجيب فيه شجاعة وفيه طيش ، ضايق الكثيرين من الناس ، ورأى كارليل أن الأباطيل اليهودية فيه مما لا يحتمل ، وتساءل إلى متى يسمح چون بول لهذا القرد القبيح بأن يرقص على بطنه ؟ ومن حسن حظ دزرائيلي أن الكثيرين من زملائه لا يقرأون أبداً . لكن بعد وقت قصير من سقوط بيل دعتة الظروف إلى تفسير مذهبه في انعقاد مجلس النواب ، فقد انتخب حي التجارة والمال في لندن ليونيل روتشيلد عضواً في البرلمان ، لكنه لم يستطيع الجلوس فيه لأن القانون يتطلب منه القسم بالعقيدة الحقيقية للمسيحي ، اقترح اللورد چون رسل إلغاء هذا النص وفاء بمذهب الأحرار في أن « كل إنجليزي ولد في إنجلترا له الحق في جميع مزايا الدستور » ، وأعطى جميع رجال حزب الحماية أصواتهم معارضين رسل ماعدا دزرائيلي وبنتنك ، وهذا الأخير لمجرد صداقته لدزرائيلي ، وقد خطب دزرائيلي معلناً للمجلس المندعش أن أكبر خطأ يرتكبه حزب المحافظين هو اضطهاد اليهود وهو عنصر محافظ بطبيعته ، لكن بتلك العاملة يلقى به إلى أحزاب الثورة والاضطراب ، فيحملون إليها قيادة عقلية عظيمة ، وهو كمسيحي سيؤيد اليهود بصوته ، وقال : « إنكم تلقنون أطفالكم تاريخ اليهود ، وفي أيام الأعياد تقرأون إلى شعبيكم مفاخر أبطالهم ، وفي كل أحد إذا ما أردتم أن تتغنوا بمدائح العلي الأعلى أو أن تجدوا عزاء في أحزانكم فإنكم تبحثون للتعبير عن هذه العواطف في أناشيد الشعراء اليهود ، فأنتم بقدر إخلاصكم لعقيدتكم تحاولون القيام بهذا العمل الذي تمليه العدالة الطبيعية . . . » ، كان المجلس يصغى بنافذ الصبر ، وسمعت صيحات من جهات مختلفة : « أوه ! أوه ! » ، لكن دزرائيلي اختتم بقوله : « لا أستطيع الجلوس في هذا المجلس ، وهنالك سوء فهم لرأيي في هذا الموضوع ، ومهما تكن النتائج بالنسبة إلى فإنني لا أستطيع أن أعطي صوتاً فيما يتفق مع عقيدتي بأنه الدين الحق ، نعم ! إنني كمسيحي لا أحتمل المسؤولية الفظيعة في أن أبدأ أولئك الذين ينتمون إلى الديانة التي ولد في أحضانها السيد المسيح المخلص . »

جلس بين سكوت عميق ولم يصفق له عضو واحد من حزبه ، والتفت لورد
چون رسل نحو جاره في مقاعد المعارضة ، وقال في إعجاب : « لا بد أن تتوافر
الشجاعة الكبيرة لدى زعيم حزب كي يدافع هكذا عن آراء يمتقها أصدقاؤه » .

أعلن الحزب لبنتنك أنه لا يقر مسلكه في مسألة روتشيلد ، فاستقال من الزعامة
ووجد بعد وقت قصير ميتاً في أحد الحقول وقد ارتقى على وجهه ، قال الأطباء إنه
توفي بسكتة قلبية ولم يكن معتاداً الأعمال العقلية ، وفرض على نفسه تغيير عاداته
وحرم نفسه من تمريناته العادية ففقد ذلك على صحته ، وأصابه فضلاً عن ذلك حزن
كبير إذ كان مطمحه الوحيد دائماً أن يربح الدربي ولم ينجح قط في ذلك ، لكن
أحد الجياد التي باعها عند ما قصر وقته على السياسة وهو « سوبليس » ربح ذلك
السباق وجاء الأول فيه فكان في ذلك ضربة كبرى لآماله . على أن لورد جورج
لم يأسف قط على ما فعله في سبيل الواجب ، وفي أيامه الأخيرة إذا ما ألح عليه
أصدقاؤه في الراحة قليلاً كان من عادته أن يجيبهم : « إن من يطلب النجاة لنفسه
لا بد أن يفقد الحياة » . حزن دزرائيلي حزناً شديداً لوفاته ، فقد تعلق بهذا
الصديق الحشن والوفى أيضاً ، وقد قال بنتنك أكثر من مرة لأولئك الذين
يشكّون في مساعدته : « إنني لا أدعى معرفة الكثير من الأمور ، لكنني على
خبرة بالرجال والجياد » .

ذهب بنتنك ففقد دزرائيلي فيه أكبر عضد له ، وعند ما تكلم رجال الحزب
في انتخاب زعيم جديد ذكرت عدة أسماء ولم يذكر اسمه ، وكتب إليه ستانلي
رسالة مؤدبة في الظاهر لكنها مهينة في الباطن ، يعرض عليه فيها أن يعمل تحت
لواء زعيم أسمي وأن يقوم دزرائيلي بالعمل الحقيقي على أن يحمل الآخر لقب الزعيم ،
لكن دزرائيلي أبى أن يتحمل جميع المخاطر دون الشرف ، وقد ترك خروج
بيل وأصدقاؤه أصحاب الحماية بلا خطيب ، بينما حزب المحافظين القديم غني
بجلادستون وبعده من الخطباء ، كان عليه أن ينتظر طويلاً ، طويلاً جداً ، لولا

أن أدى انقسام الحزب إلى أن صار في الطليعة ، سواء رضى رجال حزبه أم لم يرضوا ؛ قاوم ستانلى بقدر المستطاع ، وأخيراً اقترح بأن يدير الحزب فى مجلس النواب ثلاثة : جرانتى وهريس ودزرائيلى . وقال وزير قديم عند ما سمع الخبر : « هم سيسو وروجيه دو كو ونابليون بونابارت » .

لم يعض ثلاثة أسابيع حتى اختفى ذكر الزميلين الآخرين وصار دزرائيلى فى أعين الجميع الزعيم الرسمى للمعارضة ، وكان لورد ملبورن لا يزال حياً ، وتذكر ذلك الشاب ذا الشعر المجعد الذى أجابه لدى كارولين نورتون : « أريد أن أكون رئيس الوزراء » .

فقال : « والله ليفعلنها هذا الغلام » .

لا شك فى أنه خطأ خطوة كبيرة فى طريق السلطة ، إذ أصبح الزعيم المعترف به لحزب كبير فى مجلس النواب ، وقد اتضحت له فكرة جديدة وأخذت تزداد وضوحاً ، هى أنه فى إنجلترا وفى بعض الجماعات السياسية لا يكون الرجل شيئاً مذكوراً إذا لم يمتلك أرضاً ، لم يجد هذه النزعة مستغربة ، فإن صاحب الأرض وهو يمشى فى أملاكه ويكلم رجال زراعته يقف على الحالة الحقيقية للعواطف وللحاجيات ، يصنى إلى شكايات الزارعين ويقف على تأثير القوانين التى أيدها بصوته ، أما ساكن لندن الذى يمضى حياته بين غرف الاستقبال وفى المجلس فلن يكون إلا من ذوى النظريات ، العقل فى حاجة إلى الاتصال بالأرض فى مرات متقاربة وبعد قضاء موسم فى حياة المدن يخفف هدوء الطبيعة النباتية وجمالها من سورة الأفكار ، ودزرائيلى شديد التعلق بالأشجار والأزهار ، وحلمه منذ زمن بعيد أن يمتلك بيتاً كبيراً فى كوتنتية « بكس » التى تعلق بها .

كانت هنالك أرض معروضة للبيع لا تبعد كثيراً عن برادنهام هى ضيعة هوجندن ، وكان دزرائيلى وإخوته يذهبون إليها كثيراً فى طفولتهم للعب ثم للغزل ، وهم يعرفون تلك الحديقة الجميلة والغابات الواسعة من الزان والبوط ،

والأراضي المتموجة المزروعة بالحشيش ، والنهر الصغير في الوادي وأسماء كه المختفية والشرفة الكبيرة التي كانت فيها « برجولا » منهرة . وقد سمعوا مئات المرات قصة هذه الضيعة التي منحها وليم الفاتح لآودو أسقف بايو ، وسكن فيها رتشارد دي مونفورت والكونت شستر فيلد الشهير ، ليس شيء أحب لدى دزرائيلي من أن يصير سيد هوجندن ، لكن يعوزه المال فقد زادت ديونه بالفوائد التي أصر عليها المرابون وديون أصدقائه الذين ضمنهم ، فبلغت عشرين ألف جنيه ، ونصيبه في ميراث والده يبلغ عشرة آلاف جنيه ، وكان مستر إسحق دزرائيلي على استعداد من ذلك الوقت لأن يضع هذا المال في شراء أرض ، لكن ثمن القصر والغابة كان خمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات فأين يجدها !

عند ما كان لورد جورج بنتنك لا يزال حياً أسر إليه دزرائيلي رغبته ، ورأى لورد جورج من المرغوب فيه أن يكون أحد زعماء الحزب الزراعي من سادة الزيف ؛ فعرض أن يتعاون مع إخوته على إقراضه هذا المبلغ ، ولما تم الاتفاق مبدئياً اشترى إسحق دزرائيلي هوجندن لابنه ، ومات بعد ذلك بزمان قصير ، وقد بلغ الواحدة والثمانين من العمر ، ولم يكد يشعر باقتراب الموت إذ لم ينقطع حتى الساعة الأخيرة عن سماع قراءة سارة . في تلك السنة وقبل أن يدفع ثمن الضيعة توفي لورد جورج بنتنك ، لكن دزرائيلي وجد في سقاء أخوى اللورد ما وجدته في الصديق ، وقد شرح لهما في صراحة فيها بساطة وفيها إقدام أن الحياة تكون من غير لذة له ومن غير فائدة للحزب إذا لم يظهر في مظهر كبير ، وهما من الرجال الذين يفهمون استحالة الحياة من غير هذا المظهر ، واستطاع ديزي أن يكتب إلى ماري آن ويقول : « لقد تم كل شيء ، وهما أنت صاحبة قصر هوجندن » .

انتقد بعض العقلاء هذا الشراء بحق ، لكن هل يستطيع دزرائيلي أن يترك من أجل بضع قطع صغيرة من الذهب لذة امتلاك قصر يكاد يكون مماثلاً لما وصفه في رواياته ، كنيسة صغيرة وسط الحديقة ، وبيت صغير للقس ، ونهر وأراض ومماش طويلة مغطاة بشجر الزان تؤلف قصراً طبيعياً تتشابه فيه

الأوراق فوق سجاد من الحشائش الناعمة ! . . لقد أخذت ماري آن ، وهي ربة بيت كاملة من سيدات القصور تفتح طرقا في غابة البلوط التي سمتها الغابة الألمانية وتضع مقاعد ريفية . وصار دزرائيلي يمشي طويلا متنزها على قدميه وامراته تلازمه في عربة صغيرة يجرها مهر صغير .

في شهر أكتوبر ارتدت الغابة ثياب الخريف ، ولا زالت أشجار الزيفون والصنوبر تكتسى أوراقها المصفرة ، وأشجار الزان النحاسية تلمع في الشمس ، وهنا وهناك تجد إحدى أشجار البلوط والدردار لا تزال خضراء كما في الصيف ، وسيد هوجندن وسيدتها يعودان في هدوء نحو قصرهما ، هو في الخامسة والأربعين من عمره وهي في السابعة والخمسين ، لكنه يحدب عليها في حنو وهي تحدب عليه في تدله ، وعلى الشرفة الطواويس تنشر ذيولها في بهاء وعظمة وهي تقول عن هذه الطواويس لزاريتها : « ياسيدتي العزيزة ما فائدة الشرفة إذا لم يكن فيها طواويس ؟ » .

مصاعب

« والله ليفعلنها هذا الغلام » . هكذا قال لورد ملبورن متفائلاً أكثر من دزرائيلي الذي رأى أنه لا يزال بينه وبين السلطة طريق وعرة تكتنفها مصاعب كبيرة .

الحاجز الأول :

إنه زعيم حزب في مجلس النواب ، لكنه لم يشعر بأنه محترم ؛ فحزب المحافظين هو فاوست ، ودزرائيلي مفستوفوليس الذي قال له : « إني أهيك القوة والشباب ، لكن بشرط أن أبقى دائماً إلى جانبك » . فصار فاوست يحتمل مفستوفوليس ولكنه لا يحبه . يعترف الجميع بأن الزعيم الجديد يحسن عمله ، وهو في غير المجلس يقرأ الكتب الزرقاء ويدون الملاحظات ويعد الخطب تاركا ماري آن وحدها للاتصال بالناس . أخذ ديزي أخيراً يظهر ذلك الاحتقار الكبير للمظاهر بعد أن ظل يخفيه تحت رغبته في إرضاء الآخرين ، وكثيراً عند زيارة الأصدقاء تمر عشيّة بأكلها دون أن ينطق بكلمة وهو غارق في الأفكار ؛ فلا يجروء أحد أن يكلمه .

لكن مراقبي المجلس كانوا يرسلون عنه إلى ستانلي تقارير كالتقارير التي يرسلها موظف من موظفي المستعمرات إلى الحاكم عن زعيم من الأهالي خضع له حديثاً : « إني أشعر بأنه قد ارتبط نهائياً ، وأنه سيظل مخلصاً » . وفي أثناء العطلات البرلمانية يراقبون حتى وجهه : « علمت أن دزرائيلي قد أطلق شاربيه وهذا مما يؤسف له جداً إذ يجب ألا يلفت الأنظار بمظهر أو بشباب خارجة ، وإنما بمواهبه ، أمل ألا يتخذ هذه الهيئة في غير الريف ، وفي غاباته بيكنجها مشير

وأن يظهر إلى الناس في مظهر أليق بالبشر في شهر يناير .
 هي مخاوف ظالمة ؛ فلبسه لا يمكن انتقاده ، وقد اختفت السلاسل والخواتم
 وثيابه في الشتاء والصيف غير زاهية ، كانت حركاته العصبية في أيامه الأولى
 تضايق المجلس ، لكن يجب على المجلس أن يرتاح الآن إلى ثباته فهو يلزم مقعده
 أثناء الجلسات رافعاً الرأس في جمود ، وقد شبك ذراعيه على صدره وعيناه في
 نصف إقفال ، ولا يمكن النظر إليه من غير تفكير في الصور الحجرية لمصر القديمة
 فاذا اشتدت الحملة عليه ادعى النوم ، وإذا أصاب الهجوم منه مكاناً حساساً وجهه
 نظرة خفيفة إلى طرف أحد قدميه أو جذب قليلاً كم قميصه ، وهي العلامة
 الوحيدة للحياة التي لا يكتشفها إلا أدق الملاحظين ، وفي ممشى البرلمان يسير من
 غير ضجة كالشبح ، كأنه لا يشعر بوجود الأشياء الخارجية عنه ، ويخطب من غير
 إشارات ومن غير الالتجاء إلى التأثير بتنوع الصوت ، غير أنه في اللحظة التي
 ينطق فيها بملاحظة فكاهية كان ينزع منديل من جيب في اليسار وينقله إلى
 يده اليمنى ويسعل سعالاً خفيفاً — احم — ويمر بالمنديل تحت أنفه . ثم ينطق
 بالعبارة ثم يعيد المنديل إلى يده اليسرى ، وهكذا كانت سيطرته على جسده مما
 نظم العقل ، فصار دزرائيلي هادئاً تماماً في الظاهر بعد أن كان عصيباً في الماضي ،
 وإذا عورض قال : « ربما . . » ثم غير الموضوع في الحال .

الحاضر الثاني :

لم يكن لحزب الحماية مبدأ خاص ، ولو سيئلت ستانلي لقال : « كيف .
 والحماية ؟ ! » ، لكن الحماية لا تؤلف برنامجاً لحزب كبير إذ يجب أن يكون
 للحزب عقيدة ، ولا يمكن إشباع خيال الناس بالقوانين الجبركية ، والخيال وحده
 هو الذي يقود الرجال ، وأظهرت الحوادث أن جريمة پيل كانت أقل مما ظن ،
 وقد قال دزرائيلي : « لماذا عارضنا پيل ؟ لأن حرية التعامل تخرب الزارعين ،
 ولا تخفض أسعار المعيشة » ، لكن أسعار المعيشة انخفضت وظل الزارعون على

حالمهم في زمن قانون الغلال ، وربما ذلك لمجرد الصدفة فللجور وللحاصلات دخل في هذا الأمر ، وربما ينقلب في المستقبل جو آخر فتحين نهاية الحماية . لكن دزرائيلي كان واقعياً وهو يقبل الحوادث على علاقتها ، فالزراعة لم تخرب ، والعودة إلى قوانين الغلال فكرة جنونية لأنها تثير البلاد وتقضي على الحزب ، فالحماية لم تمت فقط بل قضى عليها تماماً .

ضايق هذا الموقف جميع الناس ، فقد تمنى الأحرار أن يتشبث خصومهم مدة قرن بهذه السياسة المقضى عليها ، وتساءل لورد ستانلي سؤالاً معقولاً في ظاهره : « ما معنى الحملة الشديدة على سير روبرت پيل إذا كنا نعود إلى تقليده ؟ » . لم يكن لدى ستانلي الوقت والرغبة في أن يفكر في القيمة الحقيقية لحرية التعامل ، فليديه البليارد وليديه الجياد ، وهو مرتبط بسياسة الحماية ولتكن النتائج ما تكون . ويرى جون مانرز المخلص أيضاً أن الشرف يقضى بأن يصيح « لتسقط ضريبة الدخل ، ولتحي الرسوم الجمركية » . وبدأت الأساطير القديمة عن الحياة السياسية تظهر من جديد ، ورسمت بنش دزرائيلي في صور هزلية تمثله أحياناً كتلك النار الوهمية يتبعها الزارعون المخدوعون بلا جدوى ، وأحياناً كالحرباء . وقد وضعها جون بول على منضدته وهو يتأملها في تعجب ، وأحياناً كأحد شبان القرى الذين يخدعون الفتيات ، وقد أراه أب شديد ابنته « الزراعة » وهو يسأله : « ما هي أغراضك ؟ » .

الحاضر الثالث :

مادام سير روبرت پيل حياً فمن المستحيل إتحاد فريقى حزب المحافظين بدونه ومن المستحيل الاتحاد وهو فيه ، وجد دزرائيلي في مبدأ الأمر صعوبة في الجلوس على مقعد واحد مع الرجل الذى حطم حياته لا يفصل بينهما غير جلادستون . وقد شعر بالعطف على سير روبرت بعد أن غلبه فلا يتحدث إلا ليمتدحه ، وإذا غاب جلادستون وأدى ذلك إلى جلوس أحدهما إلى جانب الآخر ،

دعا دزرائيلي صديقاً وسأله أن يجلس بينهما كي يوفر على سير روبرت تلك الحيرة المؤلة لنفسه ، لكن پيل كان ينظر إليه بلا غضب ويلاحظه في جد . وقد أَرْضَى كبرياءه نجاح سياسته بعد سقوطه ، وعاد الهدوء إلى وجهه بل كادت تظهر عليه علامات السعادة ، وفي ذات ليلة إذ جلس دزرائيلي بعد أن ألقى خطبة جميلة سمع جلاستون پيل المجاور له يظهر في هدوء رضاه .

في تلك الليلة ظلت الجلسة منعقدة إلى الساعة الخامسة صباحاً ، وعندما عاد دزرائيلي إلى داره وجد البيت مضيئاً بالأنوار كالعادة ، وذهب إلى مرقدته ونام جيداً واستيقظ متأخراً جداً ، وأقنعتة زوجته بأن يتنزه في عربة معها ، وبينما هما يخترقان ريجنت بارك أوقف فارسان أجنيان عربتهما وقالاه : « قديهمك يامستر دزرائيلي أن تعلم أن سير روبرت پيل سقط من جواده ، وأنه حمل إلى منزله في حال خطيرة » . فقال دزرائيلي : « خطرة ! أرجو ألا يكون ذلك فإن فقدته خسارة كبيرة للبلاد » ، ظهرت الدهشة على الفارسين وابتعدا .

كان الخبر صحيحاً فقد خرج پيل على فرسه في الصباح وهو متعب من جلسة الليل وجمع جواده ورماه إلى الأرض ، كانت آلامه شديدة بحيث لم يستطع الأطباء أن يقفوا على مدى جراحه ، وجزعت لادى پيل جزءاً شديداً حتى إنها مُنعت من دخول غرفة المريض إذ يسبب له منظر حزنها تشنجات حقيقية ، وأحاط الجمهور المتأثر بالبيت ينتظر الأخبار .

بعد ظهر ذلك اليوم كان آل لندندري يقيمون حفلة ريفية كبرى في دار ريفية مزينة بالورود على ضفاف التامز ، وقدمت لادى لندندري الشاي لضيوفها في أكواب من الذهب المصبوب ، وهز رب الدار يد دزرائيلي في قلق وحب ثم اختفى ، وعندما عاد بعد وقت طويل تتم قائلها : « ليس هناك أى أمل » ، فقد امتطى جواداً إلى دار پيل ، بينما الكمنجات تعزف ومدعووه يأكلون المثاجات . وفي اليوم التالي قال جلاستون في نادى كارلتون : « مات پيل في سلام مع جميع الناس حتى مع دزرائيلي » .

كانت راشيل تمثل في ذلك المساء بالفرنسية رواية « بيازيد » ، وحضر تمثيلها أهل لندن جميعاً ، وكان التفكير في أن سير روبرت پيل لن يشغل مقعده من بعد غريباً ، قال بلوار لذرائيلي : « لقد أتم عمله ولا يعيش إنسان قط بعد أن يتم عمله » لماذا ؟ لقد أخذ بلوار يميل إلى إيجاز القول ، أسف دزرائيلي حقا على جاره . قد يكون من السهل ضم أنصار پيل بعد وفاته إلى الحزب ، لكن أنصار پيل كانوا متألين ورأوا أنه مما لا يليق بإخلاصهم لذكري پيل أن ينضموا في الحال إلى أعدائه وهم لا يريدون أن يعملوا تحت لواء دزرائيلي وهم خصومه القدماء . وقد اشتدت دهشتهم عندما علموا أن ديزي على استعداد لترك الزعامة في مجلس النواب لأحد الأعضاء القدماء من أنصار پيل ، عجبوا أن يصل في إنكار الذات إلى حد لا يصدق . فهذا لا يتفق مع شخصيته كما يتصورونه ، لكن ما لبثت الفرصة أن أتاحت لهم اختبار إخلاصه ؛ فقد قدم لورد چون رسل استقالته ، ودعى لورد ستانلي لمقابلة الملكة وقابلته في شيء من القلق لأن البيت الملكي يعتقد بحرية التعامل ، وقال ستانلي للملكة في صراحة ظريفة : إن حزبه لا يضم رجالا من ذوى المواهب إلا القليلين وإنه لا يرى الطريق لإيجاد العناصر التي تتألف منها وزارة ، واجتمع بدزرائيلي وسأله : « هل تستطيع أن تجد من غير معونة أنصار پيل ستة أو سبعة من المحافظين في مجلس النواب على شيء من الذكاء ؟ » وكان ستانلي لا يعتقد في ذلك ، فقال له دزرائيلي : إنه إذا استطاع الحزب أن يحصل على تأييد جلادستون وأصدقائه بتضحيته هو كزعيم فإنه على استعداد للتضحية ، ثم اقترح بضعة أسماء أحدهم المستر هنلي مثلاً ، ورفع لورد ستانلي كتفيه ولكنه لم يعترض وهذه طريقته .

في اليوم التالي نحو الظهر قام ستانلي بزيارة لذرائيلي في جروفنرجيت ، وصعد إلى الطابق الأول في الغرفة الزرقاء ووجهه مضى وعيناه فرحتان ، وقد رفع أهدابه الساخرة كما يفعل عادة وقال : « لقد أنزلنا السفينة إلى الماء » ، ثم عاد إلى الجد وقال : « لقد وعدت الملكة أن أحاول تأليف الوزارة » . وسألته إلى من ينوى أن يعهد في إدارة مجلس النواب فسمى لها دزرائيلي ، وقاطعته الملكة قائلة :

« لست حسنة الظن بمستر دزرائيلي ، لم أحب مسلكه نحو سير روبرت پيل المسكين ، و وفاة سير روبرت لا تنقص من هذه العاطفة » ، أجاب لورد ستانلي : « سيدتي ! على مستر دزرائيلي أن يوطد مركزه وأن يقيم شهرته ، لكنه خطيب كبير ، والرجال الذين عليهم أن ينشئوا لأنفسهم مركزاً يأتون أفعالاً يمكن أن يتجنبها أولئك الذين وجدوا الحياة ممهدة أمامهم ، ولم يستفد أحد من مدرسة البرلمان كما استفاد مستر دزرائيلي وقد تغيرت نغمته كلية » . فقالت الملكة : « هذا حق لكن أرجو وقد بلغ هذا المركز العظيم أن يلجأ منذ الآن للاعتدال ، وإني أقبله على ضمانتك » . قال لورد ستانلي لدزرائيلي الذي تأثر بهذه القصة : « الآن أريد أن أكتب إلى جلادستون كي يأتي لمقابلتي » .

فشلت مقابلة جلادستون فشلاً تاماً ، فقد اشترط أنصار پيل للدخول في الوزارة العدول رسمياً عن سياسة الحماية كنوع من الترضية السريعة ، وهذا ما لا يرضاه ستانلي الأبى ، وعلى الرغم من كل ذلك ظل محافظاً على مراحه ودعا إليه في اليوم التالي أصدقاءه في مجلس اللوردات وأعضاء مجالس النواب الذين سماهم دزرائيلي ، ولكن عند ما رأى دزرائيلي الأعضاء وقد اجتمعوا في قاعة الطعام الفخمة في منزل ستانلي أخذ يفقد الأمل ، فهذا مستر هنلي الذي امتدحه وقد جلس على كرسي ويداه على عصا غليظة وتقطب حاجباه وعيناه خاليتان من كل تفكير وعليه مسحة السجن الذي ينتظر التأنيب لخشونته ، والآخر لا يفضلونه ، وحين تكلموا تبادل لورد ستانلي نظرة مع دزرائيلي وفهم هذا ما يجول في خاطر رئيسه ، فإن هذا الرجل الفكه الرقيق لم يعد يحتمل هذا المنظر طويلاً ، وقرر أن يقذف بهم إلى الشيطان . وكان دزرائيلي قد ابتدأ يفكر ببرنامج واسع ويتخيل وزارة طويلة الأجل وانتخابات ملائمة ، ولكن المغامرة انتهت قبل أن تبتدى ولو أن دزرائيلي كان هو الرئيس فأى صبر يحاول به تكوين زملائه تدريجياً ، لكنه ليس رئيساً ويجب أن يخضع لأهواء هذا السيد الذي نفذت مقاومته وكاد يصل إلى المرحى الذي أراده فإذا به يتراجع وقد لا يصل إليه أبداً .

أشار لورد ستانلي لذررائيلي بالقيام وأخذه إلى نهاية الغرفة وقال له :
— إن الأمور بهذه الحالة لن تكون . فأجابه :
— قد لا تكون الحالة بهيجة ولكن لا تستعجل كثيراً .

عاد ستانلي إلى المائدة وقال : إن واجبه أن يرفض تأليف الوزارة لا سيما أنه ليس لديه أعضاء صالحون في مجلس النواب ، وقفز مستر بيرسفورد أحد المراقبين وأكد للورد ستانلي أن في نادي كارلتون عدداً من الرجال ذوى الجدارة ينتظرون أن يدعوا . وسأله ستانلي بنفاذ صبر : « ومن في كارلتون ؟ » فقال بيرسفورد : « ديدز » . فأجابه ستانلي : « أوه . هذه أسماء لا أستطيع رفعها إلى الملكة . حسناً أيها اللوردات والسادة . إني شاكر لكم تفضلكم بالحضور ، ولكن الأمر انتهى » . تفرق الجميع في اضطراب كبير ، وظل هنلي صامتاً مقطباً ، وكان مظهر بيرسفورد كمن فقد ثروته على مائدة الميسر وظل يعلن أن ديدز من الطبقة الأولى بين الرجال .

عند ما أعلن ستانلي في مجلس اللوردات رفضه تأليف الوزارة أسهب في المقارنة بين عدم وجود البارزين في حزبه وغنى الجماعة الصغيرة من أنصار پيل في المواهب ، إنه لمن غير السهل دائماً أن يعمل المرء تحت راية لورد ستانلي .

واجب قاس على مستر جلادستون

كما يحدث أحياناً في لعبة الرجبي أن لاعباً ماهراً من خط الدفاع في حماسته ، بالرغم من خيبة الآمال ، يناول الكرة عشرين مرة للاعبين الكسالى في خط الهجوم فلا يحاولون الهجوم بها ، كذلك كان دزرائيلي يسدد السلطة إلى يدي ستانلي المهملتين ، كان واجبه الأكبر هو تربية الحزب وأن يخرج منه فكرة الحماية ويسمو به من العاطفة الحزبية إلى العاطفة الوطنية ، ويعلمه السهر على الراحة العامة وتضامن الإمبراطورية . واقترح بدلاً من الحماية برنامجاً جريئاً هو الإصلاح الإمبراطوري للبرلمان واشترك المستعمرات في إدارة الإمبراطورية ليوازن بأصواتها الأصوات الديمقراطية للمدن ، وهكذا تدخل عناصر جديدة وتنتهي المناقشات التي لا معنى لها بين المدن والريف وبين الصناعة والزراعة ، وفكر لورد ستانلي أن هذه « تصورات الخيال » وعاد إلى ملاذه .

لكن قذفت إليه الكرة مرة أخرى وطلبت له الملكة في وندسور ، وقد صار منذ عدة شهور لورد دربي بعد وفاة والده ، وعاد مرة أخرى إلى جروفنرجيت وأدخل إلى الغرفة الزرقاء ، وفي هذه المرة قال لدزرائيلي : ستكون وزيراً للمالية . فقال دزرائيلي : ولكني لا أعلم شيئاً عن الأمور المالية . فأجابه : إنك تعرف عنها بمقدار ما كان يعرف كاننج ، وسيمدك الموظفون بالأرقام .

تألفت الوزارة في اليوم ذاته وبلغ من فقر الحزب في الرجال أنه لم يتول الوزارة من قبل غير ثلاثة فقط ، وفي رأى الملكة أن الوزارة مؤلفة من لورد دربي وحده ولما سئل هذا عن أخباره أجاب : « إنني في صحة جيدة وأطفالي كذلك » . وطلب دوق ولنجتون إلى أحدهم أن يذكر له أسماء الوزراء ، ولما كان الدوق مجزواً جداً ومصاباً بالصمم والأسماء جديدة عليه ، فقد أخذ يقاطع التكلم متسائلاً : « من ؟ » .

من ؟ » . واستولت الصحف على هذه الكلمة ، وعرفت هذه الوزارة بوزارة « من ؟ من ؟ » واعتبر اختيار دزرائيلي كوزير للمالية أكبر سخرية . لكن ماذا يهمه ؟ فهو كالفتاة الصغيرة في يوم أول مرقص تحضره ، وذكره لندهرست العجوز العظيم بأحاديث الشباب عند ما أعرب عن رغباته وهي عندئذ بعيدة وقد تحققت الآن . ورأت سارة نفسها في وحدتها الريفية وقد حوصرت بأهل البلاد يطلبون منها التوصية بهم ، فسأى البريد يريد أن ينقل إلى المدينة وخطب الأنسة دزرائيلي في صوت خجول مرتعش . وذهب ديزى لبحث عن الرداء الخاص بوزير المالية وهو رداء من الحرير الأسود المزركش بالقصب المذهب وقد ورثه رأساً عن الوزير « بيت » العظيم ، وقال له القاضي الذي استقبله : « ستجده ثقيلاً جداً » وأجاب : « إنى أجده خفيفاً لدرجة لا تصدق » .

لم تكن البداية سيئة ، فقد وجدت الملكة نفسها تسلية في التقارير التي من واجب زعيم مجلس النواب أن يرفعها كل ليلة عن الجلسة . وقالت : « إن مستر دزرائيلي يكتب تقارير عجيبة جداً مماثلة تماماً لأسلوبه في كتبه » . وارتاح دربي من جماعة المبتدئين ، وكان المجلس في انتظار الانتخابات فإذا انتهت ، وكانت غير ملائمة ، تحقق لدى الوزير التعس أنه سوف لا يترك طويلاً يتذوق هذا الدور الذي يجد فيه سروراً كبيراً ، وكان جلادستون يراقبه بنوع خاص . اتخذت الحياة السياسية تدريجياً مظهر المبارزة بين هذين الرجلين ، وإن لم يرغب أحد الاثنين في ذلك ، وكانا في الظاهر صديقين وزوجتاهما يتزاوران ، وأحياناً يزور جلادستون ماري آن بعد جلسة محترمة ليهدئها تحية المساء ، والرجلان من الوجهة النظرية من المحافظين ، وكان جلادستون في حبه للفروق الدقيقة التي لا تكاد تحدد يقول : « إنه يفضل أن يكون في الجانب الحر من حزب المحافظين على أن يكون في الجانب المحافظ من حزب الأحرار » ، ولكن طبيعتهما تتصادم ومسالكهما في الحياة يتقاطع ، فلولا دزرائيلي لصار جلادستون

الخلف الطبيعي لپيل ، وهذا رأى پيل فقد قال قبل وفاته بزمان ما : « سيكون جلا دستون رئيس وزارة محافظاً » . وعند ما سئل عن دزرائيلى ، أجاب : « سنعينه حاكماً عاماً للهند » .

كان كل من الرجلين شديد الحكم على الآخر . يرى جلا دستون أن دزرائيلى رجل لا دين له ولا عقيدة سياسية ، ويرى دزرائيلى أن جلا دستون رجل يدعى الورع ويخفى تحت قناع التردد المصطنع سعة حيلته . عاش جلا دستون كل حياته حياة الطفل فى مدرسة الأحد ، كان فى إيتون يصى صباحاً ومساءً ، وفى أكسفورد صار الشبان سنة ١٨٤٠ أقل إقبالا على انحر لآن جلا دستون كان بها فى سنة ١٨٣٠ ، وفى البرلمان صار هو التلميذ المجتهد والمحجوب لدى پيل ؛ وعاش دزرائيلى عيشة التشرد فى المدرسة وفى السياسة ، وعرف مقر الرايين قبل أن يعرف مقر الوزراء والأساقفة . يقول خصوم دزرائيلى إنه ليس رجلاً أميناً ، ويقول خصوم جلا دستون إنه رجل أمين بأسوأ معنى الكلمة ؛ يقول خصوم دزرائيلى إنه ليس مسيحياً ، ويقول خصوم جلا دستون إنه ربما كان مسيحياً متمسكاً ، ولكنه بلا شك وثنى كره . تعلم دزرائيلى القراءة فى مولير وفى فولتير ، ويرى جلا دستون أن ترتوف مهزلة من الطبقة الثالثة . وقد تتم دزرائيلى المستهتر إلى مستر برايت العجوز ، وهو يساعده على ارتداء معطفه : « مع كل يامستر برايت نحن الاثنان نعرف جيداً ما الذى أتى بنا إلى هنا ، المطامع » . ويطمئن جلا دستون نفسه ، وهو غير شاعر : « مع كل لا أعتقد أنى أستطيع أن أتهم نفسى بأنى عمدت إلى العمل سعياً وراء المطامع » . يقال عن جلا دستون إنه يستطيع أن يقنع الآخرين بأشياء كثيرة ويقنع نفسه بأى شئ . أما دزرائيلى فيعرف كيف يقنع الآخرين وليس له أى سلطان على نفسه . يحب جلا دستون أن يختار مبدأ نظرياً ومنه يتبين استنتاجاته ، وفيه ميل للاعتقاد بأن رغباته هى رغبات القوى الأعلى ، وليس يلام على إخفاء الورقة الراجعة دائماً فى كم قميصه ، وإنما يلام على زعمه بأن الله هو الذى وضعها هناك ؛ أما دزرائيلى فيمقت المبادئ النظرية ويحب

بعض الآراء لأنها ترضى خياله ، ثم يترك العمل يتولى تحقيقها ، وعند ما يُغَيَّر دزرائيلي من رأيه ، كما فعل في مسألة الحماية ، يعترف ويظهر بمظهر المتقلب ؛ أما جلادستون فيستند في ثباته إلى نتف من القش وهو يعتقد أنها قضبان من الخشب . وقد تأكد دزرائيلي من أن جلادستون لم يكن قديسا ، لكن جلادستون لم يتأكد لديه أن دزرائيلي ليس هو الشيطان .

أخطأ كل منهما في شأن الآخر فصدق جلادستون ما فاه به دزرائيلي من الآراء المستهترة على سبيل التحدى ، ورأى دزرائيلي الخداع في جميع العبارات التي يخدع بها جلادستون نفسه عن حسن نية ؛ كان دزرائيلي وهو من أرباب النظريات يفخر بأنه ممن يقتنصون الفرص ، وجلادستون وهو ممن يقتنصون الفرص يفخر بأنه من أرباب النظريات ؛ يظهر دزرائيلي احتقاره للمنطق ولكنه منطقي ، بينما يعتقد جلادستون أنه يستند إلى المنطق دائما مع أنه لا يسير إلا وراء عواطفه ؛ حافظ جلادستون وهو واسع الثروة على نفقاته اليومية بينما دزرائيلي بديونه الكبيرة يصرف النقود بلا حساب ؛ يحب الاثنان دانتى ، لكن دزرائيلي يقرأ على الأخص « الجحيم » ويقرأ جلادستون « النعيم » ؛ ودزرائيلي على شهرته بالطيش صموت أمام الناس ، وجلادستون على شهرته بالرزانة ساحر في أحاديثه حتى تجنب خصومه مقابله كي يستمروا في كراهيته ؛ لا يهتم جلادستون إلا لشئئين الدين والأموال المالية ، ويهتم دزرائيلي لآلاف الأشياء ومنها الدين والأموال المالية ؛ لا يعتقد أحدهما في صدق عقيدة الآخر ، وهما في ذلك مخطئان أيضا ، وأخيراً كان دزرائيلي يندهش لو علم أن مستر جلادستون وزوجته إذا ما وجدا من الأسباب ما يبعث الفرح الكثير في نفسيهما وقفا أمام الموقد متخاصرين ورقصا وهما يغنيان :

زوجة غره وزوج مرح نقطع العمر بصدر منشرح
وقف المتنافسان الواحد بعد الآخر في يوم مظلم جداً من أيام ديسمبر سنة
١٨٥٢ لمناقشة الميزانية ، وكأن قوتين خارتين للطبيعية تتعارضان ، وكأن

جلادستون بجانب وجهه المنتظم وعينيه اللامعتين كالبحر الكريم ورأسه ذى الشعور السوداء أقيمت إلى الوراء فى حركة قوية ، هو روح المحيط ، وكأن دزرائيل فى خصائله اللامعة وجسمه المنحنى قليلا ويديه الطويلتين المتحركتين ، هو روح النار . ما تسكلم حتى ظهر من البين أن دزرائيل أكثرهما نبوغا ؛ لكن جلادستون اتخذ نعمة التفوق الأخلاقى الذى يرضى المجلس أكثر من عبارات الأول .

لم تهاجم ميزانية قط فى البرلمان كما هوجمت ميزانية دزرائيل . وقد قبض ثمن هجأته على بيل ، ظل خصومه مدة أسبوع يهزأون به ليلة بعد ليلة يناقضونه ويسخرون منه . وقد شرح جميع الاقتصاديين البارزين واحداً بعد الآخر جهله وجنونه ، وكلهم أبدوا فى سخرية تركه لمبدأ الحماية .

جلس لا يتحرك ، أشبك ذراعيه وركبتيه وأطبق عينيه نصف إطباق وأسدل على وجهه الممتعق قناعا من السكون ، ربما أخذ يفكر فى عبارات السخرية التى قذف بها بيل فى الماضى حين قال : « لا نسمع الآن كلاماً كثيراً عن سادة الريف » فله يقال الآن : « لا نسمع الآن كثيراً عن الحماية المشهورة » ، وكأنه لا يصنى ولا يشعر ، فما تسكلم فى النهاية حتى تبين من العنف المكتوم فى تهكماته أن سهام النقد قد أصابته ، فرض على نفسه نعمة هادئة مستمرة ، لكنه من وقت إلى آخر تصدر منه عبارات التهم فى مرارة تدل على شديد الألم ، كانت بداية كلامه : « إنى لم أولد وزيراً للمالية ، لكننى أتنمى إلى طغمة البرلمان » ، رنين عجيب من روسو لا ينتظر عن زعيم حزب المحافظين . استمرت العاصفة عنيفة طول مدة خطبته الطويلة ، وكان خطف البرق القصير وهزيم الرعد الذى أحاط به مناسباً لهذا الشخص الشيطانى كما رآه خصومه ، فإذا نهض جلادستون بدا الارتياح وهذأت العاصفة ، وكان لعباراته المتزنة الأخلاقية وقع لذيذ فى النفوس وفى اعتدال اللهجة شعور بالراحة .

إن فى الميزانية الإنجليزية شعراً دقيقاً ربما جعلها أعسر الفنون على سبيل الحظ

من أمثال دزرائيلي الذين لم يربوا منذ الطفولة في أحضان وستمستر ، ففي قوانينها العجيبة الصلبة ما يجعل لزيادة درهم واحد على السكر نغماً متنافراً مخيفاً ، وتصطك أسنان قدماء السامعين وهم ينظرون في شفقة إلى قائد الأركسترة الجديد ، بينما زيادة درهم على الجمعة ربما خلق لآذانهم الذ توافق في النغمات ، والضرائب على الخميرة والاقتصاد في النفقات البحرية يتمشى مع بعضه تمشياً صعباً ورصيناً ، لا شك أن الغريزة تهدي أولئك الذين ولدوا ليكونوا وزراء للمالية . وتمكن جلا دستون في سهولة ، وهو أستاذ طبيعي في ذلك الفن السامى والعظيم ، من أن يفضح أخطاء ذلك المبتدى .

أصغى دزرائيلي وذراعه مشتبكتان دائماً وعيناه متعبتان جداً ، كان ينظر من وقت إلى آخر نحو ساعة الحائط ؛ وجلس دربى في إحدى الشرفات ينتظر الصوت الذى يقرر مصير الوزارة وهو يصغى باهتمام إلى جلا دستون بضع دقائق ، ثم وضع رأسه بين ذراعيه وهو يقول ببساطة « همَل » .

في الساعة الرابعة صباحاً سقطت الوزارة بثلاثمائة وخمسة أصوات أمام مائتين وستة وثمانين صوتاً ، كان مروره في السلطة قصيراً . ولا شيء يصور حقاً رقة دزرائيلي في وداعه ، فلم يظهر عليه أى حزن ، لكنه سأل الصفح من المجلس على الحرارة غير العادية في خطبته ، وهنأه لورد جون على الشجاعة التى ناضل بها ، وأسدت الستار . وفي المساء قيد جلا دستون في مذكراته أن الله يعلم أسفه على أنه كان الآله المختارة لا إسقاط دزرائيلي فإن ذلك الرجل ذو مواهب كبيرة ، « وأرجو الله كثيراً أن يستعملها في الخير » .

في وزارة الأحرار التى تألفت بعدئذ قطع جلا دستون أخيراً الصلة بينه وبين ماضيه ، واشترك فيها مع بعض أنصار پيل ، وكانت هذه الوزارة بارزة حتى أنها لقت على سبيل معارضة « من ؟ . من ؟ . » بوزارة « جميع الكفايات » .

ظلال

خمسون سنة ... سنة بعد الخمسين ... خمس وخمسون سنة ... أخذ الزمن يجعد
قسمات هذا الوجه ، وامتد غضنان من جانبي الأنف واتصلا بطرفي الفم ، وصار
الجلد تحت العينين أكثر سواداً ، وتدلّت الشفة السفلى كثيراً ، وقد أثرت قدم السن
في هذا البدوى الذى اتخذ وطناً آخرأكثر مما يؤثر في الانجليزى ذى اللون الرائق ،
صارت الفتيات اللاتي لم يعرفنه زمن الصدارى المزركشة والسلاسل الذهبية
وجدائل الشعر يجذنه قبيحاً ، لكن مارى آن لم تكن من هذا رأى ، قال لها
أحدهم : « إن مستر دزرائيلى تكلم في فصاحة كبيرة بالمجلس في هذا المساء وكان
منظره رائعاً في تلك اللحظة » .

فأجابت : « آه . أليس ذلك حقاً ؟ هل وجدت منظره رائعاً ؟ يظن الناس أنه
قبيح المنظر لكنه ليس كذلك ، فهو جميل وإنى لأود لو رأوه وهو نائم » .

صار الرجل أكثر صمتاً مما كان ، ولم يره أحد من الناس في لندن وهو يبتسم
غير اثنين ، وظل محتفظاً بميله للمخاطرة ، لكن هل يكسب أبداً ؟ بدأ يشك
فقد ألقى مائة مرة خطباً قيل له عنها إنها أجمل ما سمع في البرلمان ، وهاجم عشر
مرات فيها المقاعد المقابلة له ، فإما أن يهرب الزعيم عند العقبة الأخيرة ، وإما أن
تسقط الوزارة التى تألفت بعد بضعة شهور . ثم فرضت حرب القرم نوعاً من
الاتحاد المقدس مدة طويلة ، لم يرتق الخرق الذى وجد على أثر انشقاق أنصار
بيل ، وظل الحزب ضعيفاً .

قد صار لورد دربى صديقاً ، فعندما يُسأل الآن السؤال القديم : « لماذا
لا يثق أحد في مستر دزرائيلى ؟ » ، يجيب : « أنا أثق فيه » ، لكن اللورد
دربى ثقلت عليه وطأة النقرس ولا يحب عند اشتداد المرض أن يخاطب في أمور

الدولة ، فإذا ذهب دزرائيلي ليحدثه في شأن الإصلاح الانتخابي قرأ له ترجمة قصيدة فرنسية ليلفوا عن سقوط أوراق الشجر :

هذه الغابات في صفرتها مثل حظي في خريف العمر

إن لورد دربي مرتاح لهذين الشطرين فما رأى « ديزي العزيز » وقد كان شاعراً من قبل ؟ يتنهد « ديزي العزيز » ويتسلح بالشجاعة . وهذا الاستسلام المؤلم والشفاف يسلي هذا النبيل العجوز ، فماذا يهمه من الوزارة ؟ لا شيء يحول دون أن يكون الكونت الرابع عشر من آل دربي ، وتجد ذكر أولهم في شكسبير ، والثاني عشر هو الذي أسس سباق الدربي . وعندما دخل عليه ابنه ستانلي بعد رفضه السلطة قال له : « مرحي يا ستانلي ، أية ربح سعيدة جاءت بك ؟ هل قطع ديزي عنق نفسه أو أنك غرمت على الزواج ؟ » ، لكن إذا ما اقترح أحدهم إبدال ديزي بستانلي في مجلس النواب غضب دربي لذلك ، فالقائد ليس أقل اخلاصاً من مساعده .

وجدت جماعة عدائية اعتبرت القائد ومساعدته مسئولين عن ورطة المحافظين الطويلة ، وأخذ بعض هؤلاء الثائرين يلقبونهما « اليهودي والمسايق » . أخذ دزرائيلي يشعر أنه متعب فهو يعلم أنه بذل كل مجهود ، وكان وفياً ، وقد وهب حياته لحزبه ، وهل هو من ذوى المطامع ؟ نعم لقد كان ذلك ، وهو لا يزال يعتقد أن حب المجد هو الذي يدفع الرجال إلى الأعمال العظيمة ، وهل هو مستهتر ؟ بلا شك لكن أية روح خيالية قوية تختفي وراء هذا الاستهتار ، لقد أخضع الطمع والاستهتار في أكثر من فرصة للإخلاص ، وكتب جلا دستون نفسه رسالة نبيلة يدعوها فيها إلى الائتلاف وهي خطوة خطيرة ، لأنها تعيد المنافسة الوحيد له إلى الحزب ، لكن جلا دستون رد رداً بارداً ، ووجد أسباباً خلقية يبرر بها انفصاله عن المحافظين ، ولا يلبث بلا ريب أن يصير رئيساً لوزارة من الأحرار ، ومع ذلك يعتقد الناس أن جلا دستون قديس وأن دزرائيلي مارد . كان ديزي يعتقد أنه مكروه جداً لدى الجماهير أكثر من الحقيقة ، وقد جرح في طفولته

فبق حساساً ، وكتب إلى لادى دورودنى نيفيل يقول : « آه . عزيزتى دورودنى !
إنهم لا يكرهون سياستى ، وإنما يكرهون شخصى » .

اختفى أصدقاؤه القدماء فماتت لادى بلسنجتون فى باريس سنة ١٨٥١ ، حيث
اضطرت للحرب من لندن مع دورسيه ، بعد أن بددت آخر فلس فى يدها ،
واستطاعت قبل موتها أن ترسل كلمة تهنئة للزعيم الجديد الذى كانت تعطف عليه ،
ثم صار رجلاً عظيماً ، ولم يعيش دورسيه بعدها طويلاً ، وهما فى رقدتهما الأخيرة
معاً فى شامبورسى على مقربة من مانت تحت هرم واحد من الجرانيت . ومات
معدماً سميت الظريف المستهتر الذى اتخذ نموذجاً لكوننجسبى ، والذى اخترع
انجلترا الشباب ، وقد ترك ليزى أبياتاً من الشعر معناها :

« ما الحياة ؟ إنها لنضال صغير ، لا فائدة فيه من الانتصارات ، فأولئك الذين
ينتصرون لا يكسبون شيئاً ولا ربح للكاسبين » .

كثيراً ما يردد ديزى قوله : « ما الحياة ؟ » ثم مات الدوق أخيراً ، وهو
الرجل الحديدى الذى خيل للناس أنه مخلص ، فاصطفت الجنود فى جنازته حتى
سان بول ، وارتفع ألف صوت بأناشيد من هيندل ، وإذا ما قلب المغنون
الصفحات سمع لها صوت كأنه الرياح ، وألقى دزرائيل خطبة ، وأخطأ فى نقلها
من تيررس وعرف ذلك عنه وانتقد ؛ لا يزال لندهرست العجوز حياً فى
الثامنة والثمانين من عمره ، وقد فقد بصره ولكن العقل بقى سليماً كعادته .
ولما كان لا يستطيع القراءة فقد حفظ قصائد الشعراء الذين يفضلهم ، وكتاب
الصلوات ، وكانت حفيدته الصغيرة التى لا تتجاوز ثمان سنوات تطلب أن تعيد
دروسها أمامه . تغير بلوار كثيراً ، وصار محافظاً ، ولكنه رفيق لا يعتمد عليه
كثيراً ، وعاش فى خوف من روزينا المجنونة التى تتبعه بكراهية لا معنى لها ،
وجعله هذا الحقد من المهزومين فى الحياة ، فلم يحلم إلا بقلب وبمجالس اللوردات
وبالثروة والراحة .

لا تزال كارلين نورتون جميلة ، وكتل الشعر التى تحوط جبينها ذات لون

أسود بنفسجي جميل ، لكنها صارت نحيلة ؛ ولادى سيمور ملكة الجمال فيما مضى صار لها ولد في الثلاثين من عمره ، وتضطر إذا قامت من المائدة إلى طلب المساعدة من جارها . وكان موت سارة الأمينة في سنة ١٨٥٩ خسارة كبيرة ، فلم تبق له دار العائلة ملجأ السلامة ومركز الحنان . صارت ماري آن الآن زوجا وأما وأختا ، وهي تقوم بهذه الأدوار أحسن قيام ، وهي دائماً تفهم زوجها ولا تضايقه قط ، وتعتقد أنه أنبغ رجال العالم في سائر الأزمان ، وتحتفظ في عناية بأقل الأوراق شأنًا إذا كتب فيها كلمة ، وتمسك بيده أحياناً حتى في المجتمعات العامة وتقبلها في خضوع ، وهي لا تزال تفوه بعبارات غير لائقة ، ففي وندسور قالت لأميرة من العائلة المالكة : « لكن ربما يا عزيزتي أنك لا تعلمين قيمة الزوج المحب » ، وتشجع جورج سميث الجريء الحشن ذات يوم وسأل دزرائيلي عما إذا كان لا ينجل من أحاديث زوجته فأجاب : « لا ! إني لا أخجل منها قط » . فقال له الآخر : « ولكنك يا ديزي لا بد أن تكون ذا صفات خارقة للعادة » ، فأجابه : « كلا ، ليس لي غير صفة تعوز أكثر الرجال ، هي : الاعتراف بالجميل » . وقال لآخر « إنها اعتقدت بي حين احتقرني الناس » فكان يكتب لها كل سنة في ذكرى زواجهما قصيدة قصيرة .

ظهر في حياتهما شخص عجيب ، فقد أخذ دزرائيلي يتسلم منذ مدة رسائل الإعجاب من سيدة مجهولة لديه هي مسز بريدج ولميز تقطن بتوركيه ، وهي تقول إنها مثله مسيحية من أصل يهودي ، وسأل أصدقاءه « هل تعرفون عجوزاً معتوهة في توركيه ؟ » ، في ذات يوم طلبت إليه مسز بريدج ولميز أن يتولى تنفيذ وصيتها ، وأن يقبل جزءاً هاماً من الوصية ، فذهب ليراها ومعه ماري آن ، فوجد سيدة في الخامسة والسبعين من عمرها ضخمة الجثة ، مضحكة ظريفة . صار الزوجان والسيدة العجوز أصدقاء ، فهو جندن ترسل إلى توركيه أزهار البنفسج ، وترسل توركيه أزهار الورد إلى هوجندن ، وحلت الرسالة اليومية إلى مسز بريدج ولميز محل رسالته إلى سارة ، فهو يقول لها : « إن أكبر ما فرحت به

هذه السنة الورود التي جاءت منك ، فقد عاشت في غرفتي وفوق منضدتي أكثر من أسبوع ، وأعتقد أنني لم أرووداً مثلها جميلة في شكلها ، بديعة في لونها ، زكية في رائحتها ... إني أعتقد حقاً أن ورودك لابد أن تكون جاءت من بلاد كشمير ... من أين جئت « بالهومار » البحري الذي وصل هذا الصباح لأجل الغذاء ؟ هل هو من مغاور أمفثريون ؟ فلقد كان جيداً ، وإن في طعمه حلاوة المحيط لا ملوحته ... »

زينت صداقته مع نساء أخريات حياته الكثيرة ، فمن لادى لندندري ، ولادى دورودثي نفيل : « عزيزتي دورودثي ، كان الشليك الذي أرسلته جيداً ولذيذاً مثلك ، وقد وصل في وقت مناسب في لحظة كنت فيها متعباً ومحموماً » ، وهو يذكر حفلة راقصة إذ رآها فيها لأول مرة وسأل : « أرجوك من هذه الفتاة التي كأنها خرجت من صورة من عهد جورج الثاني ؟ » ، فالنساء عندئذ كن على كثير من الظرف والعقل ! والآن في سنة ١٨٦٠ ليس للفتيات من مطمع إلا أن يُظنَّ أنهن غادات الكيمياء ، فيتنزهن في ثياب قصيرة إلى الركبة ليظهرن أرجلهن الجميلة ، ويدعون الرجال توم وچون أو ديك ، ويناقشن الشباب في آخر الفضائح التي اخترعت لدى « هوايت » .

تغير الملوك كذلك ، فلويس فيليب الحكيم الذي كان يرسل إلى دزرائيلي في قصر التويلري قطعاً من لحم الخنزير قطعت خير قطع ، رآه دزرائيلي يبكي وهو جالس فوق سريره في غرفة المنفى ، وأمام ذلك قابل في القصر نفسه امبراطوراً كان في الماضي ينزهه في قاربه على التاميز . جلست ماري آن على يمين نابليون اليوم تذكره بفشله عندئذ ، وكيف أنه يتولى دائماً أشياء لا يحسن عملها ، وضحك الإمبراطور وقالت الإمبراطورة : « إن ذلك خير وصف له » . وقد تحقق حب ديزي لكتاب ألف ليلة وليلة ، وصادف ما يماثل أوصافه في باريس في عهد الإمبراطورية الثانية ، ووصف ما رآه قائلاً : « وحول عنقه الذي يشبه عنق البجعة ، حملت الإمبراطورة عقداً من الزمرد والماس مما يوجد مثله في مغاور

علاء الدين » . ظل مخلصاً في حبه لفرنسا ، وكثيراً ما كان يرسل للإمبراطور نصائح رشيدة على يد رسل سريين ، لكن للأسف كثيراً ما تهمل هذه النصائح . صارت الملكة الصغيرة ، التي صحت ديزى في الماضي صديقه لندهرست إليها ، ملكة كبيرة وقوية ، بدأت تدريجياً تألف دزرائيلي وتعامله هو وامرأته معاملة حسنة ، ومات البرنس ألبرت في السنة السابقة .

مما جعل دزرائيلي يفكر بأنه لم يضع حياته عبثاً إعجاب الشبان به ؛ فإن في تصورات سياسته شيئاً يجذبهم . واتصل به سكرتير شاب متحمس هو مونتاجو كورى وأظهر له إخلاصاً مؤثراً ، وصار ستانلى ابن دربى تلميذاً له . وهو تلميذ كثير الحذر لكنه يعترف بالجميل ، وكان دزرائيلي يقول له : « إنكم يا معشر آل دربى ينقصكم الخيال » . وفي ذات يوم عرض اليونانيون العرش على ستانلى في بحبهم عن ملك ، ورفض ستانلى الذى لم يرقه هذا العرض . آه لو أن عرش اليونان عرض على ديزى .

في سنة ١٨٥٣ ذهب إلى أكسفورد لكي يهدى لقب الدكتوراه الفخرية ، ولم يصل هنالك من غير قلق ؛ فهو يعلم أن الطلبة يحبون السخرية ، وأنهم قابلوا بعض العظماء أحياناً بالصفير ، لكن لم يقابل أحد بعد الدوق ولنجتون بمثل تلك الحماسة ، سار ممتع اللون هادئاً نحو مدير الجامعة بينما المدرجون بالتصفيق ، وسأل المدير باللاتينية : « أترحبون به أيها السادة ؟ » ، صاح الطلبة : « بأ كبير الرضاء ! رضاء عظيم » حينئذ ظهرت معالم الحياة قليلاً على هذا الوجه الصامت وبحث بنظارته ذات العين الواحدة عن شرفة السيدات فإذا اكتشف مارى آن أرسل لها بيده قبلة لا تكاد ترى .

ستون سنة . . . إحدى وستون . . . السنون تمر قصيرة أم طويلة وتسير نظم أدوار الجلسات التي وضعها البشر وفقاً لنظام الفصول الإلهي ، وهو بلا شك لن يكون أبداً رئيساً للوزارة ؛ سوف يعمل مرة أو مرتين تحت رئاسة دربى

ثم يأتي دور ستانلي ؛ فالعائلات الكبيرة لها امتيازاتها وهو ما يدعو للأسف ، فهو تواق إلى السلطة ، لكن يجب ألا يترك العقل يفكر كثيراً فيما ليس له ، وما وصل إليه ليس حقيراً إذا نظرنا إلى وضاعة الابتداء . كان في تلك الأيام يتمثل بالمثل اللاتيني : « لا يصعب شيء على الشجعان » ، وهو مثل يصلح للأطفال فكل شيء صعب ، وقد اتخذ أخيراً مثلاً آخر : « لا تفسر قط ولا تشكو قط » إذ يجب اجتناب الكلمات التي لا فائدة فيها .

ماتت مسز بريدج ولميز تاركة ثلاثين ألفاً من الجنيهات لصديقيها الكهلين فتمكن بالبلغ من سداد جزء من الديون ، ولم يعد الباقي ثقيلاً بفضل رجل متواضع وكريم هو أندرو مونتاجو أحد كبار أصحاب الأملاك بيوركشير ؛ فقد اشترى لا عجا به بدزرائيلي جميع الديون من المرابين وهي نحو ٥٧ ألفاً من الجنيهات ، وفرض عليها فائدة متعادلة هي ثلاثة في المائة . أوصت السيدة العجوز بأن تدفن في مدافن هوجندن وهي ترقد هنالك على مقربة من الكنيسة الصغيرة ، وقد يذهب دزرائيلي في القريب العاجل ، فهو لم يكن قط قوى البنية وأمضى حياة مضيئة . وقد صارت الحديقة مكاناً ساحراً ، فإن ماري آن أتت بالأعاجيب ؛ فعلى الشرفة أوانى بيضاء من فلورانس غرس في إحداها الأخوان الأحمر ، وفي التي تليها زهر أفريقى أزرق ، وأعيد البيت إلى حالته في زمن حكم آل ستيوارت ، وفي الحديقة المنظمة حيث تماثيل للآلهات تحرس مماشى الحديقة يتصور المرء فرساناً يتزهدون مع عشيقاتهم ؛ وفيما عدا بعض الزيارات من الأصدقاء كانت حياتهما وحيدة ، وتسير على وتيرة ، ويأتي يوم الأحد فيغير الذهاب إلى الكنيسة من نظامها .

يحلم دزرائيلي وهو جالس في مقعد آل هوجندن وينظر القس المحترم «كلب» في قلق أثناء الصلاة إلى الرجل القوى الذي قد يعين الأساقفة في يوم ما ، وهو يتلو المزمور ١٠٢ «أيها الرب اسمع دعائي ولا يرتفع صوتي إليك . . لأن أياي ارتفعت كالدهان ، وعظامي نشفت وصرت مثل الغراب الذي يعيش في وحدة . . وصرت مثل البومة التي تأوى إلى البيوت . . لقد سهرت وكنت كالعصفور الذي يقف

وحيداً فوق السطوح ، كان خصوى يؤنبوننى ، وأولئك الذين يمتدحوننى
يأترون بى . ذهبت أياى كالخيال ، وصرت جامداً كالشجرة ، لكنك أيها الرب
تبقى خالداً ، وذكرى اسمك يمتد إلى جميع الأجناس .

يعود ماشياً على قدميه إلى جانب العربى الصغيرة التى تركبها مارى آن ،
وبينما هى تسوق مهرها إذا بها تتحمس وهى تشير إلى أعمالها وهى تتكلم . وما
أقدر مارى آن على الكلام ! لقد وضعت فى البحيرة الصغيرة بجمعتين جميلتين أطلق
عليهما ديزى اسم هير و لياندر ، وهى لا تفهم جيداً لماذا اختار هذين الاسمين ،
وهى فى تحويلها الحديقة قد ضاقت البوم الذى يسكن فى شجر السنط القديم ،
لكن ديزى قال إن البوم طائر منيرفا ، واعتنى به اعتناء دينياً ؛ وفى المساء يأتى
البوم فيقرع النوافذ بمنقاره المقوس وتلمع عيونه المستديرة فى الظلام .

في أعلى العمود المنزلق

« كيف نعتبر عصرنا زمناً نفعياً ؟ إنه
عصر مليء بالحوادث الروائية التي لا تنتهي
فالعروش تتزعزع والنيجان تعرض كما يحدث
في الأساطير ، وأقوى مخلوقات العالم رجالاً
ونساء لم يكونوا منذ بضع سنوات إلا
مغامرين ومنفيين » .

دزرائيلي

رسمت مجلة بنش في سنة ١٨٥٩ صورة أسد يحاول كل من برايت ودزرائيلي
ورسل أن يوقظه بأن يخزّه بقضبان من الحديد المحمي ، وكتب على كل من هذه
القضبان كلمة الإصلاح ، وهذه الصورة رمز صحيح ، فنذ الإصلاح الناقص في سنة
١٨٣٢ الذي منح حق الانتخاب لعدد محدود من الناخبين حاولت الأحزاب الواحد
بعد الآخر أن تحمل الأسد البريطاني على الاهتمام بخطوة جديدة ، لكن الأسد
الذي أكل كثيراً استمر في نومه ، وكانت المقبرة البرلمانية مليئة بأشباح
مشروعات الإصلاحات التي ولدت ميتة . أحياناً تقترح حكومة من المحافظين
أن تعطى حق الانتخاب لكل ناخب يدفع إيجاراً أكثر من عشرة جنيهات ،
فتصيح المعارضة من الأحرار بأن هذا العمل مخجل ، وأن ثمانية جنيهات هي الحد
المعقول لحقوق الإنسان ، ويقترح أحياناً برلمان غالبيته من الأحرار أن يمنح
حق الانتخاب لمن يدفع سبعة جنيهات ، فيؤكّد دربي بلسان نبيه دزرائيلي أن
في ذلك تسليم إنجلترا للغوغاء ، والأمر في الحقيقة متوقف على معرفة أي الحزبين
الكبيرين يستفيد بالناخبين الجدد ، لكن جلادستون تكلم حانقاً على أولئك
الذين يستشيرون الإحصاءات الانتخابية على هذا النحو ، ويقيسون قوى الشعب
كما يفعلون بجيش من الغزاة ، وقال : « إن الناس الذين تنطبق عليهم هذه

الملاحظات هم إخواننا وهم مثلنا مسيحيون ، هم لحنا ودمنا » . فسأله عندئذ أحد المحافظين لماذا يقف لحنا ودمنا لدى سبعة جنهيات من الإيجار ؟ ورأى بعض الأحرار أيضاً أن مثل هذه العبارات العاطفية لا توافق ذوقهم فانسحبوا من الحزب وسماهم برايت « العدليين » لأن « الملك داود عندما التجأ إلى مغاور عدلام اجتمع حوله جميع الذين كانت عليهم ديون أو كانوا غير راضين » ، حينئذ تمكن دزرائيلي بمعاونة العدليين من إسقاط حكومة لورد چون الحزين وجلادستون المتحمس . وبعد أن قبل اللورد دربي يد الملكة تولى الحكم مع دزرائيلي ، ومرة أخرى تولت هذه الوزارة الحكم مستندة إلى أقلية ، وبارادة تحالف أدت إليه الصدمة ، وظهر في هذه المرة أيضاً أن وزارتهما ستكون قصيرة الأجل .

منذ بداية حكم دربي استيقظ الأسد البريطاني فجأة لأمر غير معروف وهو في غضب ، وكسر حواجز قفصه ممثلة في القضبان المحيطة بهایدبارك ، وتجمعت الجماهير مدة ثلاثة أيام متتالية وهي تنادى طالبة الإصلاح حتى اضطرت الحكومة إلى استدعاء الجنود ، وبكى وزير الداخلية جزعا ، وراقبت ماري آن المتظاهرين من نافذة بيتها فوجدت أن مظهرهم يدل على أنهم يتلهون فصارت تعطف عليهم ؛ وطلبت الملكة دربي إلى قصر بلمورال ، وقالت له إن هذه المسألة ظلت حتى الآن ثلاثين سنة وهي تشغل البلاد ، وإنه يجب أن تحل يوما ما ، وإنه من الخير أن تحل بواسطة وزارة من المحافظين ، وعلى حين فجأة رأى دزرائيلي فرصة نادرة للعب .

فهو في أعماق نفسه كان دائماً من أنصار التوسع في حق الانتخاب المنزلي فيكون لكل بيت صوت مهما كان إيجاره مع تقييدات مناسبة في الزمن والإقامة ، فهذا على الأقل مبدأ تمكن المدافعة عنه ، ويتمشى مع مبادئ المحافظين ، فقد تستطيع أن تقول إن أرباب الدور لهم صالح دائماً في سعادة البلاد ، بينما أن تلك الحدود المصطنعة التي تقف عند عشرة جنهيات أو خمسة جنهيات أو ستة جنهيات

هي سخيصة ولا يمكن الدفاع عنها . ثم إن الحزب الذي يمنح حق الانتخاب لهؤلاء الناخبين الجدد يكون له بعض الفرصة في ضمهم إليه لا سيما أن الأحرار يفقدون أهم جزء من برنامجهم يجد تأييداً من رأى العام . حقيقة إن الفرصة جديرة بالمحاولة ، لكن هل الحزب يقبل ذلك ؟

أظهر الحزب ذكاء مدهشاً ، لم يكن لدى المحافظين من سبب للدفاع عن نظام الناخبين في سنة ١٨٣٢ الذي وضعه خصومهم وحرّمهم من السلطة ثلاثين سنة ، وقد بهرتهم فكرة احتجاج خير ورقة في برنامج الأحرار ، وبالرغم من بعض المعارضين قبل السواد الأعظم منهم مشروع الحملة ، وشعروا أنهم في فخر انتصار عظيم ، ورأى الكثيرون من الأحرار ، وقد أخذوا على غرة ، أنه إذا كان المحافظون يسرون على سياسة الأحرار فلا يسعهم إلا أن يؤيدوهم بأصواتهم ، رأى جلادستون نفسه أمام اندحار منكر ، وكان المسلك الحكيم الوحيد له هو أن يظهر انتصاره لكنه حنق أشد الحنق إذ رأى روح الشر يحمل علم الملائكة ، فهجم بعنف عجيب على خصمه الشيطاني ، وعنى هذا باظهار عدم المبالاة كي يزيد من وضوح الغضب الجنوني الذي ظهر على جلادستون فكان يقول : « إن السيد المحترم كلنى في لهجة يجب أن أقول إنها قلما تستعمل هنا ، ليس ذلك لأنى أعلق أية أهمية على الحرارة التي يظهرها ، لكن حقاً إن مسلكه أحياناً يبلغ درجة من الحمية ، وأشاراته تبعث على القلق حتى تجدى أشعر بارتياح عند ما تذكر أن أعضاء الأحزاب المتعارضة في هذا المجلس الجالسين إلى جانبي هذه المنضدة تفصلهما مثل هذه القطعة من الأثاث الكبيرة الصلبة » .

عندما أخذت الأصوات تغلبت الوزارة بأحد وعشرين صوتاً ، وتمكن دزرائيل في هذا البرلمان المعادى من أن يسير بالقانون بعد أن حاولت حكومات الأحرار منذ ثلاثين سنة عبثاً أن تحصل على الموافقة عليه ، وهو نصر برلماني عظيم شعر به جلادستون ، فقيد في مذكراته : « هي هزيمة لا مثيل لها » ، واشتد به السخط لذلك . وكتب أحد الملاحظين يقول : « لقد قابلت جلادستون عند

الإفطار ، ويظهر أنه قد خشع لمهارة ديزى الشيطانية » . أما دربى فكان سروره عظيماً ، واعترف بأن هذه الخطوات إن هي إلا قفزة في عالم مجهول ، لكنه أضاف إلى ذلك قوله ، وهو يفرك يديه : « ألا ترى أننا نضع الأحرار في مأزق عجيب » .

بعد أخذ الأصوات كان تصفيق المحافظين لـ ديزى شديداً وطويلاً ، وأراد الجميع أن يصافحوه ، وعند خروجه من وستمنستر اجتمع الكثيرون منهم في نادى كارلتون ، وأرادوا أن يقيموا في الحال مأدبة عشاء ، دخل دزرائيل في طريق عودته إلى نادى كارلتون ، وقوبل مرة أخرى بتصفيق شديد لانهاية له ، وطلب أصدقاؤه إليه أن يتعشى معهم ، لكنه يعلم أن ماري آن تنتظره ، وأنها أيضاً أعدت عشاء ، ولم يرد أن يخيب أملها . وفي اليوم التالي روت في حماسة لصديقة لها : « إن ديزى عاد توا إلى البيت ، وقد أعددت فطيرة لحم وزجاجة من الشمبانيا ، فأكل نصف الفطيرة وشرب الشمبانيا كلها وقال لي : « يا عزيزتى ، أنت لي عشيقة أكثر منك زوجة » ، وهى عندئذ فى السابعة والسبعين من عمرها .

غير هذا النجاح كثيراً من موقف دزرائيل في البرلمان ، فهزيمة جلادستون لم يكن فيها ما يؤلم مثل هزيمة بيل ، وهى تبعث على التسلية وفيها ما يدهش ، فإن زعيمين من زعماء الأحزاب ، ومن أكبر من عرفهم مجلس النواب أرادا في فترة عشرين سنة أن يقاتلا ديزى فصرعهما ، وهذا الرجل الذى كثيراً ما تكلم عن الأسرار الأسبوية ، ألم يكن رجلاً من رجال الأسرار ؟ فإذا يرغب ؟ وما هى مراميه ؟ عندما كان يصنع بوجهه المقنع الذى لا يتغير إلى لعنات جلادستون ، ماذا كان يدور بخله ؟ لقد تكون شخص جديد في نظر الرأى العام ، ونشرت مجلة بنش الثانية صورة : « إسرائيل في انتصاره » وهى صورة أبى الهول من الحجر له وجه ديزى ، وقد سحب إلى معبد الإصلاح بجمهور

من العبيد العارين عن الثياب منهم جلاستون بينما دربي يحثهم بالسوط .
لم يكن أحد من الذين يقابلونه عندئذ يتخلص من أثر هذا المزيج المركب من
القوة والسحر فالوجه قد اكتسب صمت الصخور ، وصار الفرق بينه وبين الذين
يحيطونه عميقاً . كتب أحد معاصريه يقول : « قد يكون أقرب إلى مخيلتي أنى جالس
إلى هاملت أو لير أو اليهودى التائه » ، وأضاف إلى ذلك « يقول الكثيرون :
أى ممثل هذا الرجل ! . ومع ذلك فإن الأثر الأخير الذى يتركه هو الإخلاص
الكامل ، يعتبره بعض الناس أجنياً ، ويقولون ما شأن إنجلترا لديه وما شأنه
لدى إنجلترا ، وهم فى هذا مخطئون ، قد يكون الأحرار والمستقلون والمحافظون
لديه سواء فى الواقع ، لكن قوة فنيزيا تلك الجمهورية ذات الإمبراطورية التى
لا تغرب عنها الشمس صورة خيالية تجذبه ، أو أكون مخطئاً كثيراً ، وإنجلترا
هى أرض إسرائيل كما يتخيلها ، وسيكون رئيس الوزارة الإمبراطورى قبل وفاته
إذا سنحت له الفرصة » .

كانت الفرصة قريبة على غير ما ينتظر فقد زادت هجمات النقرس على دربي
وأصبح من النادر أن يقوم بأعمال مركزه حتى بدأ يرى من واجبه اعتزال الأعمال ،
ألح عليه دزرائيل فى البقاء متعهداً بالقيام بالعمل الحقيقى بينما يحتفظ دربي باللقب ،
لكن دربي أخبره أنه سيكتب للملكة معلناً استقلالته ، وأنه يأمل أن جلالتهما
تطلب إلى دزرائيل أن يحل محله ، وأنه سيظل فى عزله يناصر دزرائيل ويؤيده
بكل ما لاسمه من سلطة . قال له : « لا أستطيع أن أبلغك هذا الأمر دون أن
أعترف بفضل مساعدتك الودية والمخلصة فى هذه المدة الطويلة وأشكرك عليها » .
ومما زاد فى قدر دزرائيل أنه رجا رئيسه فى البقاء ، وهو عالم أن الملكة تدعوه إذا
استقال دربي وقد صارحته الملكة بذلك .

فى يوم استقالة زعيمه نهائياً جاءه رسول يدعوه لمقابلة الملكة فى أزبورن ،

لم يفت الساحر الذى يعتقد بعض الشئ فى سحره ملاحظة أن هذا الرسول وهو الجنرال جراى لم يكن إلا الكولونيل جراى خصمه الألىكن والسعيد فى ويكومب عند أول حملة انتخابية له ، وجاءته أول رسالة تهنئة من لورد دربى : « لقد بلغت أعلى درج فى السلم السياسى باخلاصك وجدارتك ، وأرجو أن تتمكن من البقاء فى هذا المركز طويلا » .

فى اليوم التالى قابلته الملكة فى ازبورن وعليها علام السورور ، ومدت إليه يدها وقالت : « عليك أن تقبل هذه اليد » ؛ فركع على إحدى ركبتيه وفى إيمان عميق قبل هذه اليد البضة وهو سعيد حقاً ، كانت الشمس فى الخارج ساطعة لامعة ، وعلى كل فالحياة جديدة بأن يعيشها المرء ، ومن أوائل أعضاء البرلمان الذين قابله جيمس كلاى الذى ضايقه فى مالطة زمن الشباب لمهارته فى البليارد وقال له كلاى : « والآن يا دزرائيلى عند ما سافرنا أنا وأنت معاً منذ أربعين سنة من كان يظن بأنك ستصير رئيساً للوزارة ؟ » .

فأجاب : « هذا حقيقى يا كلاى ، وكما نقول فى الشرق (الله أكبر) ، وهو الآن أكبر من أى وقت آخر » .

قوبل عند تعيينه على العموم بمقابلة حسنة ، وقال حتى خصومه : « إنه انتصار للعمل والشجاعة والصبر » . وعند ما دخل لأول مرة مجلس النواب كرئيس وزارة غصت طرقات المجلس بالسادة الذين جاءوا للترحيب به ، واضطر جون ستيوارت ميل الذى كان يتكلم إلى أن يوقف خطبته بضع دقائق .

بعد شهر من ذلك التاريخ أقامت مارى آن زوجة رئيس الوزارة حفلة استقبال كبيرة فى قاعات وزارة الخارجية إذ سمح بها لورد ستانلى فى ذلك المساء ، كان الجو مكفهرأ وهبت على لندن عاصفة من المطر والريح ، ومع ذلك حضر الحفلة أكثر الناس وجميع المحافظين وبعض الأحرار ومنهم جلادستون وزوجته والكثيرون من الأصدقاء ، وقاد ديزى ، وهو فى أوج مجده ، الأميرة زوجة ولى العهد حول

الأبيهة . بينما ظهرت على مسز ديزى وهى ترتكن إلى ذراع الأمير علائم الكهولة والمرض ؛ فهى منذ شهر تعرف أنها مصابة بالسرطان ، لكنها لم ترد أن تخبر زوجها ، فهذا المزيج من المجد والاضمحلال أضاف لوناً قاتماً إلى حفلة الانتصار ، وقد صار هذان الكهلان محبوبين بعد نضال طويل ، وقبلهما الناس ، وليس هناك غرفة استقبال فى لندن لا يقال فيها « مارى آن » فقط عند الكلام على زوجة رئيس الوزراء ، كان دزرائيلى نفسه يعرف مقدار البهلوانية العجيبة التى أدت إلى صعوده ، وقال للذين يهنتونه : « إننى تسلقت حتى قمة هذا العامود المنزلق » ، وقال له صديقه سير فيليب روز : « لو أن أختك كانت حية واستطاعت أن ترى هذا الانتصار كم تكون إذن سعيدة ! » فقال : « مسكينة سارة ! مسكينة سارة ! نعم لقد خسرنا جمهورنا » .

القسم الثالث

أصغ إلى عصف الرياح
وامتلاء الجوبتطير ورق الأشجار
نعمنا بأيام الصيف في المساء
والآن حل الخريف

تمايل أشجار الزان العظيمة
وتخلع أثوابها كالغطاس
فلتقنع بملازمة النار
ولتهجر ذكرى البحار

حيث تجرى سفن الشباب
تقتفى أثر الرياح
أمامهم مغامرات الحياة
لا يتخلف غير العجوز

هيمبرت ولف

تذکره

در بیان احوال و سیرت
و صفات و مناقب
و احوال و سیرت
و صفات و مناقب

در بیان احوال و سیرت
و صفات و مناقب
و احوال و سیرت
و صفات و مناقب

در بیان احوال و سیرت
و صفات و مناقب
و احوال و سیرت
و صفات و مناقب

تذکره

الملكة

تم اختيار وزير جديد للمالية ، وكتب رئيس الوزارة في هذا الشأن للملكة :
« يريد مستر دزرائيلي أن يلاحظ لجلالتك أن المنظر الخارجى للمستر واردهنت
يسترعى النظر ، لكنه ليس بالمنظر الكريه ، فطوله أكثر من ستة أقدام ،
غير أنه يظهر أقل طولاً لأن ضخامته متناسبة ، فهو مثل كنيسة القديس بطرس
بروما لا يستطيع المرء في أول الأمر تقدير ضخامتها ، على أن فيه حكمة الفيل كما
له نصيب من شكله » ، وهى نعمة عجيبة فى خفتها فى الكتابة إلى ملكة ، لكنها
كانت تسر لها كثيراً .

أغضب دزرائيلي فى مجرى حياته رجالاً كثيرين ، على أنه وجد فى النساء
تسامحاً معه فكراهيته للجدل المنطقى وأدبه الزائد ، وميله الخفى إلى الاستهتار مما
تم عليه عباراته المزخرفة عمداً — كل هذا فيه ما يجذب النساء — وهن يوقظن
فيه عاطفة ليست هى الحب الجنسى ، وإنما هى نوع من الحنان فيه سمو وتواضع
وأخوة حلوة وغامضة ، فهو يحب عنادهن وجهلهن وبساطتهن ، وكانت امرأة —
مسز وستن — هى التى وجدت ناشرأ لثيقيان جراى ، ونساء — آل شريدان ،
ثم لادى كورك ، ثم لادى لندندرى — هن اللاتى فرضنه على الهيئة الاجتماعية ،
وامرأة — مارى آن — هى التى مكنته من مقعده فى البرلمان ، وفى كل شعبة من
شعب ذكرياته وجد أحد هذه الوجوه تحنو ساهرة على متاعبه وآلامه . وقد نظر
بعين الخبير إلى هذه الأرملة ذات المركز السامى فى قبعته من قماش التول الأبيض
وهى فى أعلى سلم الشرف فشعر بالارتياح إليها ، وهذا شعور لذيذ .
كانت الملكة تعيش منذ وفاة زوجها المحبوب فى وحدة العظمة ، وقد نذرت
بأن تخدم جميع رغبات البرت وعاداته ، تنتقل وهى فى أثواب الحداد من قصر

إلى قصر ، فمن وندسور إلى أوزبورن ، ومن أوزبورن إلى بلمورال ، شكوا الجمهور من عزلتها ، وصارت تتألم إذ تشعر بأنها ليست محبوبة ، فلا أحد يفهمها ولا أحد كان يفهم البرت الذى تألم لذلك أيضاً ، لا أحد يفهمها غير مستر دزرائيلي وأدهشها هذا الأمر لأنها تذكر عدم ثقها به هى وزوجها أيام سقوط سير روبرت المسكين ، قال البرت فى تلك الأيام : إن دزرائيلي هذا ليس فيه ذرة من عنصر الرجل النبيل . ومع ذلك وجد الأمير فى الأيام الأخيرة من حياته فى شىء من التردد لذة فى الحديث أحياناً مع زعيم المعارضة ، ووجده مثقفاً وأكثر علماً بتاريخ إنجلترا من أى رجل من رجال السياسة ، واعترف بأن موقفه نحو العرش لا غبار عليه .

لكن ظهرت نفسية مستر دزرائيلي بنوع خاص عند وفاة البرت ، فلم يكتب أحد إلى الملكة رسالة أجمل من رسالته ، ولم يتكلم أحد فى مجلس النواب عن الأمير بأحسن مما قاله ، صارت الملكة تعتقد أنه الشخص الوحيد الذى قدر الأمير حق قدره ، فكافأته بأن أهدت إليه خطب البرت مجلدة بجلد مرا كشي أبيض ، وكتبت إليه : « إن الملكة لا تستطيع أن تقاوم الرغبة فى التعبير شخصياً للمستر دزرائيلي عن شكرها العميق لإطرائه ذكرى زوجها العظيم والمعبود والمحبوب . قرأت كلامه فذرفت عيناها بالدموع ، لكن مثل هذا الحكم الصائب على أخلاقه الطاهرة كان له تأثير حسن على قلبها المنكسر » .

إذن كان شبسح البرت راضياً ، لكن بين الملكة والوزير روابط أخرى أكثر من مجرد الذكرى ، فإنه على اختلاف عقليتهما فى الظاهر كان بينهما تشابه دقيق ، فالاثنتان ينظران فى نخر ساذج إلى الإمبراطورية الشرقية العظيمة التى تحكمها من جزيرة شمالية تلك المرأة الصغيرة البدنة القوية الإرادة وذلك الوزير المقوس الظهر ، وكل منهما بنوع خاص بعيد عن التفاهة ، فقد نجد بعض تصرفات الملكة مضحكة ، والكثير من تصرفات دزرائيلي متصنعة ، لكن فى الاثنین شجاعة وعظمة ، وهى تتذوق عن طريقه لذة الملك أكثر مما تتذوقها عن طريق

آخر ، وقد وضعها وهو قرير العين على رأس الموكب الفخم لهذه الحياة ، كان إذا كلمها في أمر البلاد التي تحكمها تشعر بالقوة والسؤدد ، وعاد للأعمال العامة ما كان لها من بهجة زمن البرت مع هذا الوزير الذي يصف جلسات مجلس الوزراء وكأنه يصف مناظر رواية ، والذي يجد السياسة لديه قصة مغامرات شخصية تكاد تكون عاطفية . كان دزرائيلي يعلم أن رسائله تسليها ، فوجد لذة في كتابة رسائل إليها ناقدة وبديعة فهل هي تفهمها دائماً ؟ إنها تفهم أكثر كثيراً مما تظن بطاقتها ، وهي تجد لذة في أن تترك الساحر يقوم بحيله الناجحة ، ثم تعود بقوة إدراكها للحقائق فتقوده بيد ثابتة إلى طريق العمل المرغوب .

فإذا رغب رئيس الوزارة في أن يزور ولي العهد ارلنده كي يهدي اضطرابها ولو قليلاً فإنه يكتب للملكة : « إن مستر دزرائيلي يستأذن في القول بأنه في مدى قرنين لم تتجاوز إقامة ملوك إنجلترا أحد وعشرين يوماً في أرض ارلنده ويستطيع سموه الملكي أن يذهب إليها للصيد . وهذا مما يجمع بين الواجب العام والرياضة ، وهذا الجمع خليق بالأمراء » . وافقت الملكة « على أن يكون من المفهوم أن تتحمل الحكومة نفقات هذه الزيارات الملكية إذ هي تفرضها على الملكة ، فليست ارلنده بالبلد الذي يختار لمن ينشد الصحة أو الراحة » .

وكثيراً ما كان الوزير يدافع عن نفسه ، فإذا ما سئل عن سر نجاحه مع الملكة أجاب : « إني لا أرفض أبداً ولا أعترض أبداً وأنسى أحياناً » ، وفي هذه العبارة توضيحية من أجل تعلقه بالعبارات الماثورة ، فهو كثيراً ما يعترض . عندما مات رئيس أساقفة كنتربري وأصرت الملكة على تعيين « تيت » أسقف لندن بدله أبدى دزرائيلي اعتراضات جدية ، وكتب يقول : « مما يلاحظ على أسقف لندن بالرغم من عبوسه في الظاهر أن في تكوينه الداتى كمية عجيبة من التحمس ، وهي صفة لا يجب أن تكون في رئيس أساقفة كنتربري ولا في رئيس وزارة إنجلترا ... » ، أصرت الملكة فهي تعرف جداً أن الأسقف « تيت » خال من أى نوع من أنواع الحماسة ، لكن هل هذا القول ينطبق على رئيس وزارة إنجلترا ؟

في ذات يوم تسلمت ماري آن من وندسور صندوقاً يحتوي أزهاراً جديدة من ورود الربيع ، ومعها رسالة من الأميرة كريستيان : « عهدي إلى والدتي بأن أرسل إليك هذه الزهور باسمها لمسترد ذرائيلي ، فقد سمعته ذات يوم يقول : إنه يحب كثيراً شهر مايو وجميع زهور الربيع الجميلة ، لذلك أقدمت على إرسال هذه الزهور إليه كي تزدان بها غرفته » ، وأجابت ماري آن بعبارة من الجلي أن ديزي أملاها عليها : « قمت بأسعد الواجبات عندما أطعت أمر جلالة الملكة ومسترد ذرائيلي مغرم بالأزهار ، لقد زادت بهجة هذه الأزهار ورائحتها بفضل هذه اليد المتنازلة التي نثرت عليه جميع خزان الربيع » .

قدم الوزير إلى الملكة جميع رواياته ، وأهدت الملكة إلى الوزير مؤلفها عن « ذكريات حياتنا في اسكوتلنده » ، وكثيراً ما قال لها رئيس الوزارة بعد ذلك : « نحن المؤلفون ياسيديتي » ، فيبتسم ذلك الفم الصغير المتكبر ، وفي كل أسبوع تصل ورود الربيع من وندسور ، ويصل البنفسج من أوزبورن إلى « جروفنر جيت » في الصناديق ، وقد وضعت الحشائش حول الزهور ، وصارت المراسلات الرسمية مزيجاً عجيباً من الشعر الريفى والسياسة الواقعية .

كان في إنجلترا رجل واحد على الأقل يرى في سمو مركز ذرائيلي ، وتوثق العلاقة بين العرش وبين هذا الدجال العبرى فضيحة لا تحتمل ، هذا الرجل هو جلادستون . وقد نشرت مجلة بنش في ٢٤ مارس سنة ١٨٦٨ رسماً يمثل غرفة الملابس في مسرح ، وأمام المرأة وقف مسترد ديزي وهو ممثل كوميدى هزيل في ثياب هاملت يكرر في رضا : « يكون ... أو لا يكون ... هذه هي المسألة ! إهم ! » ، وفي آخر الغرفة وقف مسترد جلادستون الممثل التراجيدى في ثياب عادية ينظر إليه في حسد واحتقار ويقول : « الدور الأول له ... وهو لا ينفع إلا للأدوار الثانوية ، إن المدير لمجنون ... لكن سيأتى الوقت » .

كانت هذه العاطفة أكثر تعقيداً من مجرد غيرة بين ممثلين فإن جلادستون

يحتمل بلا شك نجاح ستانلي مثلاً في امتثال وتواضع ، لكن الشهوات كالألهة تتقمص أشخاصاً كي تعمل ، والطمع لكي يغريه اتخذ شكل الكراهية القائمة على الفضيلة ، فمئذ عشرين سنة بينما هو يرتفع بين غمغمة الإعجاب وسط أمثاله المحترمين رأى شكلاً عدائياً وعجيباً يرتفع أمامه ، ولم يكذب يجد غيره في المنطقة العالية التي تكاد تكون مهجورة والتي رفعت مواهبه إليها ، فاتخذته بالرغم منه مقياساً لنجاحه ، واعتقد أن الجميع يفوقونه إذا فاقه دزرائيلي ، « وأن أشد الألفاظ التي صادفت الملك داود وبعثت في نفسه الألم رخاء الأشرار فأن يقبض كاتب القصص الفارغة عن فيفيان جراي وكوننجسي على الصولجان مثل الكاتب الذي كتب أشياء جميلة عن المسيح ، وأن يصل الرجل ذو العبارات اللاذعة والبراقة والمتكبرة قبل الرجل الذي لم يرتكب قط كتابة عبارة لاذعة ، والذي يلزم الجد دائماً ويفضل الموت على أن يعترف بأنه يمتلك ذرة من الذكاء أكثر من خادمه ، أليس هذا كافياً لأن يؤدي بالرجل الشريف إلى تمزيق معطفه وحلق شعره ، ثم يجلس بلا عزاء في الرماد ! » .

لكن جلادستون لم يكن الرجل الذي يجلس في الرماد ؛ فهو قد ينشد في الواقع : « إلى متى تتركني أيها الرب ؟ إلى متى يرفع عدوي فوقي ؟ » إلا أنه يضيف كما فعل الملك داود : « أضى عيني كي لا أنام أبداً نومة الموت خشية أن يقول عدوي لقد تغلبت عليه » ، لم يستطع كتمان حقدده حتى أنه على غير العادات البرلمانية حاول في الأسبوع الأول من حكومة دزرائيلي أن يتعارك معها ، وكان دزرائيلي بإتمامه الإصلاح الانتخابي قد نزع من حزب الأحرار أحد أسلحته ، لكن لحسن الحظ بقيت أشياء كثيرة للإصلاح إذ يمكن إصلاح مجلس اللوردات والكنيسة والتاج والجيش والتربية ، وكان جلادستون يفضل إصلاح النظام الشمسي على ترك دزرائيلي ينعم في سلام بثروة غير جدير بها ، لكنه لشعوره الدقيق جداً بما يشغل الأذهان من وجهة السياسة اختار مسألة الكنيسة لا سيما الكنيسة الإيرلندية ؛ فما لا شك فيه أنه مما يتعارض مع حرية الدين أن يضطر

كاثوليك إيرلنده إلى إعانة الكنيسة البروتستانتية الحكومية ، وكانت إيرلنده عندئذ
في اضطراب شديد ، فالجرائم والاعتداءات ترتكب بالئات ، ومن غير المستطاع
معاينة المذنبين لأن الجزيرة بأجمعها مشتركة معهم ، وصار جلادستون يؤكد أنه
لو فصلت الكنيسة عن الدولة ، ولم تعد الكنيسة البروتستانتية هي المعترف بها
رسمياً فإن ذلك يقضى على أحد أسباب الاستياء ، وربما كان هذا السبب أخطرها
وفهم دزرائيلي أن منافسه قرر أن تكون المسألة الدينية هي محور الانتخابات .
لم يكن دزرائيلي في رأى من آرائه أكثر ثباتاً منه في هذه المسألة . هل كان
من ذوى الإيمان الدينى ؟ قد لا يتعمق ، مثل جلادستون ، في الجدل الدينى بحماسة
وكان يرى أن فيضانات من التفكير الدينى تطنى في فترات منتظمة على العقول ،
وأن هذه العواصف قليلة الأهمية ، لأن المياه في انحسارها تسمح برؤية السفينة
الثابتة على قمة الجبل ، وهذه السفينة هي الوحي السامى والمسيحى أى التوراة
متممة بالأناجيل ، وهى أيضاً حاسة الشعور بالأسرار ، ويعتقد دزرائيلي بمجامع قلبه
أن العالم إلهى ، ويرى أن الوجود (لا سيما وجوده هو نفسه) معجزة وهو يتضابق
من علوم الحياة التى رفع علمها فى ذلك الوقت كل من هكسلى ودارون ؛ فهى
تحاول أن تجعل من المعجزة مجرد تعادل بسيط ، وهو يجهل هذه العلوم ويحتقرها
بنسبة جهله ، وقد دافع عن الكنيسة أمام الملحدى منذ بضع سنوات فى
أكسفورد فى خطبة شهيرة ، وقال : « سادى . . إن الإنسان ولد ليعتقد ، وإذا
لم تتقدم إليه أية كنيسة لتقوده بما لديها من مستندات الحقائق معتمدة على تقاليد
العصور المقدسة ، وإيمان أجيال لا حصر لها فإنه يخلق مذاهب ومعبودات فى قلبه
وفى خياله . . يقولون لنا إن اكتشافات العلم لا تتفق الآن مع تعاليم الكنيسة
والمسألة هى : هل الإنسان قرد أم مَلَك ؟ . . إني بإساذتى فى صف الملائكة » ضج
المرج بالضحك . . هل مستر دزرائيلي حقاً فى صف الملائكة ؟ . كان الناس فى
إنجلترا بأجمعها لا يتمالكون أنفسهم من الضحك ، ولم يفت مجلة « بنش » هذه
الفرصة الجميلة فرسمت ديزى فى صورة القرد ، وهو فى ثياب بيضاء ، وله جناحان

كبيران . على أن دزرائيلي كان جاداً حقيقة في قوله ، فهو يعتقد أن الإنسان ليس مجرد آلة عاملة ، وأنه فضلاً عن المادة الخاضعة للتفاعلات الطبيعية والكيميائية فيه عنصر مختلف قد يسمى الروح والإلهام والنبوغ ، وهو عنصر ملائكي كله . أما عن الحقيقة الحرفية لهذا الدين أو ذاك ؛ فمن المرجح أنه لم يكن يفكر فيها ، لكن له مع ذلك في هذا الموضوع آراء يتمسك بها .

أولها : أنه من الضروري لسلام العقول والدول أن تثبت العقيدة ؛ فهو لا يثق أية ثقة بما يسمى الدين الأخلاقي أو دين الجمال الفنى ، ويقول : « إن كل دين قائم على الجمال الفنى ينتهى إلى التهلكة » ، وقال يوما في سخرية للعميد ستانلي من أصحاب فكرة الكنيسة الواسعة أى تفسير النصوص الدينية تفسيراً حراً : « إذا لم يكن هنالك مذهب فليس هنالك عميد ياسيدى العميد » ، وقد أعجب منذ الصبا الأول بثبات كنيسة روما ، وفيما عدا روما ، كان يجد في كنيسة إنجلترا الضمان الوحيد للسلامة الروحية في البلاد .

وفكرته الثانية : ضرورة وجود رابطة بين الحكومة والدين ، ومن هذه الجهة كانت الحالة في إنجلترا موفقة جداً ؛ فالملك هو رئيس الكنيسة ، وهو الذى يعين بنفسه رؤساءها ، فالكنيسة بدلا من أن تكون دولة داخل الدولة « أمبريوم إن أمبريو » فإنها تزيد سلطة الدولة ، وهى علاقة لا يجب قطعها ، وقد يكون فصل كنيسة أرلنده أجراء عادلا ، ولكن دزرائيلي يرى أنها الخطوة الأولى في طريق خطر وفيها قلب للدستور ، لذلك استعد لأن يخوض النضال الانتخابى على الأرض التى اختارها جلا دستون ، وسيقف أمامه على أنه المناضل المتناقض عن الكنيسة .

حداد

بلغ مستر جلادستون الستين على أن نشاطه الحيوى العجيب بالرغم من ذلك ما زال يتطلب منه أعمال الجبارة ، فهو فى انتظار نتيجة الانتخابات فى الريف فى هاواردن يقطع أحياناً ثلاثة وثلاثين ميلاً فى يومه ، ثم يعود فى المساء متعطشاً إلى عمل مجهود آخر ، وهو فى أغلب أيامه يشتغل بقطع الأشجار وتلك لذته المحبوبة ، فهو ينزل ضرباته على تلك الجذور كما لو كانت مساوياً قديمة . فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٨ ، كان فى قميصه وقد رفع فأس الخطاب عند ما جاءت رسالة برقية من الملكة تعلن زيارة جنرال جراى . فقال جلادستون لرفيقه : « إن لذلك معنى كبيراً » واستأنف عمله ، وبعد بضع دقائق سكنت ضربات الفأس وقال فى لهجة جدية عميقة : « إن رسالتى هى تهديته أرلندة » وكتب فى مذكرته : « يظهر أن العلى الأعلى يؤيدنى ويحفظنى لحكمة عظيمة أرى أننى غير أهل لها ، المجد لاسمه » .

هكذا شعر بأنه لن يغلب وهو مؤيد بالعناية الإلهية ، ومعضد فى مجلس النواب بأغلبية عظيمة وشاعر بجسد كجسد الرياضى ، وعقل من الحديد ، وستسقط تحت قرعات فأسه التشريعية بعض أشجار البلوط من أقدمها عهداً فى الغابة ، لكن الهواء والضوء سوف ينفذان فى حرية إلى النباتات الصغيرة فى الأرجاء . وكتب فى مذكراته : « هواردن فى ١٣ يناير أعددت مشروع إجراء آتى عن الكنيسة فى أرلندة — وعملت فى ترجمة هوميروس حتى الليل » ، وأحياناً يسجل أنه كان مضطرباً فى يومه كالبحر ، بينما دزرائيلى وهو مصاب بداء المفاصل وضيق التنفس يتدفأ فى حرارة الشمس على شرفة هوجندن وينظر إلى الطيور والأزهار ويفكر فى رواية جديدة .

عند ما علم بنتيجة الانتخابات وبهزيمته فكر أولاً فى اعتزال الحياة السياسية

ويسمح له العرف عندئذ بأن يلتمس الإِنعام عليه بقلب من ألقاب الشرف ، ويجد في مجلس اللوردات عزلة شريفة ، لكن بعد تفكير لم يستحسن أن يترك حزبه وهو مغلوب ويهجر مركز النضال في مجلس النواب ، ولما أبدت الملكة رغبة في مكافأته على خدماته طلب أن ترفع ماري آن إلى مرتبة الأشراف ، وأن يظل هو مستر دزرائيلي ، وتفضلت الملكة بإقرار هذا الاقتراح فاختر لزوجته اسم بكونسفيلد وهو اسم بلدة صغيرة في باكنجهامشير ، ويعلم دزرائيلي أن بيرك العظيم لو أنه عاش طويلاً لود أن يصير لورد بكونسفيلد ، وهو نفسه خلق لورداً بهذا الاسم في رواية فيفيان جراي وهو يحب دائماً أن ينقل رواياته إلى الحياة ، وصارت ماري فيكونته بكونسفيلد ، وبقي ديزي على حاله .

أولئك الذين عقدوا الآمال بين أصدقاء دزرائيلي ، على أن يروا هجمات عنيفة على حكومة الأحرار أخطأوا التقدير ، فقد ظنوا أن وصول المنافس إلى منصة الحكم سيدفع بزعيمهم إلى مضاعفة مجهوداته ، لكنه لم يكن في أطوار حياته أكثر هدوءاً وأكثر كسلاً وصمتاً ، فكانت خطبته عن الكنيسة في أرنلدة ، وهي خطبة فارغة سطحية مثل « جونيلة كولومبين كلها من التل والشرائط » وتساءل حزب المحافظين مرة أخرى وهو مندهش إلى أين يريد أن يسير هذا الرجل وهو سر من الأسرار ، فهل يكفيه تذوق السلطة العليا مرة ؟ وهل يترك جنوده في الميدان ؟ لكن من خلف قناعه الحزين الذي لا يخترق ، كان عقله اليقظ يسهر ويتسلى ، هل يناضل هذه الأغلبية وهي جديدة . هل يناضل جلاستون ذلك الحيوان الفخم من حيوانات القتال ، وأنفه لا يزال يقذف بالدخان ؟ هذا جنون ، إنه يعرف هذه الأغليات والممرن يطلق العنان للجواد الفتى فيصير التغلب عليه أسهل عن ذي قبل ! هل لجلاستون قوات ؟ فليستعملها إذن ، ليحاول تهدئة أرنلدة بضربات القوانين ، فإن أرنلدة استعملت ما هو أحد وأفعل ، ولتنزل فأسه على أمور المال والتربية والجيش ، فسيأتي وقت المقاومة له

والانفضاض من حوله والسيوف الكليية ، حينئذ تكون اللحظة لقلب الصنم الذى يهتز على قاعدته ، فالصبر الصبر إلى ذلك الحين ! لندعش الناس من هدوئنا ، فى ذلك وجه للمقارنة المفيدة لنا بجانب هذا الاضطراب .

كان التأثير التمثيلى لمثل هذا النوع من المعارضة كبيراً حتى كأن البطالين نفسيهما يسران له ، وكانت الرواية التمثيلية البرلمانية تذهب أحياناً إلى حد المهازل فى ذات يوم وقف جلادستون وهو على مقعد الوزراء وقفة جديرة بالإعجاب ، وهو يرعد بالقول وانهاى على منافسه بنعوت تزداد شدة ، وأمام كل نعت يحنى دزرائيلى رأسه ثم يحنيها ، وبعد أن وصلت ذقنه إلى صدره أخذ ظهره ينحنى ، وكأنه تحطم فعلاً تحت الضربات الهائلة لصوت جلادستون ، وأخيراً انتهى هذا من خطبته بضربة عظيمة من قبضته على المنضدة الكبيرة التى تفصل بينهما ، فطارت الأوراق والأقلام وتبعثرت ، ثم جلس وتساءل المجلس لحظة وهو صامت لا يتحرك عما إذا كان ديزى سيستطيع أن يرفع رأسه ، وأخيراً رأوا هذا الجسد المنحنى تعود إليه الحياة فى هدوء ، وتحرك الرأس أولاً ثم الجسم ، وأخيراً وقف دزرائيلى وقال فى صوت لا يكاد يسمع : « إن السيد المحترم تكلم فى كثير من الحماسة ، وكثير من الفصاحة ، وكثير من العنف (وهنا فترة سكوت . . فترة طويلة) ، لكن الضرر يمكن إصلاحه » وأحنى جسده بصعوبة وجمع الأشياء التى تناثرت على أثر عنف جلادستون الواحدة بعد الأخرى وأعادها بنظام إلى أماكنها المعتادة فوق المائدة المقدسة ، ونظر فى رضا إلى النظام الذى أعاده ، ثم أخذ بعد ذلك يرد بصوته الجميل ، وقد لاقت هذه القطعة من التمثيل الرمزي ما تستحق من نجاح .

لكن مثل هذه المناظر كانت نادرة ، فقد كان من البين أن دزرائيلى لا يريد فى ذلك الوقت قلب جلادستون ، وظلت عباراته المأثورة فى حدود المجاملة . وفى ذات مرة وقف جلادستون فى منتصف عباراته فتدخل برقة قائلاً : « أتريد كلمتك الأخيرة . . إنها الثورة » . وسألته إحدى بنات منافسه فى حفلة عشاء

عن رأيه في وزير أجنبي فأجاب : « إنه أخطر رجل في أوربا — فيما عداى —
في رأى أليك ، وفيما عدا أليك في رأى . . . » .
كان عقله طليقاً حتى إنه انتقل مرة أخرى من العمل إلى التأليف الأدبي ،
وأخذ يعمل في رواية « لوثير » .

ولوثير هو نبيل انجليزى صغير وارث لثروة دزرائيلية أى ليس لها حد ،
تتقاسم عقله ثلاث قوات ممثلة في ثلاث نساء ، وهى كنيسة روما والثورة الدولية
والتقاليد البريطانية . ومن الطبيعي أن تتغلب لادى كوريساندا المدافعة عن كنيسة
انجلترا ، وكان الموضوع خطراً ، وتحقيق الفكرة موقفاً ، وقد صور شخصيات
من قساوسة روما والثوريين والسياسيين الانجليز بايقان مدهش ، ونجح الكتاب
نجاحاً باهراً جداً ، ولم يحدث من قبل أن باعت المكتبات البريطانية رواية
لرئيس وزارة سابق ، فلم يعد للمجالس حديث غير رواية لوثير ، وأطلقت أسماء
لوثير وكوريساندا على الجياد والقوارب والأطفال والروائح ، ووصل الجنون بلوثير
إلى أمريكا ، ولم يبق معادياً غير البرلمان ، فقد شعر حزب المحافظين بالخجل إذ
يرى أن زعيمه روائى وذو مواهب .

اشتدت وطأة المرض في هذه الأثناء على ماري آن ، فقد أصيبت منذ
سنة ١٨٦٦ بسرطان في المعدة ، وهى تعرف ذلك وتحاول إخفاء مرضها عن
ديزى ، وهو يعتقد أنها تجهل هذا المرض فيتكلم عن هذا المرض باستخفاف ،
وظلت هى في شجاعة تعيش متصلة بالحياة الاجتماعية . وفي سنة ١٨٧٢ رأى
المتولى أعمال سفارة فرنسا الشاب فى إحدى الزيارات مخلوقاً عجيباً مزيناً كأنه
صنم هندي حتى لقد ظنه مهراباً عجوزاً ، وهى ماري آن وخلفها ديزى وهو متعب
حزين ، تدلت على جبينه العارى عن الشعر آخر خصلة خضبت بالسواد وجمدت
فوق الجبين ، وحملت ماري آن على صدرها أطراً مستديراً فيه صورة زوجها ،
وكأنها تحمل نوطاً أو وساماً ، وهى عندئذ فى الثمانين من عمرها ، وهو

في الثامنة والستين ، وكان منظر الزوجين مضحكا ومؤلماً .

صار من الصعب عليهما أن يعنى الواحد منهما بالآخر ، وأحياناً يمرض الاثنان فيتراسلان من غرفة إلى غرفة ، يكتب مستر ديزى : « إني مستلق على ظهري فمعدرة لكتابتى بقلم الرصاص ، إنك أرسلت لى ألد وأرق رسالة جاءتني في حياتي ، وإنك لتفوقين هوراس والبول ومدام دي سفنيه ، صار جروفر جيت مستشفي ، لكن المستشفى معك خير من قصر مع أخرى . زوجك د. » .

كانت تقول لأصدقائها : « بفضل هذه الطيبة لم تك حياتي إلا فصلاً طويلاً من السعادة » ، وهو يقول : « لقد تزوجتها منذ ثلاثين سنة ، ولم أشعر قط بملل » صارت ماري آن عاجزة تقريباً عن تناول أى طعام . وفي ذات مساء بينما هي عند بعض الأصدقاء أخذتها نوبة ألم شديد ، حتى إنها لم تتمكن من إخفائه ، وعدلت بعد ذلك عن الخروج ، واضطر زوجها بعد ذلك إلى تركها أحياناً ، لكنه لا يفعل مهما كان غيابه قصيراً من غير أن يكتب لها رسائل عديدة .

من ديزى إلى مسز ديزى :

« ليس لدى ما أقوله لك غير أني أحبك ، وهو قول أخشى أن تجديه عادياً بعض الشيء » .

من مسز ديزى إلى ديزى :

« أعز الناس لدى . إني أشعر كثيراً ببعذك وإني مدينة لك على رقتك وطيبتك الدائميتين » .

حيث إنها لم تعد تحتمل السفر ، فقد أمضيا الصيف معاً في لندن يخرجان في عربة ويزوران الأحياء غير المعروفة ليهما ويحاولان أن ينسياه أن الحديقة الممتدة أمام نوافذها اسمها هايد . ثم انتقلت حالتها من سيئ إلى أسوأ ، فظنت أن هوجندن قد تفيدها ، على أنه لم يبق سبيل لعلاجها ورفضت معديتها أى غذاء ، وبالرغم من أنها كانت تموت فعلاً من الجوع فإنها ظلت تدعو بعض الأصدقاء بطيبة خاطر وتتنزه معهم في عربة صغيرة يجرها جواد ضئيل هرم ، وبمجرد أن تترك الغرفة

يتكلم دزرائيلي عن آلام زوجته ، ويرى زأروه هذا الوجه الذي عرفوه لا يتغير وقد عبثت به العواطف ، ولما صار من البين أنها لن تقوم من علتها أرسل برقية إلى مونتاجو كورى يدعو فيه للحضور ، إذ شعر بأنه لا يستطيع وحده احتمال الصدمة . وماتت في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ ووجد بين أوراقها الرسالة التالية :

« زوجي العزيز ديزى : إذا تركت هذه الحياة قبلك فمر بأن ندفن في قبر واحد ، والآن ليباركك الله أيها الزوج الطيب القلب العزيز ، كنت لى زوجاً كاملاً ، وداعاً يا ديزى العزيز . لا تعش وحدك أيها العزيز ، فإني أرجو من أعماق قلبي أن توفق إلى من تكون متعلقة بك بقدر ما كانت زوجتك المخلصة مارى آن . »

إن أقل النفوس اكتراثاً وربما أشدها صلابة يشعر بالقيمة البشرية في وطأة حزن حقيقي ، لذلك عطف الجميع أشد العطف ، ونسى جلادستون كل حقد سيامي فكتب رسالة مؤثرة : « أظن أننا تزوجنا في سنة واحدة ، وكان من حظنا نحن الاثنين أن نتمتع مدة ثلث قرن بسعادة لا تقدر ، وأنا الذي نجوت من الضربة التي أصابتك أستطيع أن أتصور أثرها عليك وما يكون أثرها لدى . » ثم أكد له أنه في ساعة هذه المحنة يتألم المأ عميقاً معه ومن أجله ، وكان مخلصاً ، ومما لا شك فيه أن كلا من المتنافسين ظهر لحظة للآخر بمظهره الحقيقي غير مشوه بالشهوات ، وهكذا يحدث أحياناً أن المجنون يجد بضع لحظات من الهدوء تتبدد فيها الأشباح ، ثم تتجمع الشهوات وتتعدد الملامح ويعود المرض وحشاً كاسراً .

كانت مارى آن تفخر في حياتها بحق بأنها توفر على ديزى جميع المتاعب الصغيرة التي ترهق عقله ، وصار بيته وخدمه منذ زواجه آلات كاملة لا يحتاج إلى التفكير فيها ، « فلم يكن هنالك شاغل لا تستطيع القضاء عليه ، أو صعوبة لا تستطيع مواجهتها فكانت أشجع امرأة عرفتها وأكثرهن مساعدة » .

وبموت ماري آن لم يجد رجلها العظيم من يدافع عنه ، كانت ثروتها مؤقتة بحياتها ، والبیت نفسه ذهب إلى ورثة ، واضطر ديزي إلى تركه والانتقال إلى فندق ، كان تركه لجروفر جيت بعد أن أمضى ثلاثاً وثلاثين سنة سعيدة في تلك الدار هو تركه لماري آن مرة أخرى ، ففي هذه الدار انتظرت ليلة بعد ليلة عند العودة من مجلس النواب ، والدار مضاعة دائماً حتى تبدو له يريقها في الضباب عند ما يعود بعد جلسة حادة ، وهذه الدار هي ملجؤه والمكان الذي يترك فيه النفس والجسد لحريرتهما ، وفيها النقد ينقلب مديحاً ، والتأنيب ينقلب تديها ، لا ريب في أنه سوف لا يعرف بعد الآن لذة المأوى الحقيقي ، فتكون حياته بعد الآن في لندن هي وحدة الفندق — وهي أسوأ أنواع الوحدة — بأثاثه السخيف وطعامه على انفراد والجيران المجهولين . فعندما يقول لسائق عربته : « إلى البيت » يتذكر فجأة أن لا بيت له ، وتترقرق عيناه بالدموع ، ولولا مونتاجو كوري سكرتيره الذي سهر عليه كما يسهر الابن على أبيه ، ولولا الأصدقاء من أمثال عائلتي مارز وروتشيلد الذين يرحبون به لصار حطاماً ، لكن الصداقات مهما كانت رقيقة لا تحل محل عطف امرأة . وفي سكون غرفة الفندق كان يعتز بالذكرى الشاردة لصوت فرح .

خشى أصدقاؤه السياسيون أن يتخذ من الحداد حجة للاعتزال النهائي ، لكن حدث غير ذلك فإذ لم يجد في نفسه غير الأفكار المحزنة اتجه إلى النشاط واستأنف النضال لكي لا يفكر .

وجد الوقت ملائماً وخطة الانتظار أحدثت أثراً حسناً ، فقد مد الحبل لجلادستون ، ونشط جلادستون في آلاف النواحي ، ولم يبق غير الاستفادة من الأخطاء التي تتولد بالضرورة عن كل نشاط . فقد قال حطاب هواردن وهو مرتكن على فأسه القوية : « إن رسالتي هي تهدة إيرلنده » ، ولكي يؤديها إلى الكنيسة البروتستانتية في إيرلنده ، وعمل على إصدار سلسلة من القوانين يقصد بها

حماية الزراع من كبار المالكين ، لكن إرلنده كانت أقل هدوءاً منها في أى وقت آخر ، يُضرب الموظفون بالعصا من رجال مقنعين ، ويطعن رجال الشرطة بالخناجر ، وتنسف البيوت ، واحتمل العامل على التهدة هذه الاعتداءات مدة طويلة ، فإذا فقد الأمل التجأ إلى الجنود ، ولاحظ دزرائيل في لهجة السخرية : « إنى لأذكر أنى سمعت أحد وزراء جلاتها يقول في السنه الماضيه كل شخص يستطيع أن يحكم إرلنده بالجنود والمدافع — نعم كل شخص في الواقع حتى السيد المحترم » .

وفي السياسة الخارجيه قبل جلادستون مبدأ التحكيم في جميع المسائل المرتبطة بانجلترا ، لكن يظهر أن التحكيم كان دائماً في غير صالحها ، وقد طعنت الكرامة الوطنية ، وفي أحد المسارح مُثِّلَ جلادستون وهو يستقبل رسل سفارة من الصين يطلبون إليه اسكوتلنده ، وفكر رئيس الوزارة ووجد ثلاث إجابات ممكنة ، التنازل في الحال عن اسكوتلنده ، أو الانتظار قليلاً ثم الانتهاء بالتنازل ، أو تعيين محكمين ، ووجد الجمهور أن الصورة صحيحة ، وكانت الملكة مع الجمهور فهي لم تألف جلادستون وتخيفها الأشجار الضخمة التي تتساقط في كل مكان ، وهي محبة للغابات وعقلها البسيط والمباشر لا يفهم طرق هذا العقل المعقد ، وهي تعود إلى تلاوة مشروعات القوانين بلا جدوى ، وإذا أرسل معها مذكرات تفسيرية وجدت التفسير أكثر غموضاً من المشروع ، فبعد مستر دزرائيل المرن الذي يقول : « يجب قبل كل شيء أن تحقق رغبات صاحبة الجلالة » لم تستطع احتمال ذلك الأسكوتلندى الجاف الذي يرفض في احترام لا حد له كل ما تطلب ، وهي تتمسك بفكرة ما لانجلترا من مكانة ، وتعتقد أنه قضى عليها ، وهي ملكة بروتستانتية ، وقد قضى جلادستون على البروتستانت الارلنديين ، وهي تحترم الدستور احتراماً كبيراً فلا تعترض أصوات البرلمان ، لكنها صارت تتمنى من أعماق قلبها سقوط الوزارة .

منذ سنة ١٨٧٣ ، صار من المستطاع التنبؤ بأن هذا الحادث ليس بعيداً

فقد جاءت جميع الانتخابات الفرعية ملائمة للمحافظين ، وأعدّ دزرائيلي الحملة الانتخابية في دقة ، ورشح في كل دائرة أحد المحافظين قبل ابتداء الحملة بزمان طويل وأنشئ في هوايتهول مكتب مركزي للمحافظين ، فيه مدير دائم وأركان حرب يقيدون أسماء المرشحين في الدوائر والدائرة التي يجب الترشيح فيها ، وأقام في كل مدينة جمعية من المحافظين تمثل فيها جميع طبقات الهيئة الاجتماعية وتسمى بنوع خاص إلى أن تنال تأييد العمال ، وسهر دزرائيلي نفسه على هذا العمل في كل مكان لكنه كان يدعو أنصاره إلى الصبر ، فهو لا يريد أن يتولى السلطة قبل أن يؤدي نشاط جلادستون إلى فشل جديد ، فقد علمته التجارب سرعة سقوط الوزارة التي لا تستند إلى أغلبية قوية ، على أن جميع العلام دلت على الانهيار ، وفي خطبة ألقاها في مانشستر وصف اللحظات الأخيرة للوزارة وهي في النزاع : « إن هذا النشاط غير العادي بعد أن بلغ نهايته انتهى بالتمود ، فالبعض يجدون ملجأ في الحزن وزعيمهم البارز يتراوح بين التهديد والتنهيد ، أما أنا الذي أجلس أمام مقعدهم فإن الوزراء يذكرونني بأحد المناظر فيما تحت سطح البحر التي تقابلها أحياناً في شواطئ أمريكا الجنوبية ، فإنك تتأمل صفّاً من البراكين الساكنة ولا تجد لها واحداً يتردد على هذه الفوهات الممتعة ، لكن المركز ما زال خطراً والأرض تنزل قليلاً ، ومن وقت إلى آخر تسمع الزئير المظلم للبحر » .

بين الجادات

كان الشتاء الذي تبع وفاة ماري آن مفعماً بالحزن الخفيف بالرغم من النجاح السياسي المستمر ، ليس ذلك فقط لأن ديزي فقد فيها المخلوق الذي يحبه أكثر من أي إنسان في العالم ، بل كان معدة كبيرة لا تجد ما يملؤها من العطف ، وكان أبو الهول قد كشف عن سره لماري آن ، وهذا السر هو التهيّب ، تولد هذا الإحساس في الطفولة من الاضطهادات المدرسية ، وغذى (تحت قناع الجراءة الظاهرة) بعداوة نظرائه ، ثم هدأ في السن الناضجة بصداقات لا مثيل لها ، ثم عولج أخيراً بالوصول إلى السلطة ، لكن هذه الصفة كوّنت من أخلاقه وتغلّبت على كل عناصره وقد منعت بصفة خاصة من أن يجد سروراً حقيقياً في عشرة الرجال فهو في حاجة لأن يكون رئيسهم حتى يشعر أنه مسالوهم ، وكان كل انجليزى غيره يلجأ في الوحدة لحياة النوادي ، لكنه يكره هذه الحياة ، وقد قال : « إن في الحياة أشياء كثيرة مخيفة والعشاء مع الرجال هو أسوأ الجميع » .

كتب لماري آن من زمن بعيد « إني في حاجة لأن تكون حياتي حياً دائماً » ، وقد تضاعفت أرقام عمره ، لكن الحاجة ظلت قائمة فهو يكتب الآن . « إني في حاجة إما إلى الوحدة التامة وإما إلى العطف التام » ، وهذا مطلب الرجل الجريح .

ظل عدة أشهر لا يزور إلا عدداً قليلاً من الأصدقاء ذوي الصلة الوثيقة به ، ويمضي جميع العطلات البرلمانية في هوجندن حيث يرتب أوراق زوجته فتتبادر إلى عينه الدموع تأثراً إذا ما رأى احتفاظها بأصغر ورقة خط عليها ثلاث كلمات وهو شاعر بوحدته حتى إن الرسالة التي يجد فيها شيئاً من العطف تظهر له كأنها شراع السفينة لدى رجل تحطمت سفينته وقذفت به الأمواج إلى جزيرة مهجورة ،

ماتت هذه المراسلات النسائية وماتت معها بهجة وجمال الآلاف من الحوادث الصغيرة التي تتوقف على وجود الشريك ، وهي وحدها تجعل مغامرة الحياة الطويلة محتملة . وفي الربيع كان في زيارة فأدت به الصدف إلى مقابلة صديقتين من صديقات شبابه ، هما لادى شستر فيلد ، ولادى برادفورد ، كانت آن كونتة شستر فيلد في السبعين من عمرها ، وسليما كونتة برادفورد في الخامسة والخمسين والاثنتان جدتان ، ذكرهما دزرائيلي بطفولتهما على مقربة منه في الطفولة (إذ كانتا تقطنان على مقربة من برادفورد) ، وتلك الحفلة الراقصة التكرية العظيمة التي ارتدت فيها لادى شستر فيلد زى سلطانة ، ولبست أختها الجميلة مسز أنسون زى جارية يونانية محلولة الشعر ، ولادى لندندري زى كيلوبترة وهي مججلة باليواقيت ، ماتت مسز أنسون ، وماتت فاني لندندري ، لكن لادى شستر فيلد ولادى برادفورد احتفظتا بالكثير من ميزات جمالهما ، كانت هذه المقابلة محبة لديهم وتواعدوا على الكتابة وأن يتزاورا ، وما جاء الصيف حتى دعى دزرائيلي لتمضية بضعة أيام عند إحدى الأختين ثم عند الأخرى وتلاه الشتاء وهو لا يعيش إلا « للذة معاشرة هذين الشخصين اللذين أحبهما أكثر من أى شىء في العالم » .

كانت كل منهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كبيراً فلادى شستر فيلد أكبر سناً وأكثر جداً وعطفاً ، ولادى برادفورد أكثر ميلاً للتصابي ، وقد قرأت لادى شستر فيلد جميع روايات دزرائيلي ، لكن لادى برادفورد ابتدأتها وهي تتشاءب وتخلط بين أشخاص الرواية ، ولادى شستر فيلد مترنة دائماً فهي خير صديقة في حين أن لادى برادفورد أكثر تقلباً ولا يعتمد عليها كثيراً لكن التعلق بها أكبر . كتب دزرائيلي للأختين في لهجة الحب الوثيق ، وكانت لادى شستر فيلد وهي أرملة وفي السبعين تقرأ رسائله في ابتسام ، أما لادى برادفورد ولها زوج من أحسن الأزواج وبنات في سن الزواج فانها احتجت وهددت مرات عديدة ألا تستمر في المراسلة إذا ظلت اللهجة في مثل هذه الحماسة الكبيرة ، ولم يكن دزرائيلي من الذين يحتملون فراق الذين يحبونهم

ولولبضعة أيام ، فاقترح على لادى شستر فيلد أن يتزوجها لكي يستوثق من العشرة الدائمة للأختين ، فرفضت أولاً لأنها وجدت أن الزواج في سنّها مضحك بعض الشيء ، ثم لأن دزرائيلي يحب أختها بنوع خاص وصارت موضع سرهما .

وجد زعيم المعارضة في كل يوم وقتاً لتحرير رسائل قصيرة للواحدة والأخرى من الأختين الثمّنتين لديه . « إن أسحر النساء لم تكن أبداً ألدّ منها بعد ظهر هذا اليوم ، وقد وددت لو أستطيع أن أجلس هناك إلى الأبد أراقب حركاتها التي لم تكن إلا الظرف نفسه ، وأصغى إلى تلك الكلمات الخلابّة لكن للأسف كان يمر بخاطري من وقت إلى آخر فكرة فظيعة — إن هذه الزيارة هي زيارة وداع ... فهل ساعات الفراق لا تنقضي أبداً ؟ ... إني واثق من أن أكبر التعاسة أن يكون للمرء قلب لا يرغب في الكهولة » .

الرجل كهل قوى السلطان مثقل بالواجبات ومسئول عن حياة إمبراطورية كبيرة ، لكنه يشعر بأنه لا يختلف عما كان في شبابه ، وربما كان العجوز أمعن في الخيال ، فكثيراً ما انتصر الطموح في الشباب على الحب ؛ « لقد عشت حتى أرى أن للحب بعد غروب زمنه غناه وجماله ، وربما كان لدى الكهول تهافت أكبر على السعادة » . اندهش لاكتشافه أنه لا يزال يرغب في رؤية امرأة ، وأنه يجد لذة في النظر إلى امرأة في حياتها ، وإنه يشعر في الوقت ذاته بجمال الأيام التي يمضيها بالقرب منها ، والعدد الصغير من الأيام التي لا تزال باقية له ، فلم يكن يسمح بالافتراق عن صديقه ؛ « إن رؤيتك أو على الأقل سماع أخبارك في كل يوم أمر ضروري جداً لوجودي ، فإن لرؤيتك في المجتمعات لذة خاصة ، ولكنها تختلف عن لذة رؤيتك على انفراد ، واللذتان ساحرتان كضوء القمر وسطوع الشمس » ، كان يود لو يزورها في كل يوم ، لكن لادى برادفورد لديها آلاف المشاغل وترتب زيارته في تعقل ، « ثلاث مرات في الأسبوع هذا قليل جداً » . ودعى الوزير إلى حفلة راقصة تنكرية ، وأراد العجوز أن يذهب وهو في ثياب « روميو » ، ولما طلب من سليلنا أن تختار له علامة لتعرفه بها نصحته في لهجة

جافة بالألا يذهب ، فاستاء قليلا وشكا إلى لادى شسترفيلد صديقه العزيزة ، وعلمتا أنه تعيس فوصلته رسالة أكثر رقة ، « رفعها إلى شفتيه » ، وهكذا كان يلعب « السست » العجوز « بسليمين » الرقيقة الناضجة .

لكنه لم ينس ماري آن ، وظلت رسائله طول حياته حتى رسائل حبه محاطة بالسواد وفي ذلك رمز حقيقي . وفي ذات يوم بعد ذلك الزمن وصلت إلى لادى برادفورد بطريق المصادفة رسالة على ورق أبيض ، وكتبت إليه تعرب عن ارتياحها ، فكتب : « تقولين إنك ارتحت لرؤية الورق الأبيض في اليوم الآخر ومن الغريب أني كنت أفكر في الماضي أن الملكة بالاستمرار على حدادها تنزل لعاطفة مريضة . لكني الآن أشعر مثلها وسأستمر على الغالب مثلها » .

انتهى من تنظيم الأوراق في هوجندن ، ووجد فيها ذكريات لا حصر لها تدل على ذلك الحب الدقيق ، فقد ظلت ماري آن في كل خمسة عشر يوماً مدة ثلاثين سنة تقص شعر زوجها ، وفي كل مرة تجمع الشعر في ربطة صغيرة مختومة ووجد منها المئات ، واكتشف كذلك الآلاف من الرسائل : جميع رسائل بلوار ورسائل الفرد دورسيه ورسائل جورج سميث المسكين ، والرسالة الأخيرة للادى بلسنجتون ؛ كم من الأشباح تنتظره الآن !

أخيراً أجرى جلدستون الانتخابات وتغيرت عاطفة الجمهور حتى صار دزرائيلي يأمل في تغيير الأصوات وربما في الحصول على أغلبية للمحافظين ، وصار في أثناء الانتخابات يكتب كل يوم رسائل إلى لادى برادفورد ، وبعد وقت قصير أمكنه أن يعلن أن حزبه ربح عشرة مقاعد ، ثم عشرين ، ثم أربعين ، ثم هزم جلدستون نهائياً ، فقد حصل المحافظون على أغلبية خمسين صوتاً على جميع الأحزاب مجتمعة ، وأكثر من مائة صوت على الأحرار وحدهم ، وثبت أخيراً أن الرأي العام قد يصير مؤيداً للمحافظين كما نادى بذلك دزرائيلي ، ونسى جميع المتذمرين القدماء من الحزب عدم ثقتهم بالماضية ، وامتلأ نادى كارلتون بجمهور

متأثر ينادى بالزعيم كما ينبح كلاب الصيد حول الصياد في اليوم التالي لصيده .
قرر جلادستون الاستقالة قبل أن ينتظر اجتماع البرلمان ، وأعلن أنه سوف
لا يبقى زعيماً للحزب ، وأراد أن يكون نائباً بسيطاً ، وألا يحضر الجلسات
بانتظام ، وقد بلغ الخامسة والستين من عمره ، وهو سن ختم فيه كبار سياسة
ذلك العصر حياتهم السياسية من وقت بعيد ، وكان يأمل بنوع خاص أن يعنى
بالمسائل الدينية ويستعد للموت ، وأعرب للملكة عن قراره ووافقته جلالاتها في
حماسة فيها شيء من عدم اللياقة ، ودعت مستر دزرائيلي ، وكان من أوائل ما اهتم
به الوزير الجديد أن يحصل على مركز هام لتعزيزه سلطته في بلاط الملكة .

في عودة البرلمان ألقى دزرائيلي بضع كلمات تدل على العطف نحو جلادستون
واعترف هذا بأن هذا المسلك كريم ، وأن الرجل يعرف كيف يكسب كما يعرف
كيف يخسر ، ومع ذلك في كل مرة يفكر جلادستون فيه ، كان يشعر بروح
الاستياء ويطغى على نفسه « غضب أخيل الذي لا يهدأ » .

الزعيم

صار المحافظون من تلك اللحظة يدعون دزرائيلي بالزعيم ، وفي هذه الكلمة دليل على تغيير كبير ، فالغامر النابغ الذي احتمله البعض ونازع في سلطته البعض الآخر ودعوه جميعاً « ديزى » فى تبسط يدل أحياناً على الحب وأحياناً على الاحتقار ، قد صار موضع احترام الجميع ، وساعدت السن على ذلك ، فإذا كانت الكهولة فى كل بلد فضيلة رجل السياسة ، فإن ذلك ينطبق على انجلترا أكثر من غيرها ، فليس من شعب مثل الانجليز يشعر بما يسبغه مرور الزمن على الأشياء من جمال ، وهو يحب رجال السياسة الذين خبرهم ، وصقلهم النضال كما يصقل الجلد القديم والخشب القديم ، لم يفهم المحافظون دائماً سياسة زعيمهم ، لكنه قادهم إلى أغرب انتصار أحرزه الحزب ، فتعاوذه إذن فعالة وإن لم تكن مفهومة .

عرفه جميع رجال الحزب فيما عدا بعض الكهول رئيساً لهم دائماً وهو إلى جانب اللورد دربى ثم وحده ، ولا يزال كثيرون منهم يقرون اسمه بفكرة غير واضحة عن السر الشرقى ، لكن ذلك لم يعد يخيفهم ، فكما أن الباب من الصناعة العربية يأتى به أحد كهول المستعمرين إلى وطنه حجراً فخجراً ، ويعيد بناءه فى بستان من الحشيش المعتنى به وتغطيه الأشجار والورود المتسلقة فيكتسب تدريجياً رقة انجليزية ، ويختلط برفق مع ما يحوطه من خضرة متناسبة ، كذلك دزرائيلي العجوز وهو محمل بالفضائل وبالنزوات الطيبة والعوائد البريطانية ، قد صار زينة طبيعية فى البرلمان وفى المجتمعات ، وإذا كان أحياناً أحد المارة الناقدين يتبين من تحت الأغصان المظلمة انحناء مدهشاً فى قوس الباب أو الخطوط العجيبة فى النقش

العربي ، فليس من شأن عدم التناسب البسيط إلا أن يضيف إلى جمال هذا الأثر النبيل لوناً لا يكاد يرى من الشعر والقوة .

من ذلك الوقت اختلطت باحترام الحزب له محبة ظاهرة ، وصار من النادر أن تجد من يعلن عداؤه ، ويعترف للجميع تقريباً بإخلاص الزعيم وحسن إرادته . وعرف خصومه أنفسهم أنه إذا كان ينزل الضربات القوية بالخصم اللائق به فإنه يُبقى دائماً على الخطيب الضعيف ، وإن مثل پيل ومثل جلادستون يدلان على أنه لا يهاجم أبداً رجلاً وهو أعزل . في أثناء المدة القصيرة التي تولى فيها السلطة سنة ١٨٦٨ منح مرتباً لأطفال ليتش مصور مجلة بنش الذي ظل يحاربه بلاشفقة مدة ثلاثين سنة ، والآن في سنة ١٨٧٠ كان أول عمل له أن عرض أكبر وسام يستطيع منحه على كارليل وهو الرجل الذي تساءل فيما مضى : « إلى متى يحتمل جون بول أن يرقص هذا القرد السخيف على بطنه » . ولما اندهش أحد الأنصار المحبين للانتقام من تساهله قال له : « إني لا أفكر أبداً في الانتقام ، لكن عند ما يؤلنى شخص أكتب اسمه على رقعة من الورق ثم أحتجزها في درج من أدراج مكنتي ، وإنه لعجيب أن أرى بأية سرعة تسقط هذه الأسماء التي أقيدها هكذا في زوايا النسيان » .

كان وهو يعتمد على أغلبية قوية وهو مؤيد من الملكة التي قابلت عودته بفرح ظاهر ، قد بلغ أخيراً كل ما رغب فيه أثناء حياته وهو السلطة وانمحت ذكرى جروح الشباب ، وقال للادى دوروثى نفيل التي أسرَّ إليها بآلامه فيما مضى : « كل شيء حسن الآن وأصبح مركزى ثابتاً » ، أوجد الوثوق بالانتصار نوعاً من التريث ، فلم يكن الرجل في حياته قط طبيعياً مثله في ذلك الوقت ، وعرف أخيراً أنه الآن يقبل على علاقته فأطلق طبيعته على سجيته ، وصار أقل خشونة ، وأقل ميلاً للسخرية ، لا يتحفظ كثيراً في الكلام عن أحزانه في صباه ، ويذكر ماضياً قد عوّض عنه . فذات مرة وهو يتنزه مع لادى دربي بين أشجاره ، ويرىها برادنهايم قال لها فجأة : « في هذا المكان أمضيت شبابي التعس » ، فسألته :

« كيف ؟ تعس ! لقد كنت بلا شك سعيداً هنا » فقال : « لم أكن سعيداً في ذلك الوقت ، إذ كنت فريسة لطمع لا يقاوم ، وليس لدى أية فرصة لإرضاء هذا الطمع » .

لم تعد المراكز تهتمه الآن ، فعندما حاول أحد الدوقات أن يخيفه قال : « الدوقات ! إنني لا أهتم لهم » وهذا حقيقي ، لقد بعد الزمن الذي قال فيه إسحق دزرائيلي : « وماذا يعرف عن الدوقات ؟ » ، ولم تكن إحدى الأميرات من العائلة المالكة لديه إلا فتاة صغيرة يرفض أن يقلق نفسه في الصباح من أجلها ، وكانت الملكة شخصية عادية وصديقة قديمة عنيدة بعض الشيء لكنه يحبها ، فهو في هذه المرة قد بلغ حقيقة القمة ، فلا يشعر في نفسه بتلك الحاجة الملحة إلى الارتفاع أعلى من ذلك وإلى التغلب ، ويجب أخيراً أن يكون سعيداً .

لكنه قال لصديق هناء : « إن ذلك الأمر جاءني متأخراً عشرين سنة ، فأعطني عمرك وصحتك » ؛ وسمع وهو يتمتم : « السلطة ! إنها جاءت متأخرة ! كان زمن إذا ما استيقظت فيه أشعر أنني قادر على قلب العروش والحكومات ، وقد انقضى هذا الزمن » . كان دائماً شديد الإعجاب بالشباب ، على أنه أضاع شبابه ، لأن النقطة التي ابتداء منها واطئة ، واحتاج الأمر إلى أربعين سنة كي يصل إلى المستوى الذي ابتداء منه بيل أو جلادستون أو مانرز ، وهذا سوء حظه في نشأته وهو أصعب أنواع سوء الحظ لأنه أبعدّها عن العدالة ؛ والآن قد جاء هذا الأمر متأخراً ، لم يكد يصل إلى الوزارة حتى أخذ جسده العتيق يتداعى من نواحي مختلفة ، فقد جاءه النقرس فهو يذهب إلى البرلمان في نعله المنزلي ، وحل به ضيق التنفس فهو لا يتكلم إلا بصعوبة ، ولم يبق حوله من يعنى به غير كورى مونتاجو الوفي ، وليس للمجد من قيمة إلا أن يقدمه قرباناً لمن يحبه ، فماذا يعمل به ، وهو في غير وقته ؛ « ربما كان الراجح أن أكون سعيداً ، لكنني لا أستطيع إلا أن أقول لك الحقيقة ... إنني متعب حتى أكاد أموت وإنني تعس حقاً ... ولا أعتقد أن هنالك مخلوقاً في العالم أكثر تعاسة مني ، إن الثروة والنجاح والمجد »

بل السلطة قد تزيد من السعادة لكنها لا تستطيع خلقها ، فالحب وحده هو الذى يخلق السعادة . وإني وحيد وليس لدى ما يؤازرنى إلا أحياناً القليل من العطف المسجل على الورق ، وذلك مع الشح ، فتلك حياة فظيعة تكاد لا تحتمل . فما هي اللذة الإيجابية التي قد تمنحها السلطة ؟ هنالك نوع واحد هو أن كثرة الأعمال تسمح بالنسيان ، لكن أية مضايقات أيضاً ! إذا سافر في السكة الحديدية وجد في كل محطة جمهوراً متحمساً يصيح : « هذا هو » ، والأطفال الصغار الذين يملكون خلفه ويقفون وأفواههم مفتوحة أمام المكان المخصص له ، والفتيات اللاتي تطلبن توقيعات ، وجمعيات الموسيقى على أبواب الفندق ... آه ! حقاً إن دزرائيلي لم يخلق لمثل هذه الشهرة الشعبية . ففي ذات يوم بينما هو ينتظر القطار في سويندون وهو يمشى جيئةً وذهاباً على الرصيف في ببطء تقدم إليه أحد المسافرين من رجال التجارة ، وفي لهجة الود قال له فجأة : « لقد ظلمت عشرين سنة أعطيك صوتي يا مستر دزرائيلي وأحب أن أصفحك يدك » ، فرفع دزرائيلي عينيه المتعبتين وهز رأسه قائلاً : « إني لا أعرفك » واستأنف المسير ، لو كان مستر جلاستون في مثل هذه المقابلة لضغط على يدي الرجل وقيد الحادث في مذكراته ، لكن في مستر جلاستون حماسة الخطاب القوي ، وهذا الكهل المريض متعب ، ولا يزال الناس يرددون عباراته ، لكن لهجتها تغيرت ، ولا تكاد تبين فيها رائحة التهميم ؛ وهو مغمور في بحر من الحزن ، فقد سئل ذات مرة : « هل أنت في صحة تامة يا مستر دزرائيلي » ، فأجاب : « لن تجد أحداً في صحة تامة ... » . وإذا سأله ربة بيت عما يجب أن تفعله للترفيه عنه أجاب : « دعيني أعيش » .

لم تبق في هذا الجسد الهزيم غير شهوة واحدة هي حبه لما هو ضرب من الخيال ، فعندما يكون وحيداً مرغماً بالآلامه على السكوت وعدم الحركة وغير قادر حتى على القراءة يفكر في لذة الفنان في مغامراته العجيبة ، فهل في قصص ألف ليلة وليلة ، وقصة الأسكافي الذي صار سلطاناً ما هو أغرب من حياته ؟

ألم يحقق حتى في التفاصيل أحلام ذلك الطفل الصغير الذي كان يتمدد تحت الأشجار في الحديقة الإيطالية ، وهو يصنى إلى جده يعزف على الماندولين : « لقد حققت حلمي أخيراً » ، وقد حافظ على ميله إلى قصص الفروسية وعوائدها ، كانت انجلترا الشباب لا تزال تحيا في هذا القلب العجوز . ففي وسط هذه الجذات ، كما قال سفير روسيا على سبيل السخرية كان يعتقد أنه في محكمة ملكة الجمال ، وقد ضم صاحباته في محفل ويمنح التي تنتخب فيه دبوساً في شكل نحلة . حقيقة إن هذا المحفل مؤلف أكثره من الجذات مثل لادى شسترفيلد ولادى برادفورد ، لكن انضمت إليه بعض الفتيات أمثال الأميرة بياترس بعد استئذان الملكة ، ولا شك أن الرئيسة العظمى لهذا المحفل هي الملكة ، ولم يكن يدعوها بلقب الملكة وإنما بلقب الملاك .

في أوزبورن نرى الظلال الخضراء تريح العيون بعد ضياء السفر ، فمن القصر يرى الخليج الأزرق تظهر فيه الشراع البيضاء ، لا يكاد يجد الزائر العجوز لحظة للجلوس في غرفته حتى تطلبه سيده المكان العظيمة فينزل إليها وتقبله في فرح كبير ، حتى ليخيل إليه لحظة أنها ستعانقه ، وقد افتر ثعراها بالابتسام حتى تظهر كأنها شابة يكاد يعود إليها الجمال وهي تتناغى وتتنقل في الغرفة كالصقور ، وهي سعيدة إذ عاد إليها وزيرها وهو الوحيد الذي يبعث الثقة في نفسها ، فقد عاشت الملكة حياة صعبة ، كانت مكروهة ، مكروهة جداً ، ورأت أهل لندن يديرون ظهورهم إلى عربتها في الشوارع ، وذلك أولاً بسبب لورد ملبورن ، ثم من بعد بسبب البرت المسكين الذي لم يغتفر له الشعب جنسيته الألمانية ، ثم صار الناس ينتقدونها لحدادها ، ولم يدافع عنها أحد من وزرائها ، فإن جميع هؤلاء الأحرار يغارون من العرش ، لكن مستر دزرائيلي يرى رأى الملكة في الملكية ، وهو بلا ريب لا يرغب في أن تعارض الملكة إرادة البرلمان ، لكنه يرى أن حكمة شاهد دائم غير متحيز وتجاربه ، توجد توازناً ثميناً في سفينة الإمبراطورية ، ويحسن مستر دزرائيلي الإعراب عن تلك الآراء التي تشعر بها الملكة دائماً ! « فكر

في أنك مصاب بالنقرس ، ولا بد أنك تتألم فلا يجب أن تظل واقفاً ، اجلس على كرسى .»

ظل مستر دزرائيلي مأخوذاً بهذا التعطف الذي لم يسبق له مثيل ، فلم يجلس أحد في حضرة الملكة من قبل ، وقد قص له لورد دربي فيما مضى كبرهان على شفقتها الكبيرة أن الملكة رآته ذات مرة في شدة المرض فقالت له : « إني آسفة حقاً بأن الرسوم لا تسمح لي بأن أطلب منك الجلوس » . تذكر مستر دزرائيلي هذه الأمور وتنهّد وتنهد الارتياح لكنه رفض ، فهو يستطيع أن يظل واقفاً وتزداد الملكة عطفاً ، فهي تفتح له قلبها في جميع الموضوعات ، وحيث إنها تعرف فيه الفضول فهي تطلعه على رسائلها السرية جداً . وتكلمت وتكلمت بلا توقف فهي تتكلم كما ترى آن وكما تستطيع النساء أن يتكلمن ، لكنها قد ارتفعت كثيراً في نظر دزرائيلي من الوجهة العقلية ، فهي حقاً عاقلة وتحكم حكماً صائباً على الأخلاق ، فهي مثلاً ترى جلادستون على حقيقته . وإنه لمن حسن حظ دزرائيلي أن يكون لانبجلترا ملكة لا ملك ، كان الحديث في العشاء لذيذاً وحيماً ، ولم يشعر دزرائيلي في حياته بأنه أقل خجلاً منه الآن وهو يقول ما يجب أن يقال في أحسن عبارة ، واعتقدت الملكة أنها لم تر مخلوقاً مسلياً مثله ، وقد سحرت بالبساطة الجريئة عندما سألتها وهي جالسة إلى المائدة : « أحقاً يا سيدتي أن لورد ملبورن كان يقول لك افعل هذا ولا تفعل ذاك ؟ » ، وأحياناً عندما يكونان على انفراد تصير مدائح الوزير منمقة وتكاد تكون مباشرة ، لكن الملكة تلتبس له العذر إذ تذكر فيه الدم الشرقي ، والملكة تحب الشرق وتسرى إذ ترى خلف مقعدها خادماً هندياً وعلى رأس أملاكها هذا الوزير الأعظم الذي الفؤاد الفياض العاطفة . صارت تدعوه في كل مكان ، وطلبت إليه أن يزورها في قصر بلمورال باسكوتلنده حيث المعيشة أكثر بساطة وأقرب إلى الطبيعة ، لكن للأسف كثيراً ما يكون الضيف مريضاً والرحلات الطويلة تتعبه ؛ فترسل الملكة طبيبها سير ويليم جنر إلى غرفة مستر دزرائيلي ، ويصر سير ويليم على أن يلازم الوزير

الفراش ، وتذهب الملكة في الصباح لتراه ، ويكتب للادى شستر فيلد : « ماذا ترين في وزير يقابل مليكتك في نعل منزلى وفي معطف البيت » ، وعندما تراه في هذا الضعف تأخذها عاطفة الأمومة ، وصارت العلاقات بينهما إنسانية ؛ فهي تتكلم عن ألبرت وهو يتكلم عن ماري آن ، فالوزير والمليكة وجدا فيما مضى سعادة في الزواج ، وهذه أربطة أخرى تربطهما ، فإذا ما عاد إلى لندن جاءه صندوق مملوء بالأزهار : « يقدم مستر دزرائيلي فروض التحية لجلالتك . لقد وصله أمس في هوايتهول صندوق ذو منظر رائع ، فلما فتحه ظن في مبدأ الأمر أن جلالتك أهديت إليه أوسمة ، وقد استولى عليه هذا الخيال حتى إنه كان مدعواً في المساء إلى حفلة يحمل فيها الناس الأوسمة والشرائط ؛ فلم يستطع أن يقاوم الإغراء بأن يضع بضعة من الزهور البيضاء على قلبه ليظهر أنه أيضاً قد زينت صدره ملكة كريمة .

« ثم في منتصف الليل تسلطت على عقله الفكرة بأن هذا سحر ، وأن تلك هبة من عالم آخر جاءت من ملك آخر ، وأن تيتانا ملكة الجن جمعت أزهاراً هي وأهل حاشيتها في جزيرة رائعة الحسن ، وأنها ترسل تلك الأزهار السحرية التي على ما يقال تسلب عقول أولئك الذين يتسلمونها . »

العمل

« إن التفكير سهل ، لكن العمل صعب ، والعمل وفقاً للتفكير هو أصعب الأمور في العالم » .

« جوته »

في البلاد القوية التنظيم ذات الثقافة القديمة السليمة لا يقبض الرجل على السلطة ، بل تقبض عليه السلطة ؛ فرجل مثل بونابارت وجد الميدان خالياً بعد الثورة يستطيع أن يفرض نوعاً من العتية على أمته مدة قرن كامل ، لكن رجلاً مثل دزرائيلي رئيس وزارة انجلترا لا يتحرك إلا في حدود ضيقة ، وتفرض الحوادث أعمالاً يومية ، وكثيراً ما تكون هذه الأعمال غير مرغوب فيها ، ثم تمر الأيام في إصلاح أخطاء أحد الأغبياء أو النضال مع صديق عنيد ، وليس ثمة فائدة من وضع مشروع واسع ، وقد عاش الرجل وقتاً كافياً لكي لا يتجاهل هذه الحقيقة .

فمنذ الأيام الأولى لوزارته اضطره الأساقفة والملكة إلى أن يدافع عن مشروع قانون للقضاء على « الريتواليزم » أي القضاء على اقتباس الطقوس الدينية لكنيسة روما في الكنيسة الانجليكانية ؛ فيحاكم رجال الدين إذا ألم بريق ثيابهم الدينية أو زينة مذابحهم أعين البروتستانت ، ويجزع دزرائيلي جزعاً شديداً من التشريعات الخاصة بالكنايس ، فهو كبير العلم بما تثيره من المنازعات القوية ؛ ففي دائرة هوجندن الدينية على صغرها حرب أهلية بين أولئك الذين هم أنصار جمع ما يجود به المصلون من النقود على صفحة غير مغطاة ، وأنصار جمعها في صندوق « فصديقي راعي الكنيسة يعمل ما أسميه أنا جمعاً للإحسانات وما يسميه هو قربانا ويضع ما يجمعه على ما يسميه مذبحاً وما يسميه المترددون على الكنيسة مأددة »

لكن الأساقفة يصرون وتتدخل الملكة ؛ « وإن رغبتها القوية هي أن يذهب مستر دزرائيلي إلى أبعد ما يستطيعه دون أن يضع حكومته في مصاعب . . . » فكان على رئيس الوزارة أن يعرض الأسابيع الأولى من حكمه في تعديل مشروع يراه غير مناسب ثم الدفاع عنه ، ومع ذلك كانت هذه الإجراءات التي لا يوافق عليها مما زاد في محبة الجمهور له ، حقا إن الحياة لجنون .

لكنه لم يكن يرغب في أن يقرن اسمه بإجراءات المنع ، بل هو يريد على العكس من ذلك أن يكون وصول حزب المحافظين إلى الحكم مقترنا بسياسة كريمة ، فالآن قد حان الوقت لنقل آراء كوننجسي وسيبيل إلى أعماله ، وتتابع القوانين : المساواة في الواجبات بين أصحاب العمل والعمال ، والتوسع في حقوق نقابات العمال ، وتخفيض ساعات العمل إلى ست وخمسين ساعة في الأسبوع ، والعطلة من ظهر يوم السبت ، ثم عدة من القوانين الصحية ، فكان يقول : « إن شعار الحزب يجب أن يكون سلامة الجسد ونفاذ البصيرة نحو الأشياء جميعها » . وكان خصومه يقولون : « تلك سياسة رجل المجارى » .

قامت لدى رئيس الوزارة منذ شبابه فكرة أخرى لازمتها حتى تولى الحكم هي فكرة الإمبراطورية ، أن إنجلترا لا يمكن اعتبارها بعيدة عن مستعمراتها ، وقد اقترح منذ عشرين سنة على دربي أن يوجد نوابا عن المستعمرات ، ويخلق البرلمان الإمبراطوري ، وتغنى في شعره منذ أربعين سنة بأن السلطة الاتحادية هي روح المستقبل ؛ ففي كل مرة يقول فيها أحد النفعيين^(١) : إن المستعمرات ولا سيما الهند هي حلي غالية الثمن للتاج ، وإنه من المأمول فيه التنازل عنها ، كان يقف ليذكره بأن إنجلترا ليست شيئا مذكورا إن لم تكن مركزا للإمبراطورية عظيمة استعمارية ، وأن المقاومين للاستعمار وهم لا ينظرون لغير النتائج المالية يهملون الاعتبار السياسية التي تجعل وحدها الأمم عظيمة . كان لديه برنامج لتنظيم هذه الإمبراطورية وهو الاستقلال الذاتي للمستعمرات مصحوبا بتوحيد الرسوم

(١) النفعيون أتباع بنتام .

الجمركية للإمبراطورية ، وهذه السياسة جديدة جداً ، وفيها جرأة كبيرة حتى إنه ليس من الممكن تنفيذها ، لكنه ينتمز فرصة ليشرح شعوره والأهمية التي يعلقها على الطرق الإمبراطورية .

في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ جاء صحفي اسمه فردريك جرينوود ليقابل لورد دربي^(١) في وزارة الخارجية ، وكان قد تعشى في اليوم السابق مع أحد رجال المال الذين يعرفون مصر جيداً ، وعلم أن الخديو يريد أن يرهن المائة والسبعة والسبعين سهماً التي يمتلكها من أسهم قناة السويس لاحتياجه إلى المال ، وأسهم قناة السويس جميعها تبلغ أربعمئة ألف أكثرها في أيدي رجال المال من الفرنسيين كان جرينوود يرى أنه من صالح إنجلترا أن تحصل على نصيب الخديو ، لأن القناة هي طريق الهند ، ولم يظهر دربي تحمساً كبيراً ؛ فهو يخشى المشروعات الكبيرة واشتعل الخيال في رأس دزرائيلي فأرسل برقية إلى الممثل الإنجليزي في مصر ، ومنه علم أن الخديو قد وعد بالبيع جماعة من الفرنسيين لقاء مبلغ اثنين وتسعين مليوناً من الفرنكات ، وحدد للصفقة يوم الثلاثاء التالي ، والخديو يرغب في أن تكون الصفقة لانجلترا ، لكنه في حاجة إلى المال في الحال . وكان البرلمان الإنجليزي في غير دور الانعقاد ، وليست أربعة ملايين من الجنيهات بالمبلغ الذي يمكن أخذه من الميزانية بدون موافقة ، وكتب دزرائيلي للملكة يقول : « ليس لدينا الوقت للتنفس ، لكن يجب القيام بهذا العمل » . لم تقم الحكومة الفرنسية عراقيل بل على العكس من ذلك كان الدوق ديكاز يأمل كثيراً في تأييد دزرائيلي لمقاومة بسمارك ، ولم يشجع المصارف الفرنسية فتنازلت عن حقها في الشراء ، لكن من الواجب تدبير الملايين الأربعة من الجنيهات ؛ ففي اليوم الذي تناقش فيه مجلس الوزراء كان مونتاجو كوري ينتظر في الغرفة الخارجية ، وأخرج الزعيم

(١) وهو بالطبع الخامس عشر من سلالة ، وكان تلميذاً وصديقاً لدزرائيلي تحت اسم ستانلي فقد مات أبوه من قبل .

رأسه بعد أن فتح الباب قليلا وقال كلمة : « نعم » ، وبعد عشر دقائق كان كورى لدى روتشيلد فوجده على مائدة الطعام ، فقال له : « إن دزرائيلي فى حاجة إلى أربعة ملايين فى اليوم التالى » . كان روتشيلد على وشك أن يأكل عنبا فالتقط واحدة وتفل القشرة ، وسأل : « ما ضمانتك ؟ » فقال : « الحكومة البريطانية » فقال روتشيلد : « ستكون لديك » .

« مستر دزرائيلي يقدم أكبر واجبات الخضوع لجلالتك . . . لقد تم هذا العمل ، وصارت لديك ياسيدتى أربعة ملايين من الجنيهات ! وفى الحال ! لم يكن هنالك إلا محل واحد يستطيع هذا العمل هو مصرف روتشيلد ، لقد سلكوا خير مسلك فقدموا المال بفائدة بسيطة جداً ، وصار نصيب الخديو فى يديك ياسيدتى » .

سرت الملكة سروراً عظيماً ، فلم يرها دزرائيلي فى حياته فرحة مثلها فى هذا اليوم ، واحتجزته للعشاء وأظهرت له الآلاف من علائم الرضا والرعاية ، ومما فرحت له بنوع خاص تفكيرها فى غضب بسمارك الذى أعلن قبل أيام فى محبرة أن إنجلترا لم تعد قوة سياسية .

فلامتناع إنجلترا فى عهد جلادستون وهزيمة فرنسا فى الحرب اعتاد المستشار الألمانى أن يمثل دور السيد فى أوروبا ، وعادت لإنجلترا من جديد مع دزرائيلي سياسة خارجية ورغبات يجب أن تحترم . وفى سنة ١٨٧٥ عند ما هدد بسمارك البلجيكي ثم حذر فرنسا كتب دزرائيلي إلى لادى شسترفيلد يقول : « إن بسمارك هو فى الحقيقة بونابرت عجوز آخر ، ويجب أن يلجم » ، وتسكلم عن ذلك مع الملكة التى وافقته وعرضت عليه أن تكتب لإمبراطور روسيا ، وعملت إنجلترا وروسيا فى برلين معاً ؛ وتراجع بسمارك ، وصادفت عودة إنجلترا للاهتمام بالشئون الأوروبية نجاحاً ، وسرت الملكة سروراً عظيماً ، فهى تشعر أنها قوية جداً إذا كان دزرائيلي على رأس الحكومة .

على حين فجأة طلبت الملكة لقب إمبراطورة الهند ، أثرت هذه المسألة من قبل سنة ١٨٥٨ عند ما ضمت الهند إلى التاج بعد تمرد الجنود الهندية ، وكان دزرائيلي من أنصار الفكرة من حيث المبدأ ، لكن سنة ١٨٧٥ لم يكن الوقت ملائماً ويعرف دزرائيلي أنه ستنسب هذه الفكرة البعيدة عن الآراء الانجليزية إلى ذوق رئيس الوزارة وميله إلى البريق الشرقي ، وقام بمحاولات عديدة كي تصبر الملكة بضع سنوات ، لكن عبثاً يحاول ، واضطر لتقديم مشروع قانون .

كانت ضجة الرأي العام كبيرة فالانجليز لا يحبون التغيير ، والملكة هي دائماً الملكة لديهم ؛ فلماذا لا تستمر كذلك ؟ قال المطهرون إن لقب الامبراطور يذكّرهم بصور الفتوحات والاضطهادات ، بل الفسق ، ووزعت نشرات منها واحدة بعنوان : « كيف أن « بن » صاحب الفندق استبدل اسم فندق الملكة بفندق الامبراطورة شركة محدودة ، وماذا كانت النتيجة ؟ » وأخرى بعنوان ديزي بن ديزي — أو يتيم بغداد . ووجدت السفارات هذه القصة مضحكة ، وكتب القائم بأعمال سفارة فرنسا : « إن هي إلا خيال الفنان ، ورغبة منشيء الملوك لدى ديزي ، ونزعة الدعي لدى الملكة ، فهي تعتقد أن مكانها تزيد ، وأن أطفالها يبلغون مركزاً أكبر باللقب الإمبراطوري ، لكن في رأي أن من الخطأ الكبير رفع الستار الذي يجب أن يظل مسدلاً على أصل نشأة التاج ، وهذه الأمور يجب أن تبقى بعيدة عن العبث ، فقد يولد الشخص إمبراطوراً وملكاً ، لكن من الخطر أن يصير كذلك » .

كان على دزرائيلي أن يبعث الثقة في نفوس جميع الناس ، ولاحظ فيما يتعلق بالكريات السيئة التي يوحىها لقب الإمبراطور أن العصر الذهبي للإنسانية كان عصر آل أنطونيوس ، وسيحتفظ بلقب الملكة في إنجلترا وفي جميع الوثائق التي تتعلق بأوروبا ، وفقط في الوثائق التي تتعلق بالهند وفي أوامر ترقية الضباط الذين قد يدعون إلى الخدمة في الهند . يضاف بعد « حامية العقيدة » لقب « إمبراطورة الهند » ؛ كانت الملكة متألمة جداً للمعارضة التي يلقيها قانونها ، وبخاصة للحملات

الشخصية على عزيزها مستر دزرائيلي بسبب رغباتها ، لكن ذلك لم يزلها إلا تعلقابه . ولما حصلت أخيراً على لقبها كتبت إليه رسالة شكر وقعها : « فيكتوريا الملكة والإمبراطورة » وهي فرحة كالأطفال ، ثم أقامت الإمبراطورة الجديدة حفلة عشاء ظهرت فيها على غير عادتها مزدانة بالخلي الشرقية التي أهداها إليها أمراء الهند ، وفي آخر العشاء خرق دزرائيلي حرمة التقاليد عمداً بأن وقف ليشرّب نخب إمبراطورة الهند في خطاب قصير منمق كقصيدة فارسية ، وبدلاً من أن تندهش الملكة أجابت بإحناء رأسها قليلاً مع الابتسام ، وكأنها تنحني له احتراماً .

هكذا سارت السفينة السياسية وهي تهتز على أمواج الأقدار والجو ، ورضاء مجلس النواب ، ونزعات الملكة ، وهي تقاوم البحر ، لكن ربان السفينة مريض جداً ، ساءت صحته حتى إنه أعرب للملكة عدة مرات عن أمله في ترك الحياة السياسية ، وذلك ما لا ترغب فيه بأى ثمن ، واقترحت عليه أنه من السهل أن ترفع رئيس الوزارة إلى مجلس اللوردات « حيث المجهود أقل ، ويستطيع أن يدبر كل شيء » ، وقبل في هذه المرة واتخذ الاسم الذي أعطاه من قبل لماري آن ، وهو اسم بكونسفيلد ، ولكنها كانت فيكونتة أما هو فصار فيكونت هو جندن دى هو جندن وأيرل بكونسفيلد ، وقال جلادستون في سخريّة عند ما سمع بتلك الطفرة لشیطان السوء : « لا أعفو عنه إذ لم يطلب لقب دوق » .

تجنب منظر وداع قد يكون مؤثراً ، لكنه بعيد عن حسن الذوق ، تكلم في مجلس النواب في الليلة السابقة لإعلان القرار ، وكتب السر جيداً ، ولم يفكر النواب بأنهم لن يسمعوأ زعيمهم بعد الآن ، وعند ما انتهت الجلسة قطع القاءة في تمهل وذهب إلى نهايتها نحو الحاجز ، وهناك استدار قليلاً وظل دقيقة يرقب المقاعد والشرفات والمكان الذي ألقى منه خطبته الأولى ، ومقعد الوزارة حيث كان يرى جسد پیل الضخم ووجهه الجميل ، ومقعد المعارضة الذي كثيراً

ما احتله هو نفسه طويلا ، ثم عاد وصر أمام مقعد رئيس المجلس ، ثم خرج وهو ملتحف معطفه الكبير الأبيض ، ومستند إلى ذراع سكرتيه ، وقد صر به شاب فرأى الدموع في عينيه دون أن يفهم السبب .

في اليوم التالي عند ما بلغ النواب الخبر لدى افتتاح الجلسة تألفت منهم جماعات صغيرة وهي متأثرة ، وكان الجالسون على المقاعد يتكلمون في صوت منخفض كأن في القاعة نعشاً ، وكتب إليه سير وليم هارت دايك يقول : « لا أستطيع أن أتصور إلى أي حد سيكون التغيير عظيماً فكأنه غادرتنا الفروسية وما في السياسة من لذة ، ولم يبق إلا العمل على وتيرة واحدة » ، وهذا شعور المجلس بأكمله فإن تلك اللذة التي يجدها هذا الكهل في لعبة الحياة تتصل بكل الذين من حوله ولا يعرف الإنسان معه ما يأتي به الغد ، لكنه يشق على الأقل بأنه لا يكون مملاً « فهو قد أصلح ما في الحياة السياسية من ملل عظيم » ، وأدى وجود هذا الفنان الكبير في الحياة إلى أن صارت المساجلات السياسية فناً ، « فهو لم يك وحده ذكياً بل يجعل الآخرين أذكىء » ، ومنذ تولى السلطة فرض الجمالة على الجميع واحترام الشكليات ، فكان إذا قاطعه أحد من أنصاره التفت نحوه ونظر إليه نظرة تدل على عدم ارتياحه ، ويرى في مناقشته المسائل المالية نوعاً من المباراة ويحمل الآخرين على أن يروا ذلك .

كتب إليه مانرز : « إن رحيلك هو عندي نهاية كل اهتمام شخصي بالحياة في مجلس النواب » .

وكتب سير وليم هاركورت : « بعد الآن سيصير اللعب كالشطرنج إذا ما فقد الوزير فهو نضال حقير بين الجنود » ، وقد تمثل بكلمة مترنيخ عند وفاة نابوليون في ختام رسالته : « ربما تظنون أنني سعيد لعلمي بموت أكبر خصم لسياستي ، إنني لأشعر بعكس ذلك فقد شعرت بالأسف ، إذ لن أتصل أبداً بهذا الذكاء العظيم » . وكتب آخر إليه : « واأسفاه ! . واأسفاه ! . لن نرى أبداً لك مثيلاً ، لقد انتهت أيام الجبارة » .

لما افتتحت الملكة دور الانعقاد البرلماني بعد ذلك بقليل رؤى إلى جانبها شخص غريب لا يتحرك ، وهو في ثياب قرمزية مجللة بفرو «الأرمين» ذلك هو اللورد بكونسفيلد الجديد ، وجاءت أجمل النبيلات لرؤيته وهو يتخذ مقعده ، كان دربي وبرادفورد هما اللذان توليا تقديمه ، وفي هدوء كامل انحنى وشبك يديه ورفع قبعته كما تقضى المراسيم بذلك ، وحيث إنه صار زعيما لمجلس اللوردات في اليوم ذاته الذي دخل فيه هذا المجلس فإنه اضطر للكلام في جلسته الأولى ، وكان قد كتب في سن الخامسة والعشرين في رواية الدوق الصغير يقول : « شيء واحد لا شك فيه ، هو أن هناك أسلوبيين مختلفين في مجلس النواب ومجلس اللوردات ، وإذا أتيح لي الوقت في حياتي سأعطي نموذجا من الأسلوبيين ، ففي المجلس الأدنى يجب أن أأخذ قصيدة دون جوان نموذجا ، وفي المجلس الأعلى أأخذ قصيدة الفردوس المفقود » أخطأ في التشبيهين ، وقد مر بعض الوقت في مجلس النواب قبل عدوله عن طريقة بيرون ، إلا أنه بعد خبرته لم يتبع أسلوب ملتون قط في مجلس اللوردات وهنالك فارق حقا ، لكنه دقيق لا يمكن التعبير عنه بسهولة كما ظن في شبابه ، على أنه عبر عن هذا الفارق بفن تام حين قال عند خروجه من أول جلسة : « لقد مت حقا لكنني لا أزال شبحاً في مرتع الأرواح » .

فضائع

« إنك تذكركني ببعض الانجليز كلما »
« تحررت أفكارهم كلما ازدادوا تمسكا »
« بقواعد الأخلاق » .
« جيد »

في يولييه سنة ١٨٧٥ ثار بعض الفلاحين في البوسنة والمهرسك على الأتراك الذين عاملوا رعاياهم من غير المؤمنين معاملة الكلاب ، كان الحادث فيما يظهر بسيطاً لكنه تضخم ، وعجب الناس لضعف الباب العالي ؛ وكأن جمع ألفين من الرجال وإرسالهم إلى البوسنة يحتاج إلى رجل حربي ذى مواهب وهو غير موجود بينهم ، ثم إن الأموال شحيحة ، وأمام سكون الأتراك نهض النشاط الروسى ، وتآلفت في جميع القرى البلقانية عصابات سرية لمقاومة الأتراك نظمتها الأخوة الروسية الأرثوذكسية لسيريل وميتود ، وتدفع الروس قوتان إحداها عاطفية ، فهم إخوان في الجنس ولحد كبير في الديانة للبغار والصرب والرومانيين ، والأخرى سياسية ، فهم فى حاجة إلى منفذ للبحر الأبيض ، ويأملون فى ذلك إما بالاستيلاء على القسطنطينية والمضايق ، وإما بتحرير البغار والصرب الذين يؤلفون عندئذ إمارات تحت حماية الروس .

لم يكن دزرائيلى يخشى شيئاً فى العالم خشيته من وصول الروس إلى البحر الأبيض ، فالقاعدة الأولى فى السياسة الانجليزية لديه هى المحافظة على حرية المواصلات مع الهند وأستراليا ، وهذه المواصلات لا تتحقق أرضاً إلا عن طريق تركيا الصديقة ، وفى البحر عن طريق قناة السويس ، وهى طريق من السهل مهاجمتها إذا صارت الولايات التركية فى آسيا فى يد دولة معادية ، ودور الروس فى هذه المسألة يبدو مربباً جداً ، وقد تكون لهم أغراض واسعة وخطرة ، فمن

الواجب السهر منذ البداية ، ويذكر دزرائيلي جيداً ابتداء حرب القرم ، وكيف أن رجلاً مسالماً هو اللورد ابردين انساق إلى الحرب بسبب خوفه من الحرب . فالطريقة الحقيقية لضمان السلم هي الدقة في تحديد خط لا يمكن التراجع بعده . فعند ما ثارت بلغاريا بعد البوسنة ، وعند ما طلبت روسيا وألمانيا والنمسا إلى انجلترا أن توقع معهن مذكرة شديدة اللهجة إلى تركيا ، رفض رئيس الوزراء هذا الطلب ، إذ كيف تساعد انجلترا في القضاء على دولة لانجلترا صالح في بقائها وتتعاون مع جورتشاكوف العدو السافر وبسمارك الصديق الذي لا يعتمد عليه ؟ إن الخطة الصريحة هي خير ما يتبع وكتب إلى لادي برادفورد : « مهما يكن الأمر فإننا لن نساق إلى الحرب في هذه المرة ، وإذا خضنا حرباً فذلك بإرادتنا وأن لنا غرضاً نرمي إليه ، لكنني أرجو أن تتذرع روسيا بالحكمة وهي العامل المحرك لهذا الحادث وأن يسود السلم » .

وجدت السياسة الحازمة التي اتبعتها الحكومة تأييداً من الرأي العام ، ولزمت المعارضة نفسها من الأحرار الصمت ، وإذا بجريدة « الديلي نيوز » وهي جريدة تتحرى الأخبار جيداً ، وهي مخلصه لجلاستون ، تنشر مقالا مليئاً كله بتفصيلات عن فظائع ارتكبتها الأتراك في بلغاريا : أطفال ذبحوا ، ونساء هتك عرضهن ، وفتيات بعن بيع الرقيق ، وعشرة آلاف مسيحي سجنوا ، هذا ماعمله أصدقاء رئيس الوزراء وحلفاؤه . قرأ دزرائيلي هذه القصة المؤلمة في سخرية وعدم ثقة بها ، ولم يكن قد تسلم أى تقرير من سفيره ، ورأى مصلحة جلاستون وأصدقائه في المبالغة في الوقائع ، وهو مبدئياً لا يصدق هذه الفظائع ، وحدث من قبل في أثناء ثورة الجنود الهندية أنه أظهر شجاعة كبيرة في وجه الرأي العام ، إذ ناشد الناس بأن ينقدوا الأخبار ، ورفض أن يغضب قبل التحقق ، وهو رجل لين ليست له شهوات قوية غير الطموح ، فهو لا يصدق بسهولة القسوة المتعمدة وشهوة ارتكاب الشرور . وفي أثناء سياحته في تركيا تعشى مع البشوات ودخن

معهم النرجيلة ، ولم يشاهد هؤلاء الرجال الوداعين يقتلون الأطفال ، ومن المحتمل أن ترتكب بعض العصابات غير النظامية فظائع ، لكن الثأرين أنفسهم ليسوا رفقاء جداً وهو شديد الكراهية « لحركات الرأى العام » ، فكان مجرد الكلام عن الشعوب المضطهدة يشعره بالراء ، ويرى نفسه هو مضطهداً .

عندما أثبتت هذه المسألة في مجلس النواب أجاب بأنه يرجو حفظاً لكرامة الطبيعة البشرية أن تأتية أنباء يستطاع الوثوق بها تدل على المبالغة في هذه الأخبار ؛ « إنى لا أشك في أن فظائع ارتكبت في بلغاريا ، لكنى أشك في أن الفتيات بيعت كالرقيق ، وأن أكثر من عشرة آلاف شخص ألقوا في السجون الواقع أنى لا أعتقد أنه يوجد أماكن في السجون التركية لمثل هذا العدد ، ولا أظن أن التعذيب استعمل استعمالاً كبيراً لدى شعب شرق يقضى على علاقته مع المذنبين دائماً بطريقة أسرع من ذلك » .

لكن تجارب ديزى كانت في هذه المرة للأسف خاطئة والقصة حقيقية ، واستيقظ السفير فجأة على الضجة التي قامت في إنجلترا فاستعلم عن الوقائع وأيدها وهاج الرأى العام ، فهل يقبل بأن يبعد رئيس الوزارة أشباح هذه الضحايا بعبارات الاستخفاف ؟ لعن دزرائيلى وزارة الخارجية التي أمدته بمعلومات خاطئة ، وأمل في أن تهدأ العاصفة ، فما يدعو للأسف الشديد أن تحرق القرى البلغارية وتنتهك حرمة الفتيات ، لكن هل هذا سبب للعدول عن سياسة قديمة وحكيمة ؟

كان جلادستون في ذلك الوقت في هاواردن ، وقد كتب من قبل إلى صديقه جرانفيل وهو في سن السبعين أنه بعد خمسين سنة قضاها في الخدمة العامة له الحق الآن في اعتزال الخدمة ، لكنه منذ ذلك الحين « كثيراً ما عاد من جزيرة إلبا » ويمجده دزرائيلى أمامه في كل طريق منتصباً كمارد يقذف النار من فيه ، ليس ذلك لأنه لم يكن مخلصاً في رغبته في الراحة ، لكن تولى الشرير السلطة

يدعوه إلى العودة بالرغم منه ، وحاول عبثاً أن يبعد أفكاره عن تلك الفضيحة التي لا تحملها دراساته الدينية والهو ميرية ، وكلما زاد تفكيراً كلما بداله أن شر مساوىء هذا الزمن هو فقد الشعور بالخطيئة ، فهو يقول في بطاء : « نعم . إن الشعور بالخطيئة هو ما ينقص الحياة الحديثة » ، وقد عاد لتلاوته مؤلفات بعض الكتاب عندئذ فلم يجد بينهم واحداً أعرب بقوة كافية عن كراهيته للرديلة ، فولتر سكوت مثلاً صديق لبيرون . وقد لاحظ زائر من الشبان في تردد أن الروائى بالمهنة يجب أن يفهم كل شىء ، وإذ ذكره بكلمة مدام دى ستيل « إن فهم كل شىء يؤدى إلى العفو عن كل شىء » هن جلا دستون رأسه وقال : « لا تضعف شعورك بالخطيئة » .

كان شعوره هو بها حاداً لم يثلّم ، فما وجد قصة الفظائع في بلغاريا بين يديه حتى شعر في سورة الغضب التي طغت عليه ضد الأتراك والانكشارية والورد بكونسفيلد الجديد أن ذلك من أصلح الموضوعات لا إبداء الاستياء الشديد القائم على الحق ، فأى موضوع أصلح من ذلك للإيحاء إليه ؟ شعوب في الأغلال ، ومساكين فريسة للكفار ، ومن وراء هذه الظلمات ذلك الكافر الكبير والممثل المحزن المضحك ، هذا الرجل الذى سمى الرأى العام ونشط من غير مبالاة الأناية الوطنية كي يرضى أناية نفسه ، كان البرلمان في عطلة وقد أصيب جلا دستون بعرق النساء فلزم الفراش وظلت فأسه بلا عمل ترتاح في ساحة البيت ، فأخذ يؤلف رسالة وكان عنفها في العبارة بارزاً : « تلك الوحشية والشيطنانية ... الأتراك نوع من أنواع البشرية عديم الإنسانية ... لا يستطيع مجرم من سجوننا أو أحد أكلة اللحوم الآدميين من بحار الجنوب أن يسمع هذه القصة بلا غضب ... العلاج هو إرغام الأتراك على أن يخلصونا من مساوئهم بالطريقة الوحيدة الممكنة ، وهى أن يخلصونا من أنفسهم ، وإنى لأرجو أن ضباطهم ومديرهم وبمباشياتهم ويوزباشياتهم والقائمين مقامهم وباشاواتهم كل هؤلاء وأحماهم يرحلون عن الولايات التي خربوها ودنسوها » .

نجحت هذه الرسالة نجاحاً عظيماً وبيع منها أربعون ألف نسخة في بضعة أيام وعقدت اجتماعات في جميع أنحاء إنجلترا طلب فيها طرد الأتراك وفتحت اكتتابات لمساعدة تلك الحملة الصليبية ، وفي ليفربول مثلت رواية عطيل فلما قيلت العبارة : « لقد غرق الأتراك » وقف الحضور وصفقوا طويلاً ، وعصف على إنجلترا إعصار من الفضيلة ، وجلادستون في كل مكان يخطب ويكتب ويتهم الحكومة بالرغبة في ضم مصر ويقول : « إن ديزي يؤيد تركيا الهرمة لأنه يظن أنها سوف تموت وأسطوله في خليج بشقه ، وأكاد أكون موقناً أنه على استعداد للاستيلاء على مصر في أول فرصة ، وقد نراه بعد ذلك دوقاً لمنفيس » ولم يعد جلادستون يفكر في غير البلغار ، وصار كثيرون من الزائرين المعادين للأتراك يحجون إلى هواردن فيجدونه خلع سترته ويقدمون له الهدايا التي أحضرها : عصا ريفية أو قبضة فأس منقوشة ويحادثهم جلادستون عن البلغار ، ويغادرونه متحمسين : لا إن إنجلترا لا تقا تل في صف المذنبين ! « فليداعب رئيس الوزارة قبضة سيفه ما شاء فان الأمة ساهرة على ألا يترك هذا السيف غمده » .

قرأ بكونسفيلد هذه الرسالة ، وكان رأيها فيها أنها شديدة فيها نزعة الانتقام وأسلوبها سيئ « وهذا طبيعي » ، وأنها شر من فظائع البلغار ، وكثيراً ما يسمى جلادستون في رسائله إلى لادى برادفورد باسم ترتوف ، « فهو الضحية المتطوعة لكل أ كذوبة قد توصله إلى الحكم » ، وكتب إلى اللورد دربي : « ستحكم الأجيال القادمة على هذا المعتقد الذي لا مبادئ له ، وهذا المزيج العجيب من الحسد والحقد والخديعة والتأثر بالأوهام ، وإنه ليميز بصفة ثابتة سواء أ كان رئيساً للوزراء أم زعيماً للمعارضة ، وسواء أ كان يعظ أم يصلي أم يخطب أم يكتب ، هي أنه بعيد عن التهذيب » .

كان اللورد بكونسفيلد مصرأ على أنه في كل الأحوال لن يسلم للرأى العام ، وسوف تمر الأزمة ويعود الناس إلى العقل ، ومع كل فإلى أين يريد أن يصل هذا المسالم المجاهد ، هل يريد إعلان الحرب على الأتراك ؟ أو الانتقام للفظائع البلغارية

بمذبحة عالمية ؟ إن كراهية الجريمة ليست وقفاً على حزب واحد ، وإن سماع
صيحات المستائنين لبيعث على الاعتقاد بأن لورد بكونسفيلد هو السلطان واللورد
دربي هو الوزير الأكبر ، والواقع أنه لم يشعر بأية مسئولية ، فهو يستفزع المذامح
ولا يؤيد الأتراك ، ويود أن يراهم جميعاً في أعماق البحر الأسود ، وكل ما كان
يرجوه هو أن يؤمن وحدة الإمبراطورية ومستقبل إنجلترا .

لم يظهر ديزي قط كراهيته للرياء كما فعل الآن ، فهو يعلم أن بضع عبارات
منه تدل على العطف على البلغار تخفف عبء واجبه كثيراً ، لكن على العكس
كتب إلى دربي : « إن ما أرغب في أن تفهمه جيداً ألا تعمل عملاً يفسر بأنك
تتأثر بضغط الرأي العام ، فقد تعمل ما يرغبونه لكنهم لا يحترمونك من أجل
ذلك » ، وفي يوم آخر : « لا بد من الثبات كل الثبات ، فإن ما تطلبه جميع
الاجتماعات العامة هو العبث لا السياسة وهوشىء غامض ونظري لا عملي ، وبالرغم
من أن إنجلترا ترمي في سياستها إلى السلم إلا أنها أكثر الأمم استعداداً للحرب
فإذا خاضت الحرب فلسبب عادل ، وإذا كان النضال من أجل حريتها واستقلالها
وامبراطوريتها فإني أشعر بأن مواردها لا تنفد ، فهي ليست بلاداً إذا خاضت
الحرب تتساءل هل تحمل غارة ثانية أو ثالثة ، فهي تبثدي نضالاً لا تنهيه قبل أن
يسود الحق » .

حرب ؟

رسمت مجلة بنش بريطانيا يقودها دليل ذو وجه كوجه دزرائيلي إلى حافة هاوية تقرأ في أعماقها كلمة الحرب ، ويقول الدليل : « خطوة صغيرة أخرى قريباً من الحافة » وتجب بريطانيا التي يظهر عليها الخوف وعدم الارتياح : « لن أتقدم خطوة أخرى فإني قريبة جداً » ، كانت بريطانيا حقاً شديدة الخوف من السقوط وكانت سياسة لورد بكونسفيلد هي أن يخيف روسيا بتهديدها بحرب لا يريدتها ، لكن قد نضع أنفسنا تحت رحمة حجر ينزلق ، بالتزهر كثيراً على حافة الهاوية .

هكذا رأى لورد دربي الشاب الذي كان يتولى وزارة الخارجية فهو يختلف كل الاختلاف عن أبيه ، وهو رجل خجول وعافل ، وجموده نافع في لحظة الخطر لكنه لم يخلق « لهذا النوع من الرقص السياسي » ، وهو يكره الخيال والمواقف المسرحية ، ولا يرى أى سبب لتهديد روسيا ، ليس ذلك لكرهته الأتراك بجلادستون فتلك قصة أخرى لا يحبها أيضاً ، لكنه لا يعترف بأن الامبراطورية البريطانية تصير في خطر إذا جلس الروس في القسطنطينية ، بل هو لا يعترف في أعماق نفسه بأن الامبراطورية البريطانية تتعرض لأى خطر قط ، ايقل الزعيم : « إن ذلك نقص في الخيال » ، ليكن مجرداً عن الخيال فهو لا يريد أن يكون الخيال من صفاته ، ولن يوافق على إطلاق شر قائم ومؤكد لتجنب شرمستقبل وغير مؤكد فكان يقابل جميع الإجراءات التي يقترحها بكونسفيلد بالعداء وعدم الارتياح ، ولما كان اسمه كبيراً وله شهرة حقيقية بأصالة الرأي فإنه ضم إليه في رأيه عدداً من زملائه .

بينما مجلس الوزراء يحاول إيقاف العجلة إذا بالملكة تدفعها إلى الأمام فهي

لا تحب روسيا قط ، وكان ألبرت يقول دائماً إن الخطر يأتي من تلك الناحية وهي تعتبر نفسها مسئولة عن أمن الامبراطورية وسلامة الطريق إلى الهند وتلقى اللوم على عاتق جلادستون ودربي ، ولا تفهم ضعف الكثيرين من الرجال بينما وهي امرأة على استعداد للزحف على العدو ، حاصرت رئيس وزرائها بالرسائل الحربية فمن الواجب معاقبة منظمى الاجتماعات المؤيدة للروس وماذا ينتظر لتسليح الأمة ؟ « إن الملكة قلقة جداً خشية أن هذا التمهّل يؤدي إلى تأخيرنا حتى نفقد مكانتنا إلى الأبد ، وهذه الفكرة تقلقها نهائياً وليلاً » — « الملكة تناشد تلك العاطفة الوطنية التي تعرف أنها تملأ صدر حكومتها ، وهي واثقة من أن كل عضو في الحكومة يشعر بالضرورة الملحة لإظهار جبهة متحدة قوية أمام العدو في داخل البلاد وخارجها ، ليس الغرض تأييد تركيا ، إنما المسألة تتعلق بتفوق الروس أو البريطانيين في العالم » .

وتدخلت الأميرات أنفسهن ، فقد حدث أن كان رئيس الوزارة جالساً إلى جانب الأميرة ماري أوف كامبردج ، فقالت له : « لا أستطيع أن أتصور ماذا تنتظر ؟ » فأجاب لورد بكونسفيلد : « ننتظر البطاطس في هذه اللحظة ياسيدي » . استطاع حتى تلك اللحظة أن يتحرك بلا حادث في المضيق الذي يفصل بين الملكة ولورد دربي ، وهل يستطيع ذلك دائماً ؟ هل يتجنب أيضاً العقبة الثالثة وهي الأحرار الذين يكرهون عبارة « مصالح إنجلترا » ويقولون : « هذه سياسة الأنانية » ، فيجيبهم ذلك العجوز المستهتر : « إن فيها من الأنانية ما في الشعور الوطني » ، ثم يقيس بنظره في هدوء كبير عمق الهاوية ، ويشعر في ارتياح بأن الدوار لم يأخذه .

أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأوفد القيصر الجنرال إيجناتيف في بعثة خاصة إلى إنجلترا كي يحاول الحصول على وعد بالتزام الحياد ، وكان أهل لندن جميعاً يدعون آل إيجناتيف للعشاء لديهم ، فزوجة الجنرال شقراء الشعر جميلة ،

وتشرب الخمر صرفاً ولاقت نجاحاً هائلاً ، وقد تبارت المركيزة لوندندري وزوجة الجنرال في الماس وغلبت الانجليزية ، وحذر لورد بكونسفيلد روسيا بأنه لا يلتزم الحياد إذا لم يحترم القيصر المسائل الثلاث الضرورية للحفاظ على الامبراطورية ، وهي قناة السويس والدردنيل والقسطنطينية ، ووعد جورتشاكوف بذلك فماذا يخسر ؟ لقد طمأنه مخبروه ، فالرأى العام بعيد عن الاتحاد في تأييد بكونسفيلد ، ورسمت بنش صورة « بنيامين المشاكس » وفيها الأسد البريطاني يقول لأبي الهول : إصغ إلىّ جيداً ، إنى لا أفهمك ، لكن يجب أن تفهمنى أنت ، فأنا لا أقاتل من أجل هؤلاء القوم . وشوفالوف السفير الماهر الذى عرف كيف يدعى باسم شو من ذوى المسكنة من لندن ، وفهم أنه يجد مفتاح العالم السياسى فى الهيئة الاجتماعية ، كان على علم بالأمور ، حتى إنه أرسل برقية إلى بطرسبرج بأسماء الوزراء الانجليز المعارضين لفكرة رئيس الوزارة ، أما جورتشاكوف ، وقد وصات إليه المعلومات الصحيحة ، فهو يقوم بدورين فيؤكّد الانجليز : « نحن نعترف بأن مسألة القسطنطينية لا يمكن أن تحل إلا باتفاق الدول العظمى » ، ويكتب إلى الدوق نقولاً رئيس الجيش أمراً : « ليكن غرضك القسطنطينية » ، فالنصر يسوى كل شيء وإذا ما احتلت الجيوش المدينة فمن يخرجهم منها ؟

دخل الفراندوق أرض بلغاريا ، وزاد قلق الملكة فقد تنبأ البرت دائماً بما يحدث الآن ، فهل تكون مثل كساندرا المسكينة العديمة الحول ترى خراب امبراطوريتها ؟ أخذت الملكة تكتب كل يوم وترسل البرقيات كل ساعة ، فهى لا تصدق الوعود الروسية وتطلب الحصول على ضمانات ، وأن يعمل شيء ما على كل حال ، « إن التقارير التى اطلعت عليها الملكة أمس تبعث على القلق الشديد ، ولا يمكن أن يتجاهل لورد دربي مثل هذه الأخطار ، ويصلنا الآن التحذير بعد التحذير ؛ وكأنه يسجل كل شيء دون أن يقول كلمة ، حقاً إن الملكة لم تر أبداً مثل هذا الوزير للأمور الخارجية ! » — « سيكون الروس أمام القسطنطينية بعد وقت قصير ، وحينئذ يكال اللوم للحكومة ، والملكة فى مركز مبهين حتى لتظن

أنها تتنازل عن العرش في الحال ، فلتكونوا شجعانا » — « إذا لم تنتهوا إلى العمل ستكون المعارضة أول من يتغلب عليكم ، فإن التأخير بضعة أسابيع أو بضعة أيام قد يكون خطيراً » — « إن الملكة حزينة إذ ترى عدم الإقدام على شيء ، فقد قال لها لورد بكونسفيلد يوم الثلاثاء إن خمسة آلاف من الرجال يمكن إرسالهم لزيادة الحاميات ، لكنها لا تسمع كلمة عن أية حركة للجنود ، وقد زاد قلقها » — « إن الملكة تشعر دائماً بالشجاعة كلما رأت لورد بكونسفيلد ، لكن لهذا السبب أو ذاك لا شيء يعمل » — « وتلك اللغة ، اللغة المهينة التي يوجهها لنا الروس فأين مشاعر أكثر رجال هذه البلاد ؟ » .

تهدد الملكة بلا انقطاع بأن تترك هذا التاج المصنوع من الأشواك ، ودربي من جهة أخرى يعرض الاستقالة في كل فرصة . أما الوزير الكهل فهو يشعر بضيق التنفس وآلام النقرس ، ويحزنه أيضاً أنه لم ير عزيزته لادى برادفورد وعينيها البرتقاليتين فيكتب إليها ، « إنني مريض حقاً ، ولو أن لدى من الشجاعة ما أقابل به المنظر الذي لا بد أن يحدث في المركز الرئيسي حين أقدم استقالتي لفعلت في الحال ، لكنني لا أحتمل المناظر قط » .

أحييت مقاومة الأتراك الآمال إلى حين ، وكان الجيش في حالة جيدة ، وخطب السلطان جنوده قائلاً : « إن سيف المؤمن يفتح له طريق الجنة » . وعلم أن الجيش الروسي أوقف أمام بلفنا وخسر خمسين ألف قتيل ، وثلاثين ألف جريح يموتون على الغالب لعدم العناية في المستشفيات المؤقتة . وفي شهر أغسطس تولد الاعتقاد بهزيمة الروس ، واعتقد المرشال دي مولتكه ذلك وانجلترا تحب الشعوب القوية ، واتجه الرأي العام إلى العطف على الأتراك ، وصار الناس يتغنون في الشوارع « لسنا نريد الحرب ولا نريد القتال . . . ولكن إذا خضناها . . الخ » وصار من عادة الناس أن يذهبوا في يوم الأحد ليصفروا استهزاءً أمام منزل جلادستون وirschقوا زجاج النوافذ بالأحجار ، ومن قبل فعل أجداد هؤلاء المتظاهرين مثل ذلك بنوافذ دوق ولنجتون .

حلت عطلة البرلمان وذهب بكونسفيلد للراحة في هوجندن وهو يتنفس في صعوبة ولا يستطيع المشي قط ، ولكي يذهب إلى الكنيسة يركب عربة ماري آن الصغيرة وتضايقه الطواويس حتى قال : « إنى لأكد أدفع إلى ارتكاب نوع من الفظائع وأذبح هذه الطواويس » ، وعند عودته إلى لندن رأى طبيباً امتدحه البعض لديه ، وهو الدكتور كيد من الذين يعتقدون بمداوة الأمراض بعقاقير تظهر علامات المرض ، وفحص الدكتور كيد هذا الجسد العتيق وقد عراه ، كما يفحص المجند ، فوجده مريضاً بضيق التنفس وبزلة شعبية وبمرض برايت — حقاً إنه جسد يصلح لسد الطريق دون الهند !!

إن الخداع في اللعب لا يحتاج لغير برودة في الدم لا تزعزع ، وهو الصفة البارزة في رئيس الوزراء ، لكن كيف يمكن الخداع وللاعب شريكاً أحدهما يعلن الخدعة في كل حركة والآخر يكره اللعب حتى إنه في كل خطوة يصير على إلقاء ورقه ؟ كانت الملكة بنوع خاص فطيرة ، فهي تحب وزيرها أكثر مما يجب ولا تعتمد إلا عليه ، وهو وحده مثلها ولولا أسباب مختلفة ، فيه تلك الوطنية الضيقة التي تقضى على كل عاطفة أخرى ، وهي تتمسك به وتود أن تغدق عليه علامات الشرف ، وعرضت أن تجعله من فرسان رتبة الساق ، لكنه رفض إذ وجد الوقت غير ملائم ، وذهبت لزيارته في داره بهوجندن ، وهو شرف لم تفعله لأحد غير لورد ملبورن ، وسمحت له إذا ما كاتبها بنبيذ التقاليد الرسمية ، وله أن يبتدىء الرسالة بقوله : « سيدتى ومليكتى المحبوبة » ، وهي نفسها تجيبه : « غريزى لورد بكونسفيلد » ، وتختتم رسالتها : « وثق أنى أكن لك أكبر الاعتبار والود — فيكتوريام ١٠٠١ » .

مع ذلك ضايقته حقاً بعنادها الشديد ، وبينهما فارق هو أن بكونسفيلد مصر على تجنب الحرب ويكاد يكون متأكداً من تجنبها ، في حين أن الملكة وهي أكثر تحمساً صارت تتمناها ، وعند ما استولى الروس أخيراً على بلفنا ووصلوا

إلى مرتفعات القسطنطينية ذكرته في بساطة بالوعود الماضية ؛ فهل لم يقل اللورد بكونسفيلد إنه في مثل هذه الحالة يعلن الحرب ؟ فماذا ينتظر ؟ إن الروس دون أن يستشيروا أوروبا يفاوضون الأتراك في عقد معاهدة سرية ، ولا تلبث أوروبا أن تصير أمام أمر واقع ، فلورد بكونسفيلد ليس خيراً من الآخرين ، وكل الرجال جنباء ، وهي وحدها المرأة المسكينة عليها أن تبعث الحياة في كل شيء ، وكان لورد بكونسفيلد يزيد انحناء أمامها ، ويحاول أن ينال العفو عن عدم طاعتها بأن يبالغ في عبارات إخلاصه : « إن لورد بكونسفيلد يذكر جلالته بوعدها ألا تكتب في المساء أو على الأقل لا تكتب كثيراً فهو لا يعيش إلا لها ولا يعمل إلا لها وبغيرها يخسر كل شيء ... » ومع ذلك كان يراقب اللعب .

كان هنالك لاعب آخر كبير اقتصر حتى تلك اللحظة على التفرج ، لكنه ينتظر الفرصة ليشارك ، هو الأمير فون بسمارك ، وجأ في ١٩ فبراير رمى ورقه في خطبة كبيرة « بالريشستاغ » وهي خطبة غامضة عن عمد ، لذلك كانت واضحة جداً ! فبسمارك الذي كان عليه أن يختار بين النمسا وروسيا وامتلاء صدره حقداً على جورتشاكوف منذ حوادث سنة ١٨٧٥ انضم إلى خصوم الروس ، وأعلن أن لا مصلحة له ، فالمسألة الشرقية لا تهمة كثيراً ، والقسطنطينية لا توازي عظام جندي من جنود بوميرانيا ، والذي تريده ألمانيا هو أن تتجنب النضال وسيكون دورها بين المصالح المتضاربة دور الوسيط الشريف ، فمن الطبيعي أن تعرض المعاهدة التي أخذ في عقدها الأتراك والروس لموافقة الدول الأوروبية الأخرى في مؤتمر أو مجلس يعقد — إذا أريد ذلك — في برلين ، وقيل كل ذلك في مجاملة كبيرة وترفع في التفكير ، لكن بسمارك هدم في ساعتين كل العمل الذي بناه جورتشاكوف في سنوات عديدة ، فلم تستطع روسيا وهي مهددة من انجلترا أن تتحدى ألمانيا فقبلت في الحال مبدأ المؤتمر ، لكنها قبلته في عبارة تدل على أنها تقصد منه إبلاغ المعاهدة للدول لا عرضها عليهم .

أخيراً نشرت هذه المعاهدة وقرأها الشعب الانجليزى فى دهشة عظيمة ، وقد احترم جورتشا كوف فى الظاهر الوعود التى قطعها ، فظلت القسطنطينية والسويس والدردنيل حرة ، لكن تغيرت أوضاعها جميعها ، فتركيا خسرت جميع ولاياتها الأوروبية ، وأنشأ الروس دولة بلغارية تكون تابعة لهم وتوجد لهم منفذاً إلى البحر الأبيض ، وفى أرمينيا يحتلون قارص وباطوم ، وبذلك يتقدمون نحو الهند ويحيطون بالأتراك من الخلف . وقد صارت انجلترا بأجمعها خلف رئيس الوزارة بحركة من تلك الحركات الجميلة فى رأى العام الذى يتحد وقت الخطر ، فهى لن تذهب إلى المؤتمر للمناقشة فى مثل هذه الوثيقة .

ظل لورد بكونسفيلد هادئاً جداً ، وكان فى رأيه أن المعاهدة لا يمكن قبولها وأخبر شوفالوف أنه لا يذهب إلى المؤتمر إلا بعد اتفاق مباشر بين روسيا وتركيا على المسائل الشديدة الخطر ، وهذه المسائل هى :

(١) ألا تنشأ دولة بلغارية كبيرة .

(ب) ألا تنشأ أرمينيا روسية . وقفز السفير : « إذن تريدون حرمان روسيا من جميع ثمار الحرب ... » . ربما . وعلى كل حال أفهمه رئيس الوزراء أن انجلترا تخرج روسيا من الأقاليم المتنازع بشأنها بالقوة إذا لم تجد ترضية ، وخرج شوفالوف قلقاً لكنه غير مصدق ، فلورد بكونسفيلد ليس انجلترا . وعقد مجلس الوزراء ورغب رئيس الوزارة فى الاستعداد للحرب وهو يقول : « إذا أصررنا على الثبات والعزيمة فإن ذلك يؤدى للسلم وعلى شروطنا على أوروبا » ، لكن يجب الاستعداد ، وهو يقترح دعوة الجنود الاحتياطيين والموافقة على اعتمادات وإرسال الأسطول إلى القسطنطينية ، وحيث إن المسألة تتعلق بالدفاع عن الهند فهو يأمل بنوع خاص أن تشترك الإمبراطورية نفسها فى الدفاع عن نفسها ، وأن ترسل جنوداً من جيش الهند لاحتلال المراكز التى تتسلط على المواصلات الروسية أى لاحتلال قبرص والاسكندرونة ، ووافق المجلس رئيسه فيما عدا لورد دربي الذى قدم استقالته وهو يعتقد أن هذه الإجراءات تؤدى إلى

الحرب ورفض مسئوليتها ، وشعر لورد بكونسفيلد بشيء من الأسف لفراق صديق قديم وأحد أفراد عائلة دربي لكنه قبل الاستقالة .

في هذه المرة استولى الخوف على شوفالوف ، فإن في استقالة دربي علامة ، ولم تكن روسيا تريد الحرب بأى ثمن مع إنجلترا ، فقد ضعفت بسبب حملاتها الحربية وليس لها أسطول ، وهى تفضل التفاهم مع بكونسفيلد على التفاهم مع بسمارك ، وعاد السفير متساهلاً فتنازل جورتشا كوف عن إنشاء بلغاريا عظمى وستصير نصف ما اقترح ومن غير منفذ إلى البحر ، لكنه محتفظ بأرمينيا الروسية . على أن بكونسفيلد لا يتزعزع ، إذن هى الحرب إن لم تعط لإنجلترا ضماناً في شرق البحر الأبيض ، مثل جبل طارق في غربه ، وفي هذه اللحظة يذيع الخبر بأن الجنود الذين أرسلوا سرّاً من الهند قد بدأوا ينزلون إلى البر ، وكانت هذه الضربة هى القاضية ، وقبلت روسيا كل شيء ، ووقع اتفاق سرى مع السلطان قبل فيه التنازل عن قبرص لإنجلترا أمام تعهد إنجلترا بالدفاع عنه في حالة تقدم الروس بعد قارص وباطوم ، ورضى جورتشا كوف بأن يذهب إلى برلين ليناقش المعاهدة بعد أن أبدلت على هذا الأساس ، وظلت تركيا دولة أوروبية وأوقف تقدم السلاف ، ورجح اللعب كله دون أن يخسر رجلاً واحداً ، ودون أن يطلق رصاصة ، وعاد الدليل بالسائحين إلى البر سالمين سعداء وإن كانوا متعبين شيئاً ما ، وقالت بريطانيا : « إنه لدليل حسن لكنه محب للمخاطر » .

أما بالنسبة لبكونسفيلد فإن أكبر ما سر به هو الحصول على قبرص ، فإنه أعلن عن ذلك قبل ثلاثين سنة في رواية تانكريد ، ويلد له أن ينقل رواياته وخيالاته هكذا إلى التاريخ ، ثم إن قبرص هى جزيرة فينوس ، وقد منحها ريتشارد قلب الأسد إلى لوزينيان ملك القدس فصار كونت بافوس ، والآن ضمت مدينة افروديت ومملكة الصليبيين الخالدة إلى جبل طارق ومالطة لتمت البحر الأبيض الإنجليزي . إنه ليوم عظيم حقاً لدى هذا الفنان العجوز الذى يجد لذة في هذه الألعاب الدنيوية .

مؤتمر برلين

المؤتمر الدولي هو أكبر سوق للزهو والخيلاء ، فهو أولاً يقضى في داخل كل بلد على الزهو القومي ؛ يعتقد كل رئيس وزارة أنه هو وحده القادر على تمثيل سياسة بلاده ، ويعتقد كل وزير خارجية أن الرئيس لا يعرف شيئاً عن السياسة ويظن كل سفير مثل ذلك في وزير الخارجية ، فإذا اجتمع المؤتمر وجلس العظماء وجهاً لوجه ، فهو جوقة موسيقية مؤلفة من العازفين الأوائل على الكمان !

كان البرنس بسمارك يأمل ألا يأتي كبار الممثلين ، وانتظر أن يأتي من روسيا شوفالوف الذي كان يحبه وقد نظم معه قسماً من البرنامج ، لكن جورتشاكوف رأى أنه لا يستطيع أن يضع ثقته في أحد ، وتمكن من إقناع امبراطوره ، وعزم بسمارك على أن يحمله على دفع الحساب الماضي قائلاً : « لن يتسلق مرة ثانية على أكتافى لكي يتخذ منها قاعدة لتمثاله » . ومن إنجلترا أيضاً ينتظر حضور رئيس وزارتها فمن غيره يفهم الشرق ؟ عين كل من لورد بكونسفيلد ولورد سالسبرى مندوبين ، وتحركت القطارات الخاصة ، وفكر بسمارك : « إن المؤتمر هو أنا » ، وشعر الكهلان الضعيفان المتمددان على مخدات عربة القطار ، وهى تتجه من بروكسل ومن بطرسبرج نحو برلين ، وهما بكونسفيلد وجورتشاكوف ، بمثل شعور بسمارك .

في هذا المؤتمر الذى أريد به مناقشة المعاهدة فى حرية وصلت جميع الدول وهى عاقدة اتفاقات سرية ، فقد عقدت إنجلترا مع روسيا اتفاق لندن ، ويعرف الأتراك أنهم تنازلوا عن قبرص لكنهم يجهلون الاتفاق الإنجليزى الروسى ، ووعدت النمسا من كل من إنجلترا وألمانيا بالبوسنة والهرسك ، وأعطيت إياها دون أن تضرب ضربة واحدة ، وضمن لفرنسا أن تبعد مسائل مصر وسوريا عن

المنافسة ، ولم يتصور الجمهور الإنجليزى وهو يتخيل فى خوف ممزوج بالإعجاب ،
مواجهة لورد بكونسفيلد للذئب الروسى ، إلى أى حد كان المنظر محضراً .

لما وصل لورد بكونسفيلد إلى فندق قيصر هوف الذى نزل فيه وجد المائدة
فى قاعة الاستقبال مغطاة بأكلها بسبت من الزهور ، وصندوق كبير من الشايك
اللذيذ ، وضعت حوله أزهار البرتقال والورود ، وهى هدية الترحيب من ولاية عهد
ألمانيا وهى ابنة الملكة فكتوريا .

كتب فى رسالة إلى الملكة : « إن الأمير والأميرة يغدقان على لورد
بكونسفيلد هداياهما ، وهى هدايا محبة تزداد قيمتها لديه ، إذ يشعر بأن الفضل
الأكبر فيها لشخص يدين له اللورد بكل شئ » ، وزاره سكرتير بسمارك وقال :
« إن المستشار يود أن يرى اللورد بكونسفيلد فى أقرب فرصة » .

تعارف الرجلان وعرف كل منهما قدر الآخر ، وقد تقابلا قبل ذاك بعشر
سنين فحذر كل منهما ما فى الآخر من ذكاء وإرادة ، ووجد بكونسفيلد أن
بسمارك تغير كثيراً ، فذلك العملاق الذى عرفه فى سنة ١٨٦٢ ممتنع اللون فى
نحافة الزنبور صار ضخماً ، وأرسل لحية بيضاء على وجه خشن ، لكنه وجد
فيه اللون الذى أحبه ، وهو البساطة مع شعوره بالحقائق ، وشئ من الخشونة
والصراحة الوحشية ، وهو يصرح بأشياء فظيعة فى صوت حلوى دهش لخروجه
من هذا الجسد الكبير ، وقد قال له بسمارك إنه ينوى أن يسير بالمؤتمر على قرع
الطبول ، لكنه يرى أن يخصص الأيام الأولى والعقول لا تزال يقظة للمسائل
الكبرى التى قد تتسبب عنها الحرب ، وعلى ذلك يجب الابتداء ببلغاريا .

فى اليوم التالى ، وفى الساعة الثانية ، اجتمع المؤتمر للمرة الأولى فى قاعة ذات
منظر فخيم يتفق مع الثياب الرسمية المزركشة بالذهب للسياسيين ووساماتهم
وأوشحتهم ، ومر كل منهم قبل الجلسة بمقصف ليشرّب كأساً من نبيذ بورتو
ويقضم قطعة من الفطير ، وطلب بكونسفيلد أن يتعرف إلى أعضاء المؤتمر الدولى ،

وكان العضو التركي كاراثيا دورى باشا ، وهو صغير السن ، أسود اللحية ، رقيق الحاشية ، وتعرف إلى جورتشا كوف العجوز المتهدم ، وإلى كورتى العضو الإيطالى ذى الوجه الذى يشبه وجه اليابانيين ، وإلى وادنجتون المندوب الفرنسى ، وهو نصف انجليزى بنشأته ، وإلى اندراسى النمساوى . . . نعم كل شئ يسير على أحسن وجه ، فليس من عماقة بين المندوبين غيره وبسمارك .

سار بسمارك بالمؤتمر فى دقة حربية ، وتم الاتفاق فى الحال وبلا مناقشة على تقسيم بلغاريا إلى قسمين يفصل بينهما خط البلقان ، وبعد ذلك سارت كل الأمور على غير ما يرام ، فقد منح الروس للأتراك حدود البلقان ، وأرادوا أن يحرموهم حق الدفاع عنها أو إبقاء جنود فى ذلك القسم من بلغاريا الذى ترك لهم ، ومعنى ذلك القضاء على جميع نتائج مؤتمر لندن بطريقة غير مباشرة ، فإن بلغاريا غير المحتملة تكون مرة أخرى تحت رحمة روسيا ، ويكون لروسيا منفذ إلى البحر الأبيض المتوسط .

أرعد بكونسفيلد ، إذ يجب على حكومة بطرسبرج أن تتنازل عن وهما بأنها تستطيع مجاوزة رغبات إنجلترا . وغضب جورتشا كوف وصار عنيدا ، وأعلن لورد بكونسفيلد صراحة أن النصوص الانجليزية تنطوى على إنذار ، وأرسل الروس فى دهشتهم رسولا خاصا إلى قيصر روسيا ، وكتب بكونسفيلد إلى الملكة : « إني لا أخشى النتيجة حيث أنى أخبرت ذوى الشأن بأنى أغادر المؤتمر إذا لم تتبع آراء إنجلترا » .

فى صباح اليوم الذى ينتهى فيه أجل الإنذار ، طلب بكونسفيلد من كورى وهو يتنزه على ذراعه فى شارع أوتتر در لندن ، أن يجهز قطارا خاصا لنقل الوفد البريطانى إلى كاليه ، وأبلغ كورى هذا الأمر إلى مصلحة السكك الحديدية الألمانية ، وكانت النتيجة سريعة ، فقد أتى الأمير بسمارك فى الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة إلى قيصرهوف وقال لكورى : « خذنى إلى لورد بكونسفيلد ونبهنى فى الساعة الثالثة وخمس وخمسين دقيقة ، فأنى على موعد » . وسأل عما

إذا كان من الممكن إيجاد حل يرضى الفريقين ؟ فأجيب : « لقد وجد الحل عند ما عقد اتفاق لندن ، ولم يبق سبيل للرجوع فيه » ، فسأل : « هل يعتبر هذا إنذاراً ؟ » فأجيب : « نعم » . فقال إننى مضطر لمقابلة ولى العهد الآن ، ويجب أن نتكلم فى هذا الأمر ، أين تتمشى الليلة ؟ - « فى السفارة البريطانية » . « أحب أن تتمشى عندى ، وسأكون بمفردى فى الساعة السادسة »

كتب بكونسفيلد للملكة : « قبلت دعوته وبعد العشاء ذهبنا إلى غرفة أخرى وأشعل سيجارة وحدثت حذوه . . . وأظن أننى أصبتُ صحتى بالضربة الأخيرة ، لكننى رأيت ذلك الأمر لازماً ، فى تلك الأحوال يكون للرجل الذى لا يدخن مظهر التجسس على كلمات الآخر . . . وأمضيت ساعة ونصف ساعة فى حديث من أهم ما يكون ، كله سياسى ، وقد اعتقد أن الانذار لم يكن عبثاً ، وعلمت فى ارتياح قبل ذهابى للفراش أن حكومة بطرسبرج سلمت » . استطاع أن يرسل فى اليوم التالى برقية إلى لندن : « قبلت روسيا الاقتراح الانجليزى فيما يتعلق بالحدود الأوربية للأمبراطورية التركية ، والحقوق العسكرية والسياسية للسلطان » .

قال بسمارك : « لا تزال تركيا مرة أخرى فى أوروبا » ، وقال جورتشاكوف متنهدا : « لقد ضحينا بمائة ألف جندى ومائة مليون جنيهه للأشياء » . ورفع هذا الحادث من قدر لورد بكونسفيلد فى عينى بسمارك ، فكان يقول : « إن الرجل عندى هو ذلك اليهودى العجوز » ، وتوطدت الصداقة بينهما ، وصارا يجدان لذة غريبة فى أن يتكلماً معاً فى أمور المهنة ، ويحبان أن يتباحثا فى علاقات الأمراء والوزراء والبرلمانات ، ومن النادر أن يجد الإنسان رفيقاً له فى العمل عند ما يكون رئيساً لوزارة ، ومن الطبيعى أن يشعر بالعطف عليه . وكان بسمارك يرى فى نفسه أنه أعلى من الآخر لأنه أقل أغراضاً وأكثر استهتاراً . أما لورد بكونسفيلد ففيه مواضع الضعف وفى درعه منافذ ، وهو لا يقاوم كثيراً إذا ما هوجم ببعض الآراء . ولاحظ بسمارك مواضع ضعفه ، ولذ له أن

يعارضها ويستغلها ، وكان بكونسفيد من جهته قد اكتشف الغرض البعيد الذي يرمى إليه المستشار ؛ وكانا ذات مرة واقفين أمام خريطة وهما يتناقشان في مسألة الاستعمار ، ورأى بسمارك من حسن السياسة أن يظهر المعارضة للفكرة ، وصر بكونسفيد بأصبعه على بلاد البلقان وتساءل : « ألا تظن أن هنا ميداناً صالحاً للاستعمار أيضاً ؟ » . فنظر إليه بسمارك ولم يجب .

صار عمل المؤتمر بعد ذلك عادياً وشبهياً بالحياة البرلمانية وإن فاقها لذة ، ولو لم يكن لورد بكونسفيد مصاباً في ذلك الوقت بالنقرس لسر لهذه الحياة ، لم يحب بسمارك وحده ، بل صار لجور تشاكوف صديقاً ، وقال عنه إنه جم الأدب ورقيق ، وإنه لما يؤلمني أن أسبب له مضايقات كثيرة . وكان الجو مثله في أحلام ليلة منتصف الصيف ويمضون لياليهم في بوتسدام عاصمة المملكة الصغيرة ، وفي ليلة أخرى يتعشون لدى السفارة التركية فيأكلون ألد طعام ومنه (البيلاف) ، وهو الأرز العجيب المصنوع على الطريقة التركية ، وتناول منه مسيو وادنجتون مرتين ، أو يتعشون عند الممول بلايشرودر ، حيث لا تعزف غير موسيقى فاجنر وإذا سار لورد بكونسفيد في الشارع التفت الناس إليه ، وأرسل بائعو الكتب برقيات إلى إنجلترا يطلبون نسخاً جديدة من رواياته ، واشترت مكتبات الشعب مجموعات كاملة من مؤلفاته في طبعة تاوشتنر .

في الأسبوع الثالث انفجرت قنبلة ، إذ وقفت إحدى الصحف الانجليزية وهي « الجلوب » على سر الاتفاق مع شوفالوف على أرمينيا وقد اشترته من كاتب على الآلة الكاتبة بوزارة الخارجية ، وكان تأثيره على شعور الانجليز عظيماً ، وكان الاستيلاء على قبرص لا يزال سرّاً ، وليس من تعويض ظاهر يوازن الفتوحات الروسية في آسيا ، وقامت ضجة شديدة في الصحف ، حتى إن المندوبين الانجليز حاولوا الرجوع في اتفاقهم . « وكان بسمارك يوجد الحوادث لمجرد اللذة في تسويتها » فكانت مشاحنات هؤلاء الكهول الذين فات زمنهم مضحكا أمام عقله المجدد

الدقيق الواقف على الأمور تماماً . ولم يكن كل من جورتشا كوف وبكونسفيلد جغرافيا ، ويحب جورتشا كوف على قوله بأن يلقى نظرة إجمالية على الحوادث ، لكن أمام الخريطة لا يستطيع أن يشير إلى باطوم ، وانزعج شوفالوف عند ما أخبره رئيسه أنه يحتفظ لنفسه بمسألة الحدود الآسيوية ، وأنه يتفاوض مباشرة بشأنها مع لورد بكونسفيلد .

لما أخبر شوفالوف اللورد سالسبورى بهذا الخبر قال : كيف يا سيدى ! إن لورد بكونسفيلد لا يستطيع المفاوضة ، فإنه لم يرق قط خريطة آسيا الصغرى . بعد بضع ساعات علم المؤتمر فى ارتياح أنه تم الاتفاق على الحدود . وعقد البرنس بسمارك جلسة عامة ، وجلس بكونسفيلد وجورتشا كوف إلى جانب بعضهما ، وطلب منهما أن يشرحا نصوص الاتفاق ، وعرض كل منهما خريطة بالحدود الجديدة ، لم يعلم أحد ماذا حدث ، وقد ادعى شوفالوف أن جورتشا كوف وصله بيان من أركان الحرب الروسى فيه الحدود المرغوب فيها ، وآخر فيه الحد الأقصى الذى يصل إليه فى التساهل ، فبلغ به الإهمال أن قدم البيان الأخير للورد بكونسفيلد ، ومهما يكن الأمر فإن الكهلين المريضين أخذوا يتراشقان بالكلام فى عنف مضحك حتى قرر بسمارك فى لهجة السخرية إيقاف الجلسة نصف ساعة . وفى هذه الفترة بين فصلين حاول شوفالوف وسالسبورى وبرنس هو هنلوه أن يجدوا حلا للمسألة ، وتم ذلك واتفقوا على حل وسط .

فى اليوم التالى أعلن الإنجليز الاتفاق الخاص بقبرص ، وفى هذه المرة تحمس الجمهور الإنجليزى وسر سرورا عظيما بهذا الموقع العسكرى فى الشرق الأدنى وبالبحر الأبيض الإنجليزى ، بل لاقت هذه الجرأة الدزرائيلية ثناء حتى فى الخارج وقالت جريدة « الديبا » الفرنسية : « إن تقاليد إنجلترا لم تمت تماماً فهى تعيش فى قلب امرأة وسياسى عجوز » .

أعد الإنجليز العدة للاحتفال الفخم بعودة المندوبين إلى لندن ، وزينت محطة

شيرنج كروس برايات جميع الدول المشتركة في المؤتمر ، وبأوراق النخل وباقات الزهر ، وربطت الورود حول الأعمدة ، ووقف جمهور عظيم ينتظر ، وعندما نزل رئيس الوزراء من عربة القطار حياه دوق نورثمبرلند ، ودوق سترلند ، ودوق أبركورن ، ودوق بدفورد ، ومحافظ لندن ، وأعضاء مجلس المدينة ، وكان جون مانرز بين المستقبلين ، وسير روبرت پيل نجل الوزير العظيم ؛ ومر الرجل الكهل بصعوبة وهو متكئ على ساعد لورد سالسبورى بين صفين من النبلاء والنبيلات وأعضاء البرلمان .

ما خرج من المحطة حتى ارتفع الہتاف العظيم ، كان ميدان ترافلجار سجاداً من الرؤوس ، وكان الجمهور يلوح بالقبعات والمناديل ، وتقذف النساء بالأزهار وعندما وصل إلى مباني الوزارة بداوننج ستريت ، وكانت مغطاة بالألوان الحمراء ، وجد باقة هائلة من الأزهار مرسله من الملكة ، وعند ما استمر الہتاف ظهر في الشرفة مع لورد سالسبورى وقال للجمهور : « أظن أننا جئنا لكم بالسلم مع الشرف » . بعد بضعة أيام كان راكعاً أمام الملكة في أوزبورن وهي تنعم عليه بالوشاح الأزرق لربطة الساق ، وقد كتبت له من قبل : « إن البلاد بأسرها من الكبير إلى الصغير في ابتهاج ما عدا مستر جلاستون الذى بلغ غضبه حد الجنون » .

أفغان وزولو وفيضانات

لو أن لورد بكونسفيلد أجرى الانتخابات على أثر مؤتمر برلين لضمان السلطة ست سنوات أخرى ، على أن أجل البرلمان لا ينتهى قبل سنتين ، وهو برلمان مخلص ، فقرر مجلس الوزراء أن يتركه فى الحياة إلى نهاية أجله ثم يموت موتاً طبيعياً ؛ وفى ذلك ثقة أكثر مما يجب بالأقدار ، ومن شأن البلاد أن تمل سريعاً عظمة الذين رفعتهم إلى المجد ، ويجب أن يسألها المرء فى الوقت الذى يكون فيه موضع الإعجاب .

فما مضت أسابيع على هذا الانتصار حتى غامت السماء من بعيد ، فقد أخذ الروس منذ زمن يتوددون إلى أمير الأفغان الذى تتسلط أراضي الجبلية على أبواب الهند ، وأرسلوا بعثة إلى عاصمته بالاتفاق التام مع الأمير ، فأثار هذا النجاح غير لورد ليتون حاكم الهند ، وكان رئيس الوزراء قد اختار ابن صديقه بلوار لهذا المنصب ، إذ عرف أنه واسع الخيال كثير الطموح وقوى الإرادة ، وأثبتت الحوادث أنه حائر على قسط أكبر مما يجب من كل هذه الصفات ، نصحه رئيسه بأن يصل إلى سحب البعثة بالمفاوضات الودية مع الروس ، لكن الحاكم عمل على غير هذه النصيحة ، وأرسل تحت مسؤوليته بعثة إنجليزية إلى كابول ، فأوقف أمير الأفغان مندوبى لورد ليتون لدى الحدود الهندية ووجد بكونسفيلد نفسه مضطراً فجأة إما إلى الخضوع الدليل لرغبة زعيم وحشى ، وإما إلى الدخول فى حرب خطيرة ، فغضب غضباً شديداً وكتب يقول : « عند ما يخالف حاكم أو نائب الملك أمراً يجب على الأقل أن يكون واثقاً من النجاح » وجدد جلادستون وأنصاره الصيحة منددين بالحرب الظالمة ، ومحتجين على سياسة الاعتداء التى يسلكها بكونسفيلد عامداً ، وأخبره العقلاء أن البلاد تردد صيحتهم فى هذه

في هذه المرة فهل يتخلى عن ليتون ويثبت براءة الحكومة على حساب مرءوس إن ذلك مما لا يتفق مع مبادئ رئيس الوزارة الذي عنف ليتون ولكنه أيده في موقفه ، وقد هزم الجنرال روبرتس جنود الأمير وأجأهم إلى الفرار فاختفت المعارضة كما تفعل دائماً في ساعة الانتصار وعادت البلاد إلى ثقتها به .

لكن عند ما يستيقظ الحسد في نفوس الآلهة لا تهدأ سريعاً ، فقد كانت الصناعة منذ سنوات في رخاء ، وقد حدثت بها أزمة من الأزمات الدورية بسبب سوء الحاصلات عدة سنوات ، ويجب أن تلام الحكومة على ذلك ، شكت المعارضة من أن الحكومة لا تعمل شيئاً ، وكتب لورد بكونسفيلد إلى لادى برادفورد يقول : « لك الحق في أن تظني أن الشيء الذي يستغرق أكثر وقتي في هذه الأيام هو الأزمة العامة ، لكن لا يدرى أحد ماذا نفعل ، فهناك مشروعات عديدة ومقترحات ، وهناك أسباب كثيرة لعدم قبول هذه المشروعات والمقترحات ؛ وكل ما أخشاه أن المعارضة التي لا تتورع عن شيء تتخذ هذا الموضوع لغاية حزبية ، وإذا لم نؤيد مقترحاتهم اتهمونا بقلّة الوطنية ، وإذا أيدناها كان لهم نخرها » . كان في ساعات وحدته يفكر عندئذ في بطاطس سير پيل .

من سوء الطالع في إدارة هذه الامبراطورية العظيمة أن تحدث حوادث مفاجئة وخطيرة في أبعد نواحي العالم ، كان الدخان لا يزال يتصاعد في بلاد الأفغان ، وإذا النار تشب في جنوب أفريقيا ، فقد عاشت في تلك الجهات منذ مدة بعيدة ثلاث سلطات متعادية جنباً إلى جنب ، وهي الانجليز في الكاب ، والبوير الهولنديون في الترانسفال ، والسود في أرض الزولو ، وقد نجح لورد كارنارفون وزير المستعمرات في كندا من قبل ، إذ تمكن من التوفيق بين الولايات المتنافسة وألف منها إقليماً واحداً ، فظن كسائر الرجال الذين يلاقون نجاحاً خاصاً أن وصفته تصلح لعلاج سائر الأمراض ، واعتقد أنه يستطيع التوفيق بين العالم بأجمعه ؛ وعمد إلى العمل لتأليف اتحاد في أفريقيا الجنوبية ، فبدأ بضم الترانسفال ، وقضى

ضم هذه البلاد على الخصم الطبيعي للزولو فاتجهوا نحو الانجليز ، وأخطأ لورد شلمسفورد قائد الجيوش في الثقة بالأحوال ، وإذا بالجمهور يسمع فجأة وهو على غير استعداد بوقوع كارثة ، وأن السود أحاطوا بمركز أركان حرب الجنرال شلمسفورد وقتلوا أو أسروا نحو ألف جندي وخمسمائة ، غضبت البلاد في هذه المرة ، فجون بول يصفق ما دامت وزارة المحافظين تحصل على السلم ، لكنه عند ما رأى نفسه مشتبكا في حروب مضحكة في الجهات الأربع من العالم ، بدأ يقول لنفسه . ربما لم يخطئ جلادستون إذ تكلم عن أخطار المستعمرات ، وعن الجنون السياسي لمنافسه .

مما زاد الحالة سوءا أن الأمير الفرنسي الشاب ابن نابليون الثالث أراد الذهاب للقتال في جنوب أفريقيا ، حاول بكونسفيلد بجميع الوسائل أن يحول دون هذا السفر ، لكن الملكة والأميرة أوجيني أصرتا على سفره فأذعن الوزير « وماذا يفعل المرء أمام امرأتين عنيدتين » . وفي أوائل يونيه سنة ١٨٧٩ قتل الزولو الأمير في إحدى المناوشات الأولى ، حزنّت الملكة حزنا شديدا وهي تحبه كثيرا ، وشعرت بأنها مسئولة بعض الشيء عن وفاته ، فأرادت أن تخفف الوطأة على ضميرها بأن يكون الاحتفال بجنائز الشاب القليل رسميا ؛ واحتج رئيس الوزارة ، فماذا تقول حكومة فرنسا الجمهورية إذا احتفل بأحد أفراد عائلة بونابرت احتفالا لا يجوز لغير الملوك ؟ غضبت الملكة ، ورأت أن الأمور تسير سيرا سيئا ، ولعن بكونسفيلد عروس الجن ؛ ولعن لورد شلمسفورد وأقوام الزولو قائلين عنهم في مرارة : « إن هذا الشعب جدير بالإعجاب ، فهو يهزم قوادنا ، ويغير من عقيدة أساقفتنا ، ويختتم نهائيا تاريخ أسيرة فرنسية كانت حاكمة » ، حاول أن يتسّم ؛ لكن الملكة حانقة وهي لا تقابله إلا في فتور رسمي ؛ وتألّم لذلك وكتب إلى المركيزة دلي رسالة يقول فيها : إن طبيعتي تتطلب إما الوحدة التامة ، وإما العطف الكامل ؛ وهي رسالة فيها جرأة وإخلاص ، وعرف أن الملكة ستطلع عليها ؛ وفيها « إنه لما يؤلّني كثيرا أن أفكر أن كلماتي

أو تصرفاتى لا ترضى جلالتها فإنى أحب الملكة ، ولعلها الشخص الوحيد فى العالم الذى بقى لى كى أحبه ، لذلك تستطيعين أن تفهمى كيف أن عدم رضاها يتعبنى ويقلق نفسى حين أشعر بسحابة بيننا ، لعل فى ذلك نوعاً من البساطة من جهتى ، لكن قلبى للأسف لم تبلغه الكهولة كما بلغت جسدى ، وإذا تأثر قلبى تأملت كما كنت أفعل منذ خمسين سنة . جاءت برقية تدعوه إلى وندسور ، وكانت عروس الجن رقيقة معه ، ولم تتكلم عن شكاياتها ، ومن الواضح أنها قرأت الرسالة ، لا تخلو إذن مهنة الروائى من الفائدة ؛ وفى الحق أنه كان يحب الملكة .

أخيراً فى نحو شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ هدأت الأمور فى الظاهر ولم يبق جندى روسى واحد فى أراضى السلطان ، وفى الهند قبلت البعثة الإنجليزية فى كابول وفى أفريقيا الجنوبية أسر ولسلى زعماء الزولو ، وظل سوء الجو هو الخطر الوحيد الذى يهدد الوزارة ، وهذا لا يقهره روبرتس ولا ولسلى ، وابتدأ محصول ردى خامس ، وأمطرت السماء فى هوجندن ليل نهار ، وصار بكونسفيلد يتنزّه تحت الفيضان وهو يتعثّر فى الأوحال السمكية ويسائل مزارعيه هل تركت الحمامة السفينة ، وفقدت الطواويس أكثر ريشها ، ومع ذلك استمرت تمشى مزهوة معجبة بجمال زائل .

هنالك بلغ رئيس الوزارة خبر فظيع هو مقتل جميع أعضاء البعثة الإنجليزية فى كابول ، والحقيقة أن الأقدار كانت تعاكسه .

مرة أخرى كان فى إنجلترا على الأقل رجل يعتقد بأن هذه المذابح وهذا الفشل المتكرر وهذا الفيضان ليست موجة لا تدفع من موجات الزمن ، وإنما هى عقاب أوقعه رب الجيوش لأن شعبه أثار غضبه بالتضحية لإله أجنبى . ومذهب بكونسفيلد فى رأى جلادستون هو عقيدة ملحدة دنست نفسية الشعب الانجليزى وحملته على محاربة جميع أمم الأرض وجرت عليه انتقاماً عادلاً . بدأت البلاد تفهم

الآن أنها انقادت لنبي كاذب ، وتبعث العلامات الكثيرة على الأمل بأنه سوف يندم على عقيدته في الانتخابات المقبلة ، فهل لا يكون واجب جلادستون عندئذ أن يتولى مقاليد الحكم لكي يحول مجرى السفينة؟ أعرب مراسلوه العديدون عن رغبتهم في ذلك ، ونقل له أحد الأساتذة الاسكوتلنديين بعض المثل من جيته « كيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى معرفة نفسه؟ بالتفكير؟ من المؤكد أن لا لكن بالعمل فحاول أن تقوم بواجبك وعندئذ تعلم لماذا خلقت ، لكن ما هو واجبك؟ ما تتطلبه الساعة » وكتب إليه آخر يقول : إن أولاده يسمون جلادستون القديس وليم . نعم إنه يشعر حقاً بأن رسالته في أن يصير مرة أخرى رئيس وزارة ، لكن كيف؟ فقد أعلن في كل مكان أنه يترك قيادة الحزب ، وارتكب حماقة بأن أخبر الملكة بذلك وكرر القول ، وهي تتذكر بلا شك هذا القول ، ترك هارتنجتون وجرانفيل يحتلان المكان الأول ، فكيف يطردوها ساعة النجاح من غير سخرية ، ثم هل هو يريد ذلك؟ ألم يتمنى اعتزال العمل استعداداً للموت؟ لكن ضميره القلق المتشعب وجد طرقاً متشعبة وأكيدته .

اختار التقدم للانتخابات في دائرة اسكوتلنديه هي مدلوثيان ، وقام فيها برحلة انتخابية بالرغم من عدم إعلان الانتخابات ، وقوبل بمقابلة الظافر ، في المحطات التي وقف فيها القطار هرع الآلاف من سكان القرى البعيدة لرؤية الكهل الكبير ورؤيت جيوش السامعين تتحرك على القمم المغطاة بالثلوج ، وفي المدن كانت القاعات التي تتسع لستمائة شخص يطلب الدخول إليها خمسون ألفاً ، صار جلادستون يلقي ثلاث خطب أو أربعاً أو خمساً في اليوم ، وكان ذلك السيل المستمر من العبارات الطويلة الغامضة والرنانة ينصب بلا انقطاع من الصباح إلى المساء ، وأصغت الجموع وهي مسحورة ، قال لهم إن المسألة ليست تتعلق بالموافقة على هذا الإجراء السياسي أو ذاك ، وإنما هي الاختيار بين مذهبين خلقين ، فمنذ خمس سنوات لم نسمع كلاماً إلا عن صالح الامبراطورية ، والحدود العلمية ، وإيجاد جبل طارق حديث ، وماذا كانت النتيجة؟ أن زادت مساحة روسيا وصارت دولة معادية ، واضطربت أوروبا

ووقعت الحرب في الهند ، وصارت أفريقيا لطفة من الدماء لماذا ؟ لأن في العالم شيئاً آخر غير الضرورات السياسية ، ففيه الضرورات الخلقية « تذكروا أن قداسة الحياة في قرى أفغانستان الواقعة بين ثلوج الشتاء هي في أعين القادر ذات حرمة لا تقل عن الحياة في مدننا » .

هذا الوجه الجميل كوجه الطير الكاسر ، وهاتان العينان النافذتان الجادتان وهذا الصوت الذي تبدو قوته المستمرة كمعجزة ، وهذه النزعة الخلقية الدينية السامية أثارت إعجاباً مشوباً بالقلق في القرى الاسكوتلندية لاسيما لدى الرجال ، فكأنهم يسمعون الكلمة المقدسة وينظرون إلى نبي .

اهتزت البلاد بأسرها لتلك الحملة في مدلوثيان وملئت أعمدة الصحف وتتبعته انجلترا المعروفة بغلوها الديني هذا الحج الحماسي ، وكأن المنافسة صارت بين مدلوثيان ومكيافللي ، وبين جلاستون والسيطان ، سخر المحافظون وحسب أحدهم أن جلاستون نطق بخمسة وثمانين ألفاً ومائة وأربعين كلمة ، أما الشيطان فكان يقوم في صعوبة بعمله اليومي كرئيس للوزارة في لندن ، وقد انكمش في نفسه لشدة ضبابها وثلوجها ، تعب بكونسفيلد من كل هذه الضجة التي قام بها جلاستون وتصنعه الغيرة على الأخلاق ، وتلك الدعوى الفاسدة الخاطئة بأنه يمثل الإرادة الإلهية ، وضايقته تلك الصحة البدنية التي يتمتع بها منافسه وتلك القوة الغاشمة في ذلك الصوت ، فإذا انتهت الضجة كتب إلى أحد وزرائه يقول « انتهى ذلك السيل من الخطابة أخيراً وإنه لراحة بلا شك ، لكنني لم أقرأ كلمة واحدة » ، ثم باللاتينية « فيه الكثير من الفصاحة والقليل من الحكمة » .

عند ما جاءته الفرصة ليتكلم في ولية سنوية لدى المحافظ ، حيث يحتفظ تجار المدينة من عهد بعيد بحق سماع تصريحات رئيس الوزارة بعد شرب حساء الترسة ، أكد الرئيس حسن السياسة التي سار عليها وقال : « مادام الشعور بقوة انجلترا قائماً في مجالس أوروبا فإني أعتقد أن السلم سيسود ويسود لمدة طويلة ، أما إذا ابتعدنا فالحرب لا بد منها ، وهو موضوع أتكلم عنه في ثقة لأهل لندن لأنني أعرف

أنهم لا ينجلون من الامبراطورية التي أنشأها أجدادهم ، ولا ينجلون من عاطفة
هي نبيلة ، لكن الفلاسفة ينددون بها الآن ، وهي عاطفة الوطنية ، ولأني أعرف
أنهم لا يعتقدون بأن بقاء إمبراطوريتهم فيه خطر على حريتهم ، سئل رجل
من أعظم الرومان عن سياسته فأجاب : الامبراطورية والحرية ؛ وليس ذلك
بالبرنامج السيئ لوزير بريطاني ، وهو برنامج لا يتردد أمامه جميع مستشاري
جلالة الملكة .

العالم الخارجى

كتب بكونسفيلد فى أحد الأيام إلى الملكة : « ليس كل ماله مظهر الجده هو حق دائماً » ، وكان يستطيع أن يضيف إلى ذلك فى سهولة : « وما له مظهر الأخلاق ليس دائماً من الأخلاق » لكن الناخب الانجليزى فيه نزعة الجده ونزعة الأخلاق ، ومن يعرف كيف يعرض عليه الوقائع على أنها مما يمس الضمير يحصل على صوته على الأقل فى غير المدن .

لم تكن الانتخابات سوى مبارزة بين بكونسفيلد وجلادستون ، كان بكونسفيلد فى لندن أحب الشخصين إلى الشعب ، فالحافظون والكثيرون من الأحرار المعتدلين أيضاً يضعون ثقتهم فيه ويكرهون جلادستون ، صار لدى جمهور العاصمة نوعاً من المعاهد الوطنية ، فإذا ركب عربة قال له السائق : « إني أعرف من أنت يا سيدى ، وقد قرأت كتبك جميعها » ، وعند ما يعود من مجلس اللوردات وهو ملتحف بمعطفه المبطن بفرو الاستراخان ، وقد اتسع على جسده الناحل وهو متكئ على ذراع كورى الأمين ، فيقف قليلاً ليتنفس وهو يقطع الحديقة العامة ، كان المارة يعرفونه ويعجبون بشجاعة هذا الرجل الذى كاد يدركه الموت ولا يزال يجيل عينيه الحزينتين اللتين تمان عن طيبة النفس فى جوانب الحياة ، وأحياناً تتقدم إليه العاهرات الصغيرات وهن يصدن الرجال فى الضباب المذهب وقد جذبتهم إليه ياقته من الفرو الثمين ، ثم يتمتمن عارضات بضاعتهم الحقيمة المحزنة ، فيرفع الوزير الكهل يده بصعوبة نحو قمعته ويجيب فى أدب كبير « فى غير هذه الليلة يا عزيزتى ! فى غير هذه الليلة ! » . كانت جميع النساء من جميع الطبقات تقريباً فى صفه . وفى حفلة عشاء جمعت راقصات الملاحى ألقى سؤال هو : « من تودين أن تزوجى جلادستون أم دزرائيلى ؟ » فاختارت جميع الفتيات الجميلات

دزرائيلي ما عدا واحدة قالت «جلادستون» ، وعند ما لمنها على ذلك قالت « إنتظرن
إني أود أن أتزوج جلادستون لكي أهرب مع دزرائيلي ثم أرى كيف يكون
وجه جلادستون عندئذ » ، روى هذه القصة لدزرائيلي لورد شاب حضر هذه
الحفلة وهناك على اتساع دائرة حب الجمهور له وقال له : « لتغيب فقد رأيت الملكة
أمس وهي تعتبرك أعظم رجل في دولتها وهؤلاء الراقصات يعبدنك » ، أضاء ذلك
الوجه الصامت قليلا ، وقال بالطبع أنا راض فإنك تعرف عواطف الرقيقة نحو النساء
جميعاً ، لكنه عند ما روى هذه القصة في نهاية انعقاد مجلس الوزراء ظل الوزراء
غير آبهين وتناظروا فيما بينهم .

وجد الحزب في هذا النضال أن عدم مبالاة الرئيس عجيب ، فهو يخاطب عضوا
شبابا انتخب حديثاً فيكلمه عن اليهودي التائه وعن بيرون وعما يسميه النفس
الأدبية ، وعن كلاب لادى برادفورد ، وهو يتكلم إلى سير افلين بارنج وقد عاد
من مصر فيمتدح اليسوعيين ويسأل تفصيلات عن طير أبي قردان في النيل ، وهو
حتى في مراسلاته مع الملكة يذهب نحو الفن « عاد لورد بكونسفيلد إلى قراءة
بعض روايات شكسبير التمثيلية كي يشغل ليله ، ومنها حلم ليلة في منتصف الصيف
ولم يقرأ شيئاً من هذه الروايات منذ ربع قرن ، وما لاحظته هو أن جميع حوادث
هذه الرواية تقع في ليلة من شهر مايو ، فمن أين يأتي هذا العنوان الذي لا يلتئم
معه ؟ إن لجلالتك الكثير من الذوق الشعري والثقافة ، وربما أنك تستطيعين
ياسيدتي التفكير في هذا السر وتفسيره ... »

لكن الملكة والراقصة لم يكونا الناجحين ، ولم يتردد الرجال في مدن
اسكوتلنده بين نبي مدلوثيان وبين ساحر دوننج ستريت ، وظهر من النتائج الأولى
أن هزيمة المحافظين ستكون أشد من هزيمة الأحرار قبل ذلك بست سنوات ، فالبلاد
تتألم وهي تجتاز أزمة زراعية وأزمة مالية ، وهي كشأن المرضى تنقلب إلى الجانب
الآخر عليها تجد شيئاً من الراحة .

هزم المحافظون هزيمة منكرة ، وكتب جلادستون : « إن رءوسنا متعبة

من الحوادث الجسيمة التي حدثت في الأسبوعين الأخيرين ، وكانت على ما أعتقد باعثة على السرور في الأغلبية العظمى من العالم المتمدين « ، سيستأصل الخطاب تلك النباتات الغريبة المضرة التي نمت في ست سنوات ، ومدت ظلالها المميتة على الحقول الإنجليزية الطاهرة ، وأخذ يحسر أكم قميصه عن ذراعيه القويتين .

قبل بكونسفيلد الهزيمة في صفاء نفس ، فهو سيرتاح قليلا بين الأشجار والكتب قبل الموت ، وهو يأسف فقط على تركه للأمور الخارجية في ساعة صعبة ثم على تركه الملكة بصفة خاصة .

كانت عروس الجن في بادن ولم تصدق الأنباء ، فإذا بلغت النتيجة الأكيدة للانتخابات أرسلت إليه برقية تقول : « لن تكون الحياة لي من بعد إلا مضايقات ومحن ، وإنني أعتبر هذه النتيجة محنة عامة » ؛ رد بكونسفيلد معربا أيضا عما يتحمله من الحرمان من تلك المحادثات ، عند ما كانت جلالتها تتنازل بأن تخطط الأحاديث المنزلية بالأحاديث الامبراطورية ، ولهذا الأحاديث عنده سحر لا يقدر وأخذت جلالتها منه وعدا ألا يتركها ، وأن يستمر على أن يشير عليها في أمورها الخاصة ، وفي الأمور العامة أيضا بالرغم من الجميع ، وأن يسهر في المعارضة على مستقبل إنجلترا .

ظنت الملكة وظن الوزير في بساطة أنهما يستطيعان تجنب جلادستون ، جرانفيل وهارتنجتون هما الزعيان الرسميان للحزب ، ومن المنطقي أن تدعو الملكة أحدهما وهي تفضل « هارتي تارتي » الذي كان مثال اللياقة في المعارضة ، وكان دزرائيلي يحب هارتنجتون منذ رآه وهو نائب يتشأب أثناء إلقائه خطبته الأولى لكن جلادستون قضى على هذه الأمور البسيطة في تواضع لا يتزعزع ، فقد فهم جرانفيل وهارتنجتون بعد حديث غامض لكنه واضح الدلالة تماما أنه يحارب

كل وزارة لا يكون رئيسها واضطرت الملكة للخضوع

انتهت تلك العلاقة السياسية الوثيقة والجميلة ، وكان استقبال الوداع محزنا ، أهدت الملكة إلى صديقها القديم تمثالا صغيرا لها من البرونز وتمثالا من الجبس .

لمهرها الصغير ، وقطعت عليه عهداً بأن يكتب إليها كثيراً وأن يأتي لزيارتها ، وودت أن تظهر عطفها بعلامة دأمة وأن تنعم عليه بلقب الدوق ، لكنه رأى أن ذلك يكون خطأ بعد فشله أمام الأمة ، ولم يلتمس غير مطلب واحد هو أن يرفع كوري إلى مصاف النبلاء ، فصار بذلك لورد روتون وهو شرف لم يسبق له مثيل لسكرتير خاص ، قال الحساد : « لم يحدث ما يماثل ذلك منذ رفع الإمبراطور كاليجولا جواده إلى مرتبة القنصل »

أنجز بيكونسفيلد وعده فكان يذهب لزيارة الملكة أحياناً ، وفي أول مرة تعشى فيها في قصر وندسور بعد بضعة أسابيع من تركه مقاليد السلطة قالت له : « إنني مغتبطة هذه الليلة حتى أن كل ما حدث يبدو لي حلمًا مروعًا ووجدتها فرحة ممتلئة حياة وظريفة بل جميلة ، واعترف لنفسه مرة أخرى أنه يحبها كثيراً واستمرت تكتب إليه لتقول له كلمة رقيقة فقط « إنني أفكر فيك — وأفكر دائماً . وإنني مرتاحة لأن أرى صورتك في الحائط تنظر إليّ بعد العشاء » وأحياناً تخاطبه في شئون البلاد بالرغم من النظام الدستوري ، وكان شديد التكم في هذا الباب ، ولم يسبب للملكة متاعب من هذه الناحية .

كان طول حياته ينتقل في فترات منتظمة من العمل إلى التأليف ، وهذه المرة أيضاً عمد إلى التأليف بالرغم من سنه : « إنني إذا ما شعرت بالرغبة في قراءة رواية أعمد إلى تأليف رواية » ، فمن يستطيع في الواقع أن يكتب له الروايات التي يحبها ، ومرة أخرى صار البطل الطموح رئيساً للوزارة في آخر صفحة من رواياته بعد أن عملت عوامل خفية وملكية في صالحه ، ورواية « أندميون » هي قصة سياسي شاب يقوم نجاحه على الصداقات النسائية ، وتظهر من الصفحات الأولى في الرواية أخت كاملة تعيد شبح سارة المسكينة ، ويمر في الرواية جميعها موكب من النساء الجميلات اللاتي يدبرن الدسائس ، ويعملن على زج اندميون الضعيف نحو دوننج ستريت ، ولم يكن الكتاب خالياً من العيوب ، لكن الطريف فيه هو أن نعود فنجد حب هذا الكهل للشباب لا يزال سليماً .

أخذ لورد روتون على عاتقه بيع حقوق التأليف ، وحصل على عشرة آلاف جنيه ، أنفقها في شراء أثاث منزل جديد في لندن للورد بكونسفيلد الذي استأجره لمدة تسع سنوات وهو يقول : « إن هذا الايجار يكفيني إلى حين الخروج » ، قابل الناس هذه الرواية في شوق ، لكنها لم تنجح نجاح لوثير ، وقال الناشر للورد بكونسفيلد إنه خسر نقودا فيها ، فعرض عليه للحال عرضا كريما ، هو إلغاء العقد ، لكن لونيجهان الناشر رفض ذلك ، وأصدر طبعة رخيصة للجمهور عوضت عليه المبلغ الذي ينقصه .

بلغ بكونسفيلد السادسة والسبعين من عمره ، وقد فقد قوة حبه للسلطة وصار لا يعتقد فيها ، قال : « عرفت في حياتي قليلا ما هو العمل ، وهو عبارة عن آمال لا تتحقق ونشاط يبدد » ، وإذا كان قد ترك نفسه تتمشى في حقول الذكري ، فهو يستطيع أن يحصد حصادا جيدا من دروس التواضع ، فقد رأى الأحرار وهم يتمسكون بأحداث إصلاح انتخابي تكون أول نتيجة له أن يبعدهم عن السلطة ، ويعتبر المحافظون تنفيذ هذا الإصلاح البغيض نصرا لهم ، ورأى بيل يحرر الكاثوليك بعد أن قضى على كاتنج ، وذررائيلي يترك الحماية بعد أن قلب بيل ، وهو يرى جلادستون يهدد روسيا بعد أن صب اللعنات على بكونسفيلد ، ورأى الجمهور يهتف لولنجتون ثم يصفر له ، ويهتف لجلادستون ثم يصفر ، ثم يعيده من جديد ، ورأى أكثر الوزراء دعاية للسلم يسلك سياسة من أشدها مغامرة ، وأكثر الملوك حبا في الشعب الألماني تجد لذة في مقاومة بسمارك ، وماذا تكون نتائج سياسته في برلين بعد خمسين سنة ؟

أما هو فقد أظهر إخلاصاً غريباً لآراء الشباب ، قد يكون برنامجا في سنة ١٨٨٠ موقعا عليه من كوننجسبي ، على أنه كان في زمن كوننجسبي يعتقد في القوة التي لا حد لها في الرجل العبقري ، لكنه يعترف الآن بالقوة العظيمة للعالم الخارجي ، وهو لم تخنه الشجاعة ، وهو لا يثني من عزيمة الناس ، لكنه صار

متواضعاً إلى أقصى حد ، لقد فكر سمث ومانرز وديزى فى ظلال ديبدين أن الرجل العظيم المؤيد من الكنيسة ومن الشبان الأشراف يستطيع أن يقرب النظام فى إنجلترا ، لكن بكونسفيلد الكهل يرى لاسيما فى الكنيسة مجموعة من العظماء الحسودين ومن المتطلعين إلى الأسقفية ومن المذاهب المتنافسة ، وإذا كان قد وجد بين شبان الأشراف أصدقاء مخلصين فإنه لم يجد أبداً تلك المدرسة العظيمة من الزعماء الطبيعيين التى وصفها فى شغف ، وأراد أن يضرب لأمتة مثلاً خيالياً ففشل فعلاً لأنه أرسقراطى العقل ، والطباع السائدة فى إنجلترا هى نزعات طبقاتها المتوسطة .

لكن الهزيمة كانت نسبية ولم يكن يستاء لشيء مثل أن تفسر بأنها كارثة عقلية مؤلمة ، فقد قطع شوطاً كبيراً فى تبديل الأمور ، وأوجد التوازن بين القوى التاريخية والقوى التحويلية ، وله الفضل فى أن عرفت إنجلترا النظام الحكيم فى تتابع أنواع الحكم ، فحياته لم تكن عبثاً غير أنه أخذ يزداد رغبة فى قيمة الكلمات ، ويبحث عن الحقيقة فيما وراءها فلا يجدها إلا فى الأشخاص وفى الدرجة العليا من الأمم التى تقدمت فى التطور حتى صارت أشخاصاً ، زعم بعض الفلاسفة السياسيين أنه فى نهاية حياته صار من الأحرار ومن أشدهم حرية والحقيقة أنه لم يبق ثابتاً فى حزبه إلا بالولاء ، ولو سأله سائل كما سأل سولون : « أى النظم تفضل ؟ » لأجاب إجابته : « لمن ؟ وفى أية لحظة ؟ » .

حافظ مع ذلك على حبه الكامل لمغامرة الحياة العجيبة ، فهو لم يزل يعتقد فى فائدة العمل ، لكنه يطلب أن يكون العمل متزناً ومحدوداً ، فهو لم يفقد ثقته إلا فى المشروعات العظيمة وحدها ، وهو الآن يمثل ظاهرة غريبة ، لكنها محبوبة ، يمثل رجلاً خيالياً قديماً لم يعد مخدوعاً بالأوهام الخيالية ، ولا يزال مع ذلك يعلل النفس بأنه مستهتر ومتحمس ، كانت كهولته فى بعض النواحي أسعد من شبابه ، « فكل شيء يظهر فى الشباب خطيراً لا دواء له ، لكن فى الكهولة كل شيء يتدبر بخير أو بشر » ، ظل فضولياً ويجب أن يحيط به رجال حديثون ،

وبذل جهداً كبيراً كي يدخل الشبان المثقفون في الحزب ، كان يقول إن الحزب يقضى عليه إذا لم يستمر على إدخال عناصر من الشباب النشيط .

في سنة ١٨٨١ طلب مستر هندمان من أوائل الإشتراكيين الإنجليز أن يقابل لورد بكونسفيلد ، ومن العجيب أنه كان يأمل التأثير عليه ، وأن يحصل بواسطته على تأييد المحافظين لبعض قوانين العمال ، وقد قرأ « سيبيل » وشعر بميل إلى الزعيم الكهل للعطف الذي أظهره هذا الزعيم على عامة الشعب ، فاستقبل وأدخل إلى غرفة حوائطها طليت باللون الأحمر والذهب ، كانت المقاعد المذهبة في كثرة مكسوة بالحرير الأحمر ، وانتظر هندمان قليلاً ، ثم فتح الباب وظهر شبّح غريب : عجوز في رداء منزلي طويل أحمر ، وعلى رأسه طربوش أحمر ، وقد تساقط رأسه على صدره ، وأغمض عيناً ولم يفتح الثانية إلا قليلاً ، وتظهر من تحت الطربوش آخر خصلة من شعره مصبوعة بالسواد ولا معة ، كان منظر الدمار والتعب كبيراً حتى يئس الشاب في مبدأ الأمر وفكر « أجل ! إني أتيت متأخراً ، فهل أستطيع أن أرفع تلك الجفون ، وهل يجيئني بغير عبارة تدل على السخرية والإيهام » .

جلس العجوز وظل ساكناً لا يتحرك وانتظر ، ومن الصعب أن يخاطب الإنسان تمثالاً ، قال هندمان في خجل : « يا لورد بكونسفيلد إن السلم مع الشرف كلمة قضى عليها ، لكن السلم مع الراحة هو ما يود أن يسمعه الشعب » ورفع العجوز أحد حاجبيه وقال : « إن السلم مع الراحة عبارة لا بأس بها » ، وفتح عينيه الاثنتين وتبسم وقال : « أظن يا مستر هندمان أن لديك بعض الآراء في هذه المسألة فماذا تعني بالراحة ؟ » ، فأجاب الآخر : « أن يأكل الناس كثيراً ويشربوا ما فيه الكفاية ، ويكون لديهم منزل صالح وتربية كاملة ، ووقت فراغ كاف للجميع » .

فقال لورد بكونسفيلد : « أي أن يتحقق ما هو في حكم الأحلام ؟ إنه حلم جميل حقاً ... وأنت تعتقد أن أمامك فرصة لتحقيق هذا الحلم ؟ أوكد لك أن ذلك لن

يكون عن طريق حزب المحافظين ، فإنك في اللحظة التي تريد أن تعمل فيها تجد نفسك محاطاً بكوكبة من العائلات الكبيرة رجالاً ونساء على الأخص يرغمونك على الفرار في كل لحظة ... إن انجلترا يا مستر هندمان بلد يصعب تحريكه ... بلد يجب أن تنتظر فيه الفشل أكثر مما تنتظر النجاح ، فقد تستطيع أن تدفع انجلترا إلى عمل هذا ، (وكان لورد بكونسفيلد ضاماً يديه فأبعدهما مقدار نصف قبضة ، وكأن الوزير الكهل يرفع ثقل العالم كي يفصلهما) ثم هكذا أيضاً ، (وفتح يديه مقدار نصف قبضة) ولكن يستحيل هذا ... » .

حاولت المومياء عبثاً أن تفتح ذراعيها المتقلصتين ثم سقطتا على ركبتيها .

زهرة المحبوبة

هو بين هو جندن والوحدة والكتب والذكريات ، كتب إلى دوقة
« رتلند » : « لم أخطب مخلوقاً منذ أسبوعين » ، وهو يجد في ذلك راحة ، « ولم
أكد أبادل أحداً كلمة منذ ثلاثة أسابيع ، لكن لئلا العيش في الريف أثناء
الصيف هي لئلا متجددة أبداً ، فالطواويس تقف في غير حراك لتستدفئ بالشمس
على حشيش كالقطيفة ، وهي لا تنطق فضلاً عن أنها لا تتحرك ، وهذه فضيلة
فيها ، أما في الصباح فهي تنشر ذيولها وتصيح وتتغازل أو تتقاتل » ، وهو أيضاً
يجب أن يدفئ أعضاءه العجوزة في الشمس ، وأن يتنزه في الليل تحت النجوم في
الساعة التي وصفها شكسبير حين تبدأ الخفافيش رقصها المتموج الرمادي ، وهو
لا يزال يحيط نفسه بالزهور من البنفسج وأزهار الربيع إلى الجردينيا والأرشيده ،
ويفضل بعد الزهور الوجوه الجميلة ، والأصوات الموسيقية ، وتلك الرقة الوحشية
غير الحقيقية التي نجدها أحياناً في الأطفال والنساء . قد تمنى في صباه أن تكون
الحياة موكباً طويلاً فخماً ، فكانت ، وهو الآن وقد تعب من هذا الموكب الفخم
لا يتمنى إلا الدفء في غير حراك ، فاذا دعتة مناقشة هامة إلى مجلس اللوردات
ركب قطار الليل وكتب يقول : « إنني لا أستطيع أن أقاوم سحر الموسيقى الغليظة
في صوت اللقلق وحفيف الأشجار ولون الزهر الأحمر » .

أمضى في سنة ١٨٨٠ عيد الميلاد بهو جندن وحيدا ، وحمل إلى المائدة كتاباً
صار يقرأ فيه عشر دقائق بين كل صنف من الطعام وآخر ، وكان كثيراً ما يقرأ
تاريخ جمهورية فينيزيا ، وهو موضوع يلذ له منذ ستين سنة ، وأحياناً يقرأ الكاتب
قديم مثل لوسيان أو هوراس أو تيوكريت أو فرجيل الذي زاد شغفه به ،

وأمامه في غرفة المائدة المصنوعة من البلوط صورة الملكة كما رسمها فون أنجلي ،
وفيهما تظهر الملكة جافة الملامح شديدة بعض الشيء ، ثم قام ليجلس إلى جانب
النار في المكتبة وقرأ قليلاً ثم أغمض عينيه وظل يحلم ، ونعقت بومة في الخرائب
فذكرته ماري آن وملاحها العزيزة المتعبة الضامرة ، وخيل إليه أنه يسمع الثرثرة
المرحة التي حافظت عليها في شجاعة حتى النهاية ، وانزلت قطعة من الحطب
فتطاير الشرر حول الرجل العجوز ، وإنها لمثل قصير وبراق للحياة ، فمذ خمسين
سنة في غرفة استقبال صغيرة ستأثرها من الموسلين الأبيض ، رأى وجوها جميلة
تضحك حوله من عائلة شريدان . . . كارولين نورتون . . . ما أجملها في جدائل
شعرها السوداء وعينيها البنفسجيتين ، لقد حافظت على هذا الجمال حتى النهاية ،
كانت تقول : « نعم سأظل جميلة حتى في النعش » ، وهي الآن في ذلك النعش
منذ ثلاث سنوات بعد حياة صعبة ، وقالت في نهاية حياتها : « الحب ، الحب في
الحياة ، ذلك يذكرني دائماً بعجوز تمتلك منزلاً في برايتون قالت لي إنك تعلمين
أنك تسكنين منزلي وكل ما خلا ذلك زائد — أجل ! إن الحب زائد في الحياة ،
ويجب أن ندفع من أجله ثمنًا » . إن السيدات في الكهولة يرين الحقيقة ، حتى
الملكة ، فهي تقول : « إنني كلما زدت شيخوخة كلما قل فهمي للعالم . . .
لا أستطيع أن أفهم ما فيه من صغائر . . . وعند ما أرى طيش الناس يخيل إلي
أننا جميعاً مخبولون بعض الشيء » . . . إنا جميعاً مخبولون بعض الشيء . . . فهو
مثلاً قد أمضى حياته في البحث . . . عم يبحث ؟ وما الذي وجد فيه السعادة
الحقة ؟ بعض نظرات الاعتراف بالجميل من ماري آن وصداقته الجميلة للمارز
وبنتنك ، وثقة دربي في شيخوخته ، وثقة الملكة وبعض الابتسامات من
لادي برادفورد . . . باغته سكرتير شاب وهو يسعل ويتنفس في صعوبة ويتمتم
في صوت منخفض لنفسه أحلام . . . أحلام .

صعد إلى غرفة نومه وقد أحب أن يزين البهو والسلم بصور أولئك الذين
زينوا حياته ، وهو يسميها متحف الصداقة ، وكان وهو يصعد في بطء وفي

صعوبة يستطيع أن يقف أمام كل صورة . . . فهذه هي جدائل الشعر الطويلة
للادى برادفورد . . . أسعدت مساء ياسلينا الطائشة الظريفة . . . وهذه عينا
لويس نابليون الحالمتان ووجهه الضخم . . . وهذا بيرون الذى لم يعرفه ديزى ،
لكنه كوّن ديزى . . . وهذا تيتا بشارييه الطويلين كأحد أقوام الغولوا . . .
وهذا لاندهرست بملاحه الدقيقة ، وقد صورته دورسيه . . . وهذا دورسيه
نفسه تحيط بوجهه لحية سوداء « ها ! ها ! يا صديق » . . . ثم برادفورد . . .
ومارى دربى فى الخطوة الأخيرة .

فى ٣١ ديسمبر عاد إلى لندن قائلاً : « أريد أن أرى الناس وأعتاد الصوت
البشرى المقدس ، وليس من السهل أن أخرج من الوحدة العميقة التى أعيش
فيها إلى مجلس اللوردات وألقى خطبة عن إمبراطورية تنهار » ، كان يجد صعوبة
فى الكلام لا سيما أن ضيق التنفس لا يفارقه ، دهش لورد جرانفيل زعيم
المجلس من الأحرار إذ رآه وهو المشهور بالصبر يطلب الكلام فى إصرار عنيف ،
ورده فى شئ من الخشونة ، وقبل لورد بكونسفيلد هذا الرد فى سكون ، لكن
لورد روتون أخبر لورد جرانفيل فيما بعد أن المريض العجوز لا يجد الراحة
الضرورية للكلام إلا باستعمال دواء لا يستمر تأثيره أكثر من ساعة واحدة
فقط . فقال جرانفيل فى خجل : لكنه كان يجب أن يفصح عن ذلك ، على أن
لورد بكونسفيلد لا يفسر مواقفه قط .

ما تحسنت صحته قليلاً حتى أخذ يتردد على المجتمعات ، كان أحياناً يسحر
الحاضرين بحزن عباراته القصيرة القديمة ، وظرف آدابه العتيقة ، واشتهر بقصر
عباراته بقدر ما اشتهر فى شبابه ببريقها ، ورأى مرة فتاة مدت ذراعها العارية
فتمتم فى بساطة اسم « كانوفا » .

وفى بعض الأيام كان يظل صامتاً أثناء الطعام لا يتحرك جسده ولا وجهه

مطلقاً حتى ليقال إنه مومياء فرعون محنطة بأيد تقية وضعت وسط الأشياء التي يحبها من بلور وفضة وأزهار .

احتفظ لورد بكونسفيلد بمكانته بالرغم من الفشل الانتخابي ، وقد نرى صورته في موضع الشرف بنادى المحافظين وهي تلفت أنظار الجميع بنظرها الثابتة الفظيعة ، وكتب على الأطار بيت من شعر هوميروس : « هو وحده الحكيم ، أما الآخرون فأشباح زائلة » . كان في أعماق نفسه من الذين لا يحملون ضغينة ولا يأسفون ؛ زار سير جون ميليت مرة فظل ينظر طويلاً إلى صورة تخطيطية تمثل جلادستون ، فقال له الرسام : « هل تحب أن تأخذها فاني لم أجروء على تقديمها إليك » ، فأجاب : « إني أكون مسروراً جداً لو أعطيتها ، فلا تتصور أني أكره وليم جلادستون أبداً ، لا ! إن الصعوبة بيني وبينه هي أني لا أستطيع فهمه » .

كان شهر يناير من سنة ١٨٨١ شديد البرد ، وتأثر لورد بكونسفيلد بالبرد ، فصار في نوع من الخمول ، يمضي أياماً عديدة وهو ممدد على مقعد ، وفي تلك الأيام يكون شعاع قصير من الشمس أثنى لديه من قلادة ربطة الساق ، وهو لا يصحو إلا ليكتب رسالة للادى برادفورد ، أو لادى شستر فيلد ، وفي شهر فبراير وفي مبدأ شهر مارس استطاع الخروج قليلاً ، والكلام في مجالس اللوردات والعشاء لدى ولي العهد ولادى هاركورت ، وكان يتمنى عودة الربيع في قاق ، لكن الربيع لم يأت ؛ وفي نحو آخر شهر مارس أصابه برد ولازم الفراش وكان يتنفس بصعوبة ، وعند ما تسلمت الملكة رسائله مكتوبة بقلم الرصاص قلقته وسألت عمن يعالجه ، فكان الدكتور كيد أيضاً الطبيب الذي يعالج إظهار أعراض المرض ، واقتрحت الملكة اجتماع طبييها بطبييه ، لكن نظم الأطباء تحول دون الاتصال بطبيب من هذا النوع .

أخيراً تغلبت إرادة الملكة على عداوات المهنة ووصف مرضه بأنه نزلة شعبية مغ ضيق في التنفس .

كان الأطباء في مبدأ الأمر يأملون شفاؤه ، لكن المريض قال : « لن أبرأ من هذا المرض ، إنى أشعر بأن ذلك مستحيل » وقد كتب من قبل : « يجب الذهاب في شجاعة إلى الموت » ، كان يسأل في إصرار أن يخبروه عما إذا كان يموت قائلاً : « إنى أفضل الحياة لكنى لا أخشى الموت » وهو ينظر إلى ساعاته الأخيرة نظرة الفنان الذى لا يهتمه غير المظهر الفنى ، لم يظهر من الصبر في حياته ما أظهره في مرضه ، وسحرج جميع الذين اقتربوا منه ، وأصلح تجارب خطبته الأخيرة في صعوبة وهو في فراشه قائلاً : « لا أريد أن أشتهر في المستقبل بأنى لا أحسن قواعد الكتابة » ، وظل حتى آخر لحظة كارهاً لوسائل الراحة العادية ، فقد وضعت ممرضة وسادة ممتلئة بالهواء تحته لتريحته فتمتم قائلاً : « ارفعى ! ارفعى هذه ! فهى رمز الفناء »

تتبعت الملكة مرض صديقها القديم في قلق ، وعرضت عدة مرات أن تذهب لترآه لكن الأطباء خشوا أن يضطرب المريض أكثر مما يجب لهذه الزيارة ، وكانت ترسل البرقيات كل يوم من وندسور لتقف على أخباره : « إنى أرسل إليك بعض زهور الربيع من أوزبورن ، أحببت أن أزورك زيارة قصيرة ، لكنى فكرت أنه خير لك أن تبقى هادئاً ولا تتكلم ، وإنى أطلب إليك أن تظل حكيماً ، وأن تحترم إرادة الأطباء ، وألا تهوّر في شيء » . كانت غرفته بعنايتها غاصة دائماً بأزهار الربيع والبنفسج ، وكانت أعين المريض تقع في سرور على هذه الكتل الجميلة ذات الألوان الصافية ، وعند ما اضطرت فيكتوريا للسفر إلى جزيرة وايت أرسلت رسولا معه أزهار أيضاً ورسالة ، وبلغ بكونسفيلد من الضعف حداً لا يستطيع معه قراءة الرسالة بنفسه ، فأخذ يقلبها في يده حائراً ، ثم قال بعد تفكير : « يجب أن يقرأ لى هذه الرسالة لورد بارنجتون أحد المستشارين الخاصين » ، فهو يحب دائماً المحافظة على التقاليد ، وجاء المستشار الخاص وقرأ : « عزيزى لورد بكونسفيلد ، أرسل إليك بعض أزهار الربيع

المحبة لديك » . كان هذا المزيج من الحزن والشعر الريفى فى الرسالة ملائماً
لذرائيل وهو على سرير الموت .

ظل الجمهور فى الخارج ينتظر الأخبار ، وتقدم سيد باذلاً دمه ، ومن
الصعب أن يتصور الجمهور أن ذلك الساحر الغريب الذى صار من المنشآت
الوطنية يخفى كما يخفى الرجل الفانى ؛ انتظر الناس ما لا ينتظر حتى فى الموت ،
وسرت بين الجمهور روايات غريبة ، فقل إنه دعا للاعتراف قساً من
اليسوعيين ؛ لكن الحقيقة أن لورد بكونسفيلد لم يكن سرا ، بل هو كجميع
الناس ، يسير فى هدوء نحو نهاية أجله ، وفى نحو الساعة الثانية من صباح
يوم الاثنين ١٩ أبريل فهم الدكتور كيد أن النهاية تقترب ، وكان لورد روتون
حاضراً وهو ممسك باليد اليمنى لهذا الجسد الساكن ، وعلى حين فجأة اعتدل هذا
الجسد فى بطء بأن ألقى كتفيه إلى الخلف ، وعرف الذين من حوله وهم فى عجب
حركته المألوفة عند ما يقف للكلام فى المجلس ، وتحركت شفاته ، لكن
أصدقاءه الذين بادروا للاقترب منه لم يسمعوا كلمة واحدة ، ثم عاد فسقط جسده
إلى الخلف ، ولم يستيقظ من نومته .

عرض جلادستون باسم الحكومة أن تكون الجنازة رسمية ، وأن يدفن فى
قبر بكنيسة وستمنستر ، لكن الذين أقامهم على تنفيذ وصيته رأوا أن لورد
بكونسفيلد كان يود أن يدفن فى هوجندن على مقربة من زوجته فى المقبرة
الصغيرة بجوار الكنيسة فى هوجندن ، لذلك تم الدفن فى حدائقه ببساطة
كبيرة ، وبحضور ولى العهد وبعض الأصدقاء ، وكان على النعش إكليان من
الملكة أحدهما من أزهار الربيع الطبيعية كتب عليه : « أزهاره المحبوبة » ،
وكتبت الملكة على الآخر بيدها : « دليل الحب الخالص والصدقة والاحترام » ،
كانت الملكة فى تلك اللحظة بعيدة فى أوزبورن ، بحيث لا تستطيع حضور
الجنازة ، لكنها ما عادت حتى زارت القبر ماشية على قدميها من القصر ، أى

في الطريق الذي اخترقه موكب الجنازة ، وأقامت في الكنيسة نصبا تذكاريا على نفقتها ، ونرى هنالك تحت الرموز الخاصة بمرتبته كشریف صورة جانبية لوجهه من الرخام ، ونقرأ تحت ذلك :

إلى

الذكرى الشريفة العزيزة

لبنيامين إرل بكونسفيلد

أقيم هذا النصب التذكارى بواسطة

ملكته المعترفة بفضلها وصديقتها

« مرضاة الملوك شفتا حق »

أمثال ١٦ — ١٣

أثارت الكتابة الملكية على أزهار الربيع « أزهاره المحبوبة » لغطا كثيرا فإن بساطة هذا الاختيار ضاقت منافسيه الدائمين ، وقال جلادستون للادى دورثى نفيل وهو جالس إلى جانبها على مائدة الطعام إنه يشك في ميل لورد بكونسفيلد لهذه الأزهار ، وسألها : « قولى بشرفك يا لادى دورثى هل سمعت قط لورد بكونسفيلد يعرب عن إعجاب خاص بأزهار الربيع ؟ إني أعتقد أنه كان يفضل الزنبق الجميل » .

لكن في السنة التالية ، عند ما اقترب يوم ١٩ أبريل ذكرى وفاته سأل كثيرون من تلاميذه وأصدقائه بائى الأزهار في لندن بأن يعدوا باقات صغيرة من أزهار الربيع العزيزة لدى لورد بكونسفيلد ، وعند ما جاء اليوم مشى على أرصفة وست إند كثيرون من المارة ، وقد زينوا بها صدورهم ، وامتدت العادة من سنة إلى سنة ، وانشئت جمعية كبيرة من المحافظين سميت جمعية أزهار الربيع ، وفي ساحة البرلمان الصغيرة في كل ربيع يزور تمثال دزرائيلى عدد لا يحصى من المخلصين لذكراه ، يجيئون ليزينوا تمثاله بزهرته المحبوبة .

بعد مرور بضع سنوات على وفاة دزرائيلى ، اقترب دكتور « بل » من لورد

استاس سسل في نادى كارلتون وقال : ألا تزال تذكر الأحاديث التى كانت تجرى
بيننا هنا فى المكتبة عادة حين كنا غاضبين على زعمائنا ونلقبهم «الجوكى واليهودى»
والآن فى هذا الصباح نفسه عند ما كنت ماراً أمام وستمنستر ، رأيت تمثال
مستر دزرائيلى مغطى كله بالأزهار ... أى نعم ... إنهم الآن جعلوه قديساً .
قديس ؟ لا ! إن دزرائيلى بعيد عن أن يكون قديساً ، لكن ربما اعتبروه
روحا قديمة للربيع ، تهرم دائماً ، ثم تحيا دائماً من جديد ، وهو رمز لما يستطيع
القلب الذى احتفظ بشبابه طويلاً أن يفعل فى عالم يعاديه .

114920414

B13130353

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

Date D

Feb

1978

DA
564
B3
M312
1939



